أ د إبراهيم جدلة



دراسات حول
تاريخ بعض مدن إفريقية وقبائلها
في العصر الوسيط

(دراسات حول مدن تونس و القيروان و قفصة وبنزرت وحمام الأنف وحول القبائل المنتشرة بإفريقية وعلاقتها بالحواضر و بالسلطة المركزية)



تصدير

يجمع هـذا الكتـاب 11 مقالـة اخترتهـا مـن بـين الدراسـات المختلفـة التـي قدمتهـا في مناسـبات وملتقيـات علميـة مختلفـة و نشرتهـا في العديـد مـن الدوريـات العلميـة في الفـترة الممتـدة مـن سـنة 1991 إلى سـنة 2011. وتـدور هـذه الدراسـات التـي وقـع الاختيـار عليهـا حـول محوريــن أساســيين وهــما: عــالم المدينــة و عــالم القبيلــة بإفريقيــة في العـصر الوسـيط عامـة و العهـد الحفـصي خاصـة.

وجـاءت المقالـة الأولى كمحاولـة في الديموغرافيـا التاريخيـة تخـص السـكان الحـضر بإفريقيـة مـن القـرن 7هــ / 13 م إلى القـرن 10 هــ / 16م، ثـم تلتهـا بعـض الدراسـات التـي تخـص بعـض المـدن مثـل القيروان وقابـس وقفصـة و بنـزرت وحـمام الأنـف وتونـس في فـترات مختلفـة بدايـة بنكبـة القـيروان في القـرن الخامـس هــ / الحـادي عـشر م و انتهـاء بمـا حـلّ مـن مصائـب بمدينـة تونـس أثنـاء القـرن العـاشر هــ / السـادس عـشر م عندمـا تـم احتلالهـا مـن طـرف الإسـبان.

وفي مـا يخـص المحـور الخـاص بالمجتمـع البـدوي، أقـدّم في هـذا العمـل دراسـتان أساسـيتان تهـم الأولى : المجموعـات القبليـة الهلاليـة أثنـاء العهـد الحفـصي مـن حيـث انتشـارها وأدوارهـا وتأثيراتها السياسـية والاجتماعيـة، وهـو مـا يسـمح لنـا بفهـم مكانـة المجتمـع القبـلي وعلاقته بالسـلطة في مختلـف الفـترات اللاحقـة. أمـا الدراسـة الثانيـة فهـي تخـص قبيلـة ريـاح ، أولى القبائـل الكبـيرة التـي دخلـت إفريقيـة منـذ القـرن

الخامس هـ / الحادي عشر م، والتي لعبت الأدوار الأولى في التحالفات وخاصة في الصراعات مع سلطة الموحدين ثم الحفصيين من بعدهم، و كان مصير الجزء الأكبر من هذه القبيلة القادمة من ضفاف النيل الأعلى أن انزاحت بحكم الصراعات نحو المغرب الأقصى و الأندلس حيث كان لها دور هام في الجهاد ضد المسيحيين.

وقد جاءت الدراسة الأخيرة لتعبر عن مثلث السلطان – القبيلة – المدينة، فمن خلال دراسة « مؤسسة المحلة » التي عكس ما يعتقد الكثيرون لم تكن مستحدثة من طرف الأتراك بل هي أقدم منهم بكثير بحكم ظهورها في فترة متقدمة من العهد الحفصي. وقد كانت المحلة في هذا العهد أداة حكم و سلطة لعبت فيها بعض القبائل القوية دورا هاما كقوى رديفة للجيوش السلطانية. ولعل وجود المحلة هو الذي يفسر كيف تمكنت الدولة الحفصيّة من البقاء ثلاثة قرون و نصف عكس ما يفترضه ابن خلدون من أن عمر الدولة ثلاثة أجيال فقط (أي حوالي 120 سنة).

أعتقد ان تجميع هذه الدراسات سيمكّن الباحثين الشبان من الاطّلاع على أعمال متنوّعة و متفرّقة، تبدو الآن بعيدة زمنيّا من حيث الصدور، لذلك أرجو أن تعمّ الفائدة بنشرها في كتاب واحد ووضعها على ذمة القرّاء.

أ د إبراهيم جدلة

المقالات المنشورة في هذا الكتاب:

السكان الحضر بإفريقية من القرن الثالث عشر م إلى القرن السادس عشر م، ضمن: الديموغرافيا التاريخية في تونس و العالم العربي، دار سراس للنشر ، تونس 1993، ص 85- 100.

القيروان و المجد الضائع: كيف فقدت القيروان دورها كعاصمة سياسية و فكرية لإفريقية، نشرت ضمن: إشعاع القيروان عبر العصور، بيت الحكمة، قرطاج،2010، ج 1، ص 223 – 238.

سلطة بني جامع في مدينة قابس، الكراسات التونسية، مجلد 49، عدد 176، 1997، ص 10 – 20.

بنو مكي و الحفصيين: من التحالف إلى الصراع (624 هـ / 1227 م – 796 هـ / 1394 م)، الكراسات التونسية، مجلد 46، عدد 162 – 163، 1992-1993، ص 29 – 41.

مدينة قفصة في العصر الوسيط، نشرت ضمن: الواحات ، تراث وتنمية، جامعة قفصة، 2011، ص 52 – 58.

مدينة بنزرت في العهد الحفصي ، نشرت ضمن : بنزرت عبر العصور، جمعية صيانة مدينة بنزرت، بنزرت، 1993، ص 107 – 112.

حمام الأنف في العصور الإسلامية ، نشرت ضمن: الثقافة التونسية: ما بين العالمة و الشعبية، كراسات مركز الدراسات و البحوث الاقتصادية و الاجتماعية، عدد 6، 201، ص 235 – 242.

الحضـور الأوروبي بمدينـة تونـس أثنـاء القـرن العـاشر هــ / السـادس عشر م، نـشرت ضمـن: مجلـة اللغـات الحيـة، عـدد 6، تونـس 1991، ص 11 – 23.

المجموعـات القبليـة البدويـة وتأثيرهـا عـلى الحيـاة الاجتماعيـة والسياسـية بإفريقيـة أثنـاء العهـد الحفـصي تـمّ نشرهـا ضمـن: « القبيلـة والمدينـة والمجـال في العـالم الغـربي الإسـلامي الوسـيط، منشـورات : كلّيـة العلـوم الإنسـانيّة والإجتماعيّـة بتونـس، تونـس 2006، الصفحـات 153- 182 , قبائـل ريـاح: مـن النيـل إلى الأطلـسي ،المجلّـة التونسـية للعلـوم الاجتماعيـة، عـدد 127، 2004، ص 103 – 114. المحلـة في العهـد الحفصي، الكراسـات التونسـية، مجلـد 48، عـدد 170-169، 1995، ص 27 – 42.

وسنقوم بتقسيم هذه الدراسات إلى محورين كبيرين:

أ) دراسـات حـول مـدن إفريقيـة في العـصر الوسـيط: وهـو يضـمّ مـا تناولتـه حـول السـكان الحـضر بإفريقيـة ومـدن القـيروان وقفصـة وبنـزرت وحـمام الأنـف، واختتـام ذلـك بالحضـور الأوروبي بمدينـة تونـس في القرن السـادس عـشر.

ب) القبائـل والسـلطة والمجـال بإفريقيـة في العـصر الوسـيط: وهـذا الجـزء يضـمّ : المجموعـات القبليـة البدويـة، وقبائـل ريـاح مـن النيـل إلى الأطلـسي، وسـلطة بنـي جامـع في مدينـة قابـس وبنـو مـكّي والحفصيـين، وأخـيرا المحلـة في العهـد الحفـصي.

القسم الأول:

دراسات حول بعض مدن إفريقية في العصر الوسيط:

السكان الحضر، القيروان، قفصة، بنزرت، حمام الأنف، الحضور الأوروبي بمدينة تونس.

السكان الحضر بافريقية

من القرن الثالث عشر م إلى القرن السادس عشر (م)

قبل كل شيء لا بد من التأكيد أنه و حتى القرن السابع عشر م على الأقل يصعب التحدث بصفة فعلية عن ديمغرافيا تاريخية بالنسبة لبلاد المغرب فالغياب الكلي لأي شكل من أشكال الأرشيف و الإحصائيات الخاصة بالسكان أو الجند أو الضرائب تجعل مهمة الباحث في هذا الميدان صعبة إن لم نقل مستحيلة و كل ما يمكن القيام به هو الاجتهاد في التعرف على وضعية تقريبية ربما كان هامش الخطأ فيها كبيرا في الكثير من الأحيان.

وليست هذه العقبة الأولى التي تعترضنا إذ أن جل مصادرنا تشكو من النقص الكبير في المعطيات المرقمة والموثوق بها وهو ما يجعل مهمتنا أصعب وحتى المعطيات التي أمكن لنا الحصول عليها فغالبا ما كانت تخص مدينة تونس بالدرجة الأولى وذلك باعتبارها عاصمة السلطنة، كما أن الكثير منها يرجع للقرن السادس عشر (أي أواخر العهد الحفصي) و جاء على لسان الرحالة، والمحاربين، والجواسيس الأوروبيين خاصة أثناء الصراع الاسباني- العثماني في الحوض الغربي للبحر المتوسط.

أخيرا، ومن الناحية النظرية وإذا انطلقنا من تعريف بيار شونو P.CHAUNU للديموغرافيا التاريخية بأنها :« ليست العدد فقط بل

إعـادة البعـد الأكـثر داخليـة للإنسـان»[1]، وهـو مـا يعنـي تعـدد المشـاكل التــي يجــب طرحهــا مثــل : الــزواج، والســن عنــد الــزواج، وممارســة تحديـد النسـل، والـولادات، والوفيـات، والتنقل...فـإن الصعوبـات تبقـى قائمـة لأن الديمغرافيـا التاريخيـة و بوصفهـا شـكلا مـن أشـكال التاريـخ الكمـي تعتمـد أساسـا عـلى العنـصر المتكـرر داخـل سلسـلة متجانسـة مــن الأحــداث أو العنــاصر القابلــة للمقارنــة فيــما بينهــا مــن خــلال وحـدة أو وحـدات زمنيـة معيّنـة[2].

وبمراجعـة المصـادر التاريخيـة التـي تخـص العهـد الحفـصي نلاحـظ أن العنـصر الوحيـد المتكـرر الـذي نعـثر عليـه يتمثـل في الحـروب و الكوارث و إذا اعتمدنـا عـلى هـذا العنـصر فقـط فإننـا نلتقـي حتـما بفكـرة بيـار شــونو(P.CHAUNU) القائلــة بــأن هــذه الديمغرافيــا «المجوّفــة لا المحدّبـة تقودهـا المـوت لا الحيـاة»[3].

لكن رغم هذه الحدود المختلفة سأحاول التطرق إلى :

-التوزيع الجغرافي للمدن.

- والخاصيات الديمغرافية للسكان.

- ثم سأنهي ذلك بمحاولة تحديد أعداد السكان الحضر.

---

1 P.CHAUNU , «L’histoire Sérielle .Bilan et perspectives», in Histoire quantitative histoire serielle, A. Colin Paris 1978,p ,131.

2 F.FURET,» le quantitatif en histoire«, in Faire de l’histoire, Paris 1974,T,II,p47

3 CHAUNU, «la démographie et ses dépassements» , in Histoire quantitative…,p 208

I) نهضة المدن الساحلية:

شـهدت الحيـاة الحضريـة أثنـاء العهـد الحفـصي تفاعـلا بـين ارث ثقيـل ناتـج عـن الزحـف الهـلالي و تحـولات جديـدة أجدثهـا الاسـتقرار النسـبي للأوضـاع بدايـة مـن القـرن الثالـث عـشر م .

و رغـم غيـاب تأسـيس مـدن جديـدة نلاحـظ أن بعـض المدن مثـل تونس و بجايـة قـد اسـتفادت كثـيرا مـن موقعهـا السـاحلي و مـن وظيفتهـا كعاصمـة للسـلطنة بالنسـبة لـلأولى و عاصمـة إقليميـة بالنسـبة للثانيـة لـكي تسـتقطب الكثـير مـن النازحـين مـن داخـل البـلاد و القادمـين مـن الأندلـس و أوروبـا و هـذا يؤكـد أن الاتجـاه البـارز في التحـول العمـراني في تلـك الفـترة هـو انتقـال المراكـز الهامـة نحـو سـاحل البحـر و قـد ارتبـط هـذا التوجـه بالتجـارة البحريـة و القرصنـة و يقـول دي بلانـول (X .de Planhol) في هـذا الصـدد:« لقـد لجـأت الحيـاة الحضريـة لعـدة قـرون إلى السـواحل و تمركـزت في المـدن السـاحلية حيـث اعتمـدت عـلى القرصنـة باحثـة في المـاء عـن أهـم ثرواتهـا» [4] و كانـت بـوادر هـذا التحـول بـدأت في الـبروز منـذ منتصـف القـرن الحـادي عـشر [5] وبرجـوع افريقيـة إلى توجههـا المتوسـطي أصبـح مصيرهـا مرتبطـا بالمـدن السـاحلية[6] وأصبحـت المـدن تتميـز عـن بعضهـا حسـب وجودهـا عـلى السـاحل أو داخـل البـلاد .

أ) المدن الساحلية:

و هــي ليســت متجانســة مــن حيــث الاتســاع و الــثروة و الأنشــطة الاقتصاديــة لذلــك يمكــن تصنيفهــا إلى نوعــين:

[4] X. Planhol, les fondements géographiques de l'histoire de l'islam, Flammarion, Paris, 1968, p 151.

[5] G.MARCAIS,« l'urbanisme musulman«, V^{ème} Congrés de la Fed des Soc Savantes de l'Afrique du Nord, Alger, 1940, p.20.

[6] BRUNSCHVIG (R.) ,préface de *Etudes Kairouanaises*,p., V.

1) المدن المتوسطية:

و ينحصر هذا النوع في مدينتين فقط، و هما : تونس و بجاية اللتان ارتبطتا أكثر من غيرهما بالبحر الأبيض المتوسط و كانتا أقرب من غيرهما إلى نوع المدن المتعددة الجنسيات حيث نجد كثيرا من العناصر البشرية القادمة من مناطق مختلفة لتعاطي شتى الأعمال بما في ذلك الارتزاق العسكري .و في هاتين المدينتين نجد العديد من الفنادق و الكنائس و الأحياء الخاصة بالأوروبيين من مختلف الجنسيات. و قد لاحظ أحد الزوار الأوروبيين في نهاية العهد الحفصي أن « تونس تحتل من بعيد المرتبة الأولى في افريقية و هي لا تقل قيمة عن أي مدينة مسيحية أخرى...»[7].

2) بقية المدن الساحلية:

رغم ما ذكرناه عن لجوء الحياة الحضرية نحو السواحل فإن المدن الساحلية رغم تعددها فهي في أغلبها لم تندمج بعد في دائرة تأثير الاقتصاد المتوسطي و ظلت أهميتها ثانوية بالمقارنة مع تونس وبجاية فحتى المدن التي حافظت على استقلاليتها في بعض الفترات مثل قابس أو طرابلس لا تذكر المصادر أنها كانت كبيرة أو ذات أهمية أما المهدية و باعتبارها عاصمة قديمة فقد كانت لها مكانة معتبرة في بداية العهد الحفصي لكن دورها تضاءل شيئا فشيئا حتى أصبحت محدودة الأهمية و قد أجمعت المصادر على أن بقية المدن الساحلية مثل : سوسة [8] و المنستير[9] و الحمامات [10]و بنزرت [11]وبونة[12]و صفاقس [13]ظلت متواضعة و صغيرة الحجم.

---

7 B.RUFFINO, sur la destruction de la Goulette … in Paul Sebag, »une relation inédite….«, *C. T.*, 65-66-67-1969,p,144

8 رحلة العبدري، الرباط 1968 ،238،رحلة ابن بطوطة،18،صبح الاعشى v،103،ليون الإفريقي (الحسن الوزان) وصف إفريقيا، بيروت 1983،II،83-84

9 BRUNSCHHVIG, *Deux récits de voyage*…., Paris 1936,224

10 رحلة العبدري،239،رحلة البلوى،المحمدية 1964،II،93،وصف إفريقيا،II،83

11 وصف إفريقيا ،68،II

12 رحلة العبدري،27، رحلة البلوي،163،I

13 رحلة التيجاني،تونس 1958،68،رحلة ابن بطوطة،18-19

ب) المدن الداخلية:

مثلما رأينا بالنسبة للمدن الساحلية نلاحظ أيضا نوعا من التباين فيما بين المدن الداخلية من حيث الاتساع و الأهمية الاقتصادية والبشرية. و على رأس هذه المدن نجد قسنطينة التي يمكن اعتبارها مثل بجاية عاصمة إقليمية و قد وصفتها بعض المصادر بأنها مدينة كبيرة [14]. وهي تلعب دور سوق تجميع و توزيع مع الأرياف والبوادي المحيطة بها. أما القيروان فرغم تاريخها كعاصمة سياسية سابقا و كمركز ديني هام فان دورها تضاءل كثيرا و قال عنها العبدري:« لم أر إلا رسوما محتها يد الزمان و أثارا يقال عنها كان و كان» [15] و لعلها انتفعت من موقعها كسوق للبدو[16] لكن هذا لم يضعها في مصاف الحواضر الهامة.

أخيرا لا بد من التحدث عن صنف من المدن الداخلية و هي مدن الواحات التي انتفعت من موقعها شمال الصحراء فكانت في السابق مراكز لعبور القوافل نحو الصحراء و منها. و قد حافظت هذه المدن على نوع من الرخاء و يرجع ذلك أساسا لكونها قامت على أساس نوع من الاكتفاء الذاتي المرتكز على الزراعات السقوية بواسطة العيون التي لا تتأثر قط بتغير الظروف الطبيعية.

---

[14] العمري،وصف افريقية و الأندلس، نشر ح عبد الوهاب ، تونس د ت، 7،وصف إفريقيا،II،56

[15] رحلة العبدري،64

[16] BRUNSCHHVIG, *la Bérbérie Orientale sous les Hafsides,* Paris 1940-47,I,363

II) الخاصيات الديمغرافية للسكان الحضر

في غياب الإحصائيات و الأرقام يمكن أن ننطلق من بعض الظواهر العامة لمختلف المجتمعات العربية الإسلامية مثل : الزواج المبكر و انتشار تعدد الزوجات و استعمال الجواري للإنجاب لكي نؤكد أن نسب الولادات كانت مرتفعة، لكن في نفس الوقت و إذا ما اعتبرنا أن جل المجتمعات ما قبل الرأسمالية كانت تشكو من سوء التغذية و ضعف التقنيات و التخلف العلمي، يمكن التأكيد أيضا أن نسب الوفيات كانت لا تقل عن نسب الولادات من حيث أهميتها غير أن هذه الظاهرة التي يعبر عنها بالديمغرافيا الطبيعية[17] لا يمكن أن تحجب عنا أهمية عاملين مؤثرين في نسق نمو السكان و هما:

- توافد مجموعات بشرية من أصقاع أخرى

- الموت الدورية الناتجة عن الأوبئة

1) المجموعات البشرية الوافدة:

مثلت افريقية طيلة العهد الحفصي مركز استقطاب للعديد من المجموعات العرقية المختلفة الأصول و التي استقرت بالمدن دون غيرها من بين هذه المجموعات نذكر:

- **الموحدون:** ارتبط دخولهم افريقية بالعساكر التي جاءت مع عبد المؤمن بن علي ثم أثناء الحروب ضد بني غانية و لما جاء عبد المؤمن كان معه « من العساكر مائة ألف مقاتل و من الإتباع والسوقة أمثالهم»[18] و قد استقرت أعداد هائلة من هؤلاء بصفة نهائية بالبلاد و خاصة ببعض المدن الهامة مثل تونس و بجاية وقسنطينة و كذلك بالمهدية و تبرسق و ربما استقروا في مدن أخرى

---

[17] P. SEBAG, *Tunis au XVIIe s,* Paris 1989,p,61

[18] ابن الأثير ،الكامل في التاريخ ،IX،63

و اذا ما اعتبرنا أن الذين بقوا بافريقية لا يمكن أن يقل عددهم عن خمسين ألف من المقاتلين [19] فان العدد الجملي للموحدين يمكن إذا ما احتسبنا نساءهم و أطفالهم و خدمهم أن يرتفع الى أكثر من مائتي ألف شخص.

- **مسلمو صقلية و مالطة:** لقد افترض الأستاذ الدولاتلي[20] قدوم بعض السكان من صقلية في أواخر القرن الخامس هـ/الحادي عشر م و خلال القرن السادس هـ/الثاني عشر م و تؤكد المصادر تواصل وجود المسلمين بصقلية حتى بداية العهد الحفصي فإثر وفاة الأمير أبي زكرياء سنة 647هـ/1249 م تم إجلاء بقايا هؤلاء من صقلية ومالطة نحو افريقية[21] و بما أن العملية كانت جماعية فمن المؤكد أنها شملت عدة مئات إن لم نقل بعض الآلاف.

- **الأتراك و الأكراد:**

تحدثت العديد من المصادر[22] عن المماليك الأتراك الذين كانوا من خواص و جنود السلاطين و قد أشار ابن خلدون الى الأكراد « الذين وفد رؤساؤهم على ملوك المغرب أيام أجلاهم التتر عن أوطانهم بشر زور عند تغلبهم على بغداد سنة ست و خمسين و ستمائة » [23] و من بين هؤلاء من وصل إلى مناصب هامة في الدولة مثل محمد بن القالون المعروف بالمزوار[24]و منصور التركي[25] و عبد الله التريكي

[19] أثناء تحرك أبي زكرياء يحي ضد تلمسان سنة 639هـ/1241 م كان جيشه يعد حوالي 64000 مقاتل

[20] الدولاتلي ، مدينة تونس في العهد الحفصي، تونس 1981،ص88

[21] ابن خلدون،العبر،بيروت VI،626،1959

[22] العمري،12،24؛ القلقشندي، صبح الأعشى،V،145؛ الشماع، الأدلة البينة، تونس 1984،70

[23] العبر، VI،770

[24] ن م ، نفس الصفحة

[25] ن م VI،719

الـذي تـولى حجابـة الامـير أبي بكـر بقفصـة[26] والقائـد بـلاط مـن وجـوه المرتزقـة بالحـضرة[27].

- **الزنـوج**: إن اسـتقدام الزنـوج ظاهـرة قديمـة في حـد ذاتهـا و لا شيء يدل عـلى أنهـا انقطعـت أثنـاء العهـد الحفـصي و قـد كانـت مدينـة تونـس تشـتمل عـلى عـدد هـام منهـم[28] كانـوا يتعاطـون خاصـة خدمـة المنـازل و مـن الأشـياء التـي لفتـت انتبـاه الرحالـة آدورن Adorne وجـود عـدد كبـير مـن السـكان السـود [29] و يبـدو أن هـذه الظاهـرة متطـورة خاصـة في مـدن الواحـات التـي تعتـبر الممـر الرئيـسي لتجـارة العبيـد وعبورهـم نحـو مناطـق أخـرى.

- **اليهـود:** رغـم أن اسـتقرار اليهـود بافريقيـة قديـم فـان عددهـم قـد تنامـى أثنـاء العهـد الحفـصي نتيجـة قـدوم البعـض منهـم للاسـتقرار ببعـض المـدن و خاصـة بمدينـة تونـس اثـر طردهـم مـن اسـبانيا والبرتغـال أثنـاء القرنـين الثامـن هـ/الخامـس عـشر م[30] و كان اليهـود المحليـون يدعـون بالشـكلين (نسـبة للشـكلة) و القادمـون الجـدد يدعون بالكبوسـيين (نسـبة للشاشـية التـي كانـوا يضعونهـا علـو رؤوسـهم) [31].

و توزعـت التجمعـات اليهوديـة عـلى المـدن السـاحلية مثـل : تونـس وبجايـة و بونـة و طرابلـس و بعـض المـدن الداخليـة مثـل قسـنطينة [32] و ربمـا اسـتقروا في مـدن و قـرى أخـرى مثـل سـليمان و زغـوان [33] أو في

---

26 ن م VI،940

27 ن م VI،766

28 الدولاتي،مدينة تونس ،90

29 BRUNSCHHVIG, *Deux récits*…,200

30 P.SEBAG, *La Hara de Tunis,* PUF, 1959, pp, 11,12

31 BRUNSCHHVIG, la Berbérie, I, 405

32 Ibid, I, 398-9

33 H.H. Abdul-Wahab, « Coup d'œil général sur les apports ethniques étrangers en Tunisie », Réimprimé in, *Les CT*, TXV I ,96-70-1970, p, 164

مـدن الواحـات مثـل قفصـة و تـوزر و كانـوا يمثلـون في بعـض القـرى أغلبيـة السـكان إن لم نقـل كلهـم مثـل قريـة صرمـان قـرب طرابلـس[34].

- **النصـارى الاروبيـون**: إذا مـا انطلقنـا مـن كـون عبـد المؤمـن بـن عـلي قتـل كل مـن لم يسـلم مـن اليهـود و النصـارى [35] نلاحـظ أن الجاليـة المسـيحية التـي ظهـرت في العهـد الحفـصي تتكـون أساسـا مـن عنـاصر جديـدة لعبـت دورا هامـا عـلى المسـتوى السـياسي و العسـكري فجـل أمهـات السـلاطين الحفصيـين كانـوا مـن المسـيحيات[36] و كانـت جيوشـهم لا تخلـو أبـدا مـن المرتزقـة الأروبيـين و قـد كان لهـم حـي سـكني خـاص بهـم [37] بعاصمـة الدولـة و إلى جانـب هـؤلاء المرتزقـة نجـد التجـار والعبيـد و بعـض رجـال الديـن و كان المرتزقـة و العبيـد أكـثر عرضـة للأسـلمة والاندمـاج في المجتمـع المحـلي.

- **الأندلسـيون**: تعتـبر هجـرة الأندلسـيين نحـو افريقيـة أهـم حركـة سـكانية عرفتهـا افريقيـة أثنـاء العهـد الحفـصي و قـد عرفـت هـذه الحركـة نسـقا سريعـا منـذ منتصـف القـرن السـابع هـ/الثالـث عـشر م (سـقوط قرطبـة سـنة 1236 م) و حتـى نهايـة القـرن التاسـع هـ/الخامس عـشر م (سـقوط غرناطـة سـنة 1492م) حيـث عرفـت دفعـا قويـا وشـملت أعـدادا هائلـة مـن الأندلسـيين و قـد تواصـل قـدوم هـؤلاء حتـى تاريـخ الطـرد النهـائي لمـا تبقـى منهـم سـنة 1016هــ/1609 م وقـد افـترض المرحـوم حسـن حسـني عبـد الوهـاب أن عـدد المهاجريـن قبـل سـنة 1609 م لا يقـل عـن 100 ألـف شـخص [38] و هـو رقـم ليـس مبالغـا فيـه نظـرا لاسـتقرارهم الواسـع الانتشـار.

---

[34] نوازل البرزلي،مخطوط رقم 4851 د ك و تونس،ج 1 ،171

[35] رحلة التجاني،347

[36] H.H. Abdul-Wahab, op. cit,161-162

[37] Ibid., 161

[38] Ibid, I, 162

و في بداية الأمر استقر هؤلاء في تونس و بجاية لكن اثر سقوط غرناطة توزعوا على مدن أخرى مثل القيروان و سوسة و صفاقس و قابس و نفطة[39]و هذا التوزيع الواسع دليل على أهمية عد المهاجرين .هكذا نلاحظ أن افريقية ظلت لمدة طويلة قطب جذب للسكان انطلاقا من الزحف الهلالي الذي لا يستبعد أن يكون قد شمل حوالي مليون نسمة[40] مرورا بالمد الموحدي و انتهاء بالهجرة الأندلسية المكثفة لكن و في مقابل هذا الإنماء البشري عرفت المنطقة ظاهرة الموت الدورية المرتبطة بتعدد الكوارث الطبيعية و الحروب.

2) الموت الدورية:

لقد عرفت افريقية طيلة العهد الحفصي العديد من الكوارث الطبيعية من أوبئة و مجاعات انتهت بالصراع الاسباني العثماني حول السلطنة الذي كان له دور كبير في القضاء على جزء هام من سكان مدينة تونس بالخصوص. و انطلاقا من تواتر هذه الكوارث (انظر الجدول 1) نلاحظ أن البلاد تعرضت لهذه الآفات بمعدل مرة في كل 19 سنة و قد لاحظ ذلك ليون الإفريقي (الحسن الوزان) منذ بداية القرن السادس عشر حيث قال: « و يظهر الوباء في بلاد البربر على رأس كل عشر سنوات أو خمسة عشر سنة أو خمس وعشرين سنة و عندما يأتي يذهب بالعدد العديد من الناس» [41]

و إن كانت هذه الكوارث حتى منتصف القرن الثامن هـ/الرابع عشر م قليلة الأهمية و بمعدل كارثة في كل 30 سنة فإنها تزداد أهمية بعد الطاعون الجارف (الأسود) و خاصة في النصف الثاني من القرن التاسع هـ/الخامس عشر م 1443 م-1453م-1458م- 1468 م- 1493م -1497م) حيث تعرضت البلاد لوباء كل 10 سنوات و كان أخطرها

[39] نبذة العصر في أخبار ملوك بني نصر، العرائش 1940،ص48

[40] G.MARCAIS, *Les Arabes en Berbérie* , Paris 1913,p,733

[41] وصف إفريقيا ،85،1

على الإطلاق وباء 872هـ-873هـ/1468-1469م الذي بلغ فيه عدد الموتى حوالي 1000 يوميا [42] و ربما بلغ 14000 في اليوم الواحد [43] وحسب ابن أبي دينار تم حصر 400000 ضحية و هناك 100000 لم يتم تسجيلها[44] أي أن السلطنة فقدت في ظرف سنتين قرابة نصف مليون نسمة و يغلب على الظن أن العدد الهام الذي تم حصره كان يهم الأوساط الحضرية حيث تمكن عملية الإحصاء في تلك الفترة.

جدول رقم 1 : الكوارث التي تعرضت لها افريقية

من منتصف القرن 7 هـ/13 م إلى نهاية القرن 9هـ/15 م

665هـ/1258 م	وباء	الفارسية،121
668هـ/1270 م	وباء	العبر VI:291،الشماع،67
679هـ/1280 م	قحط	تاريخ الدولتين، 45
693هـ/1294 م	وباء-مجاعة	ابن ابي زرع،409
50- 749هـ/9- 1348م	الطاعون الجارف	الشماع،98،تاريخ الدولتين،58
755هـ/1354 م	مجاعة	تاريخ الدولتين،95
766هـ/1364م	طاعون	الشماع،105
796هـ/1394م	وباء	الابي،الاكمال،VI،33-34
805هـ/3- 1402م	وباء بتونس و جهاتها	الفارسية،199
847هـ1443م	وباء بتونس و نواحيها	تاريخ الدولتين،141
857هـ/1453م	وباء	تاريخ الدولتين 147
862هـ/1458م	مجاعة	تاريخ الدولتين،150
3- 872هـ/9- 1468م	وباء(طاعون)	تاريخ الدولتين،158،المؤنس،158
895هـ/1493م	وباء	الحلل السندسية(ط 1)،I،1090
899هت/1497م	وباء عظيم	المؤنس،159

[42] الزركشي،تاريخ الدولتين،تونس،158

[43] ابن أبي دينار،المؤنس في أخبار افريقية و تونس،تونس،158

[44] ن م ،158

و إلى جانب هذه العوامل الطبيعية كان للحروب المزمنة أيضا تأثير مدمر على المستوى الديمغرافي و لو أن هذه الحروب الداخلية في أغلب الأحيان و رغم تعددها ظلت حتى بداية القرن العاشر هـ/ السادس عشر ذات تأثير محدود بسبب عدم انتشار الأسلحة النارية و لان أغلب هذه الحروب كان رهين معركة واحدة تؤدي عادة إلى وضعية استقرار جديدة و لكن أثناء القرن العاشر هـ/السادس عشر م و أثناء الصراع الاسباني- العثماني الذي استعملت فيه الأسلحة النارية و المدافع على نطاق واسع تأثرت كل المدن الساحلية سلبا نتيجة الحرب و خاصة مدينة تونس التي تم اجتياحها سنة 931هـ/1535 م و قد أورد ابن أبي دينار أن ثلث سكانها الذي يعادل 60 ألف شخص قد قتل و أسر الثلث [45]و حتى إن كان هذا الرقم مبلغا فيه فهو يدل على أهمية ضحايا هذه الحرب الذين لا يمكن أن يقل عددهم بحال من الأحوال عن عشرين أو حتى ثلاثين ألف و قد وصف لنا مارمول ذلك قائلا: « فكنت ترى هنا و هناك أكواما ضخمة من جثث النساء و الأطفال و قد اختنقوا أو ماتوا بالعطش...» [46] و ما يمكن أن نلاحظه أيضا هو أن هذه الموت الظرفية التي تظهر بصفة دورية في البلاد تتسبب في ازدياد الوفيات الهيكلية المرتبطة بالوضع الغذائي و الصحي للسكان إضافة للتعاطي العادي لوسائل منع الحمل الذي كثيرا ما ناقشه الفقهاء و أباحوا بعض أشكاله [47]و قد تحدث البعض عن العقاقير التي تسقط النطفة من الرحم [48]و ان كانت هذه الممارسة حسب ما يبدو مخصصة لجواري للإبقاء على قيمتها البضاعية[49] فان استعمالها على نطاق أوسع ليس مستبعدا نظرا لاهتمام الفقهاء بهذه المسألة. و بصفة عامة يمكن القول أن

---

[45] ن م ،164.

[46] مارمول ،إفريقيا،الرباط1988-9،54،III

[47] الونشريسي،المعيار المغرب،بيروت 1981،236-235،IV،370،353،III

[48] النفزاوي، الروض العاطر،تونس د ت ،55-54

[49] M.TALBI , « Effondrement démographique », *C.T.*, 97-98, 1977, p. 59.

نسـب الوفيـات مرتفعـة لكـن افريقيـة و حسـب المعطيـات المتوفـرة لم تعـرف الانهيـار الديمغـرافي الفعـلي (النمـو الديمغـرافي صفـر) إلا بدايـة مـن النصـف الثـاني للقـرن التاسـع هـ/الخامـس عـشر م و ذلـك رغـم الهجـرة الأندلسـية المكثفـة التـي تلـت سـقوط غرناطـة .

معدل السن لبعض المجموعات الحضرية:

إذا انطلقنـا مـن فكـرة « الديموغرافيـا المجوفـة» التـي تقودهـا المـوت و مـن فكـرة الانهيـار الديمغـرافي فانـه لا يمكـن لنـا إلا الإقـرار بـأن أمـل الحيـاة عنـد الـولادة بافريقيـة في تلـك الفـترة ضعيـف جـدا لكن دراسـتنا لعينتـين مـن المجتمـع (و هـو كل مـا أمكننـا الحصـول عليـه) و لـو أنهـا غـير كافيـة تثبـت أن معـدل السـن بالنسـبة لبعـض الفئـات المحظوظـة يمكــن أن يكــون هامــا . أمــا العينــة الأولى فهــي تتمثــل في الســلاطين الحفصيــين الذيــن قضــوا نحبهــم بصفــة طبيعيــة (خــارج الحــروب والاغتيـالات) و قـد أمكـن لنـا الحصـول عـلى سـن خمسـة منهـم (انظـر جـدول رقـم 2).

جدول رقم 2 : أعمار بعض السلاطين الحفصيين

(بالسنة الشمسية)

السلطان	الولادة	الوفاة	العمر
أبو زكرياء يحي	599هـ/1202 م	647هـ/1249 م	47 سنة
المستنصر بالله	625هـ/1228 م	657هـ/1277 م	49 سنة
أبو عصيدة	679هـ/1280 م	709هـ/1308 م	28 سنة
أبو العباس أحمد	729هـ/1329 م	796هـ/1394 م	65 سنة
أبو عمرو و عثمان	821هـ/1418 م	893هـ/1488 م	70 سنة

و رغـم أن هــذه المجموعـة تعتـبر الأكـثر حظـا في المجتمـع مـن ناحيـة الغـذاء و العنايـة الطبيـة و ظـروف العيـش فـان معـدل العمـر فيهـا يبلـغ 51 سـنة و18 يومـا و هـذا يـؤدي بنـا إلى الإقـرار بـأن معـدل الأعمار

بالنسـبة للفئـات الدنيـا للمجتمـع أقـل مـن ذلـك غـير أن دراسـة عينـة أخـرى مـن المجتمـع تهـم 26 عالمـا مـن علـماء تلـك الفـترة تعطينـا فكـرة مغايـرة عـن الانطبـاع الأول (انظـر جـدول رقـم 3)

جدول رقم 3 : معدل أعمار عيّنة من العلماء

الاسم	الولادة	الوفاة	العمر
أبو القاسم بن البراء	580هـ/1184م	677هـ/1278م	94 سنة
أبو علي الحسن بن معمر الهواري	609هـ1213 م	682هـ/1213م	70 سنة
ابن الخباز اللواتي	600هـ/1204 م	683هـ/1284 م	80 سنة
ابن أبي الدنيا الصدفي	606هـ/1210م	684هـ/1285م	75 سنة
أبو الحسن علي بن سعيد	610هـ/1214م	685هـ/1286م	72 سنة
أبو العباس أحمد بن عجلان	607هـ/1211م	690هـ/1291م	80 سنة
أبو القاسم بن زيتون	620هـ/1223م	691هـ/1292م	69 سنة
أبو العباس أحمد بن الغماز	609هـ/1210م	693هـ/1293م	83 سنة
أبو عبد الله محمد الكناني الشاطبي	614هـ/1217م	699هـ/1300م	83 سنة
أبو العباس أحمد التاجوري	653هـ/1237م	708هـ/1309م	72 سنة
ناصر الدين المشدالي	631هـ/1234م	731هـ/1331م	97 سنة
علي بن القنفذ(جد المؤرخ)	644هـ/1246م	733هـ/1333م	87 سنة
أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الرفيع	639هـ/1241م	733هـ/1333م	92 سنة
أبو العباس أحمد الحاج	672هـ/1273م	747هـ/1346م	73 سنة
ابن عبد السلام	676هـ/1277م	749هـ/1348م	71 سنة
ابن القنفذ(والد المؤرخ)	694هـ/1295م	750هـ/1349م	54 سنة
ابن هارون	680هـ/1281م	750هـ/1349م	68 سنة
أبو علي حسن بن باديس	707هـ/1308م	784هـ/1382م	74 سنة
أبو الحسن محمد البطر ني	703هـ/1304م	793هـ/1391م	87 سنة
ابن عرفة	716هـ/1316م	803هـ/1400م	84 سنة
ابن خلدون	732هـ/1332م	808هـ/1406م	74 سنة
ابن القنفذ (المؤرخ)	740هـ/1340م	810هـ/1408م	68 سنة
أبو القاسم البرزلي	741هـ/1341م	841هـ/1437	96 سنة

أبو حفص عمر القلشاني	773هـ/1372م	847هـ/1443م	71 سنة
أبو العباس أحمد القلشاني	779هـ/1377م	863هـ/1459م	82 سنة
أحمد التجاني ابن كحيل	802هـ/1400م	896هـ/1465م	65 سنة

إن معدل السن بالنسبة لهذه المجموعة التي أمكن لي الحصول على تواريخ ميلاد ووفاة أفرادها يبلغ 78 سنة و 6 أشهر و هو رقم يتضارب كليا مع ما ذكرناه بخصوص ما تتعرض إليه افريقية بصفة دورية من كوارث و لا يمكن تفسير ذلك بصفة مقنعة و علميّة سوى بكون هذه المجموعة التي تمكنّا من الحصول على أعمارها (بصفة شبه مضبوطة) تمثل استثناء فهي أيضا تنتمي إلى المجموعات المحظوظة و بالتالي فان ظروف عيشها كانت أكثر ملاءمة و ربما مثلت بصفة مكثفة المجموعة التي عبرت حواجز الموت في إطار قانون الانتقاء الطبيعي أي أنها مثلت أكثر من غيرها و بصفة عفوية المجموعة التي نجت من الموت الدورية (فعلى 9 أشخاص عاصروا فترة الطاعون الأسود 3 فقط ارتبطت وفاتهم بهذا الوباء في حين أن 6 منهم عبروا هذه الكارثة بسلام) و بصفة عامة رغم عدم المغامرة بتقديم أرقام و تأويلات بناء على هذه المعطيات المحدودة فإن هامش الافتراض يبقى واسعا.

III - محاولة تقدير أعداد السكان الحضر:

إن أغلب المعطيات في هذا المجال تهم مدينة تونس و أول رقم وصلنا أورده ابن الشماع[50] الذي يؤكد أن دور مدينة تونس سنة 772هـ/1370م كانت 7000 و إذا ما اعتبرنا معدل 10 سكان في كل دار،و هو حد أدنى نظرا لانتشار تعدد الزوجات و الجواري و الخدم و ظاهرة العائلة الممتدة، نستنتج أن عدد سكان مدينة تونس

[50] الشماع، الأدلة ، ص 74.

آنـذاك لا يمكـن أن يقـل عـن 70 ألفـا و مـع بدايـة القـرن السـادس عـشر حـدد ليـون الإفريقـي عـدد دور (أوكوانـين) أربـاض المدينـة ب 1600 دار [51] و مـن المؤكـد أن سـكان المدينـة يسـاوي عـلى الأقـل أربـع مـرات عـدد سـكان الاربـاض مـما يعطينـا حـوالي 6400 دار و بذلـك يكـون المجمـوع 8000 دار أي مـا يوافـق 80000 سـاكن حسـب نفـس المعـدل أي 10 سـكان لـكل دار و هنـاك مصـدر أوروبي آخـر[52] يحـدد عـدد سـكان المدينـة دون الاربـاض في النصـف الأول للقـرن العـاشر هــ / السـادس عـشر م ب 25 ألـف سـاكن و هـو مـا يتناقـض مـع الأرقـام التـي جـاءت حـول ضحايـا واقعـة الأربعـاء أثنـاء التدخـل الاسـباني سـنة 941 هــ / 1535 م فحسـب ابـن أبي دينـار قتـل 60 ألـف شـخص عـلى مجمـوع 180 ألـف سـاكن [53] و حسـب مارمـول قتـل حـوالي 70 ألـف و أسر مـا يزيـد عـن 40 ألـف [54] أي أن مجمـوع السـكان أكـثر مـن 100 ألـف بكثـير أي ربمـا قـارب الرقـم الموجـود عنـد ابـن أبي دينـار و أمـام تضـارب الأرقـام و اختلافهـا مـن مصـدر لأخـر يمكـن أن نفـترض معـدلا لهـذه الأرقـام و تبعـا لذلـك أرى أنـه مـن الحـذر تقديـر مجمـوع السـكان ب 80000 سـاكن قبيـل سـقوط غرناطـة و ليـس مـن المسـتبعد أن يبلـغ هـذا العـدد 120 ألـف بعـد ذلـك ثـم نـزل بعـد سـنة 1535 حتـى الى أقـل مـن 50 ألـف سـاكن.

أمـا بالنسـبة للمـدن الأخـرى فـان المعلومـات تصبـح نـادرة و لذلـك أقـترح اعتـماد مصـدر واحـد و هـو وصـف إفريقيـا لليـون الإفريقـي حيـث تتوفـر أكـثر المعلومـات و حيـث تمكـن المقارنـة بـين مختلـف الأرقـام نظـرا لأنهـا وردت عـن ملاحـظ واحـد زار البـلاد في فـترة معينـة

[51] وصف إفريقيا II،74

[52] P.M.MONTALVEZ,les manuscrits de la b.n.de Madrid (ms.n 2762),in *C.T.* 96-70p 120

[53] المؤنس،164

[54] مامول،افريقيا ،III54

وهـي بدايـة القـرن العـاشر هـ/السـادس عـشر م و هـي بذلـك تسـمح لنا بالحصـول عـلى تقديـر نسـبي يمكـن اعتـماده في ترتيـب مختلـف المـدن و تكويـن فكـرة عـن مـدى تباينهـا عـن بعضهـا (انظـر جـدول رقـم 4) .

جدول رقم 4 : ترتيب أهم مدن افريقية حسب ليون الإفريقي

المدينة	عدد الدور	عدد السكان بمعدل 10 س/دار	المصدر
بجاية	8000	80000 س	وصف إفريقيا،50،II
قسنطينة	8000	80000 س	وصف إفريقيا،II56
ميلة	3000	30000 س	وصف إفريقيا، 60،II
تقرت	2500	25000 س	وصف إفريقيا،II 135
قصر جيجل	500	5000 س	وصف إفريقيا،II 51
قرطاجنة	500	5000 س	وصف إفريقيا،II 70
صفاقس	300-400	3000-4000 س	وصف إفريقيا،II87
بونة	300	3000 س	وصف إفريقيا،II 61

و يمكـن أن نسـتفيد أيضـا مـن مارمـول الـذي أتـم كتابـه: إفريقيـا بعـد سـنة 979هــ/1571 م ووفـر لنـا بعـض المعلومـات التـي لا تخلـو مـن المبالغـة أحيانـا، مثـل دخـول النصـارى لطرابلـس وفتكهـم بأكـثر مـن 6 ألاف شـخص وأسرهـم لمـا يزيـد عـن 15 ألـف نسـمة و إذا مـا انطلقنـا مـن هـذه الأرقـام نعطـي لطرابلـس قبـل 1528 م عـلى الأقـل 25 ألـف سـاكن وهـو أمـر مسـتبعد أمـا بقيـة الأرقـام التـي يمدنـا بهـا فهـي تبـدو منطقيـة بالمقارنـة مـع ليـون الإفريقـي مـن ذلـك :

- بنزرت وجهاتها : 4000 ساكن (إفريقيا،III،10)

- المرسى: 500 مسكن =5000 ساكن (إفريقيا،III،19)

- سوسة: 1500 ساكن(إفريقيا،III،64)

- صفاقس: 600 كانون =6000 ساكن(إفريقيا،III،94)

و انطلاقا من كل هذه الأرقام التي تهم القرن السادس عشر فقط يمكن أن نبدي بعض الملاحظات التي تفرض نفسها من ذلك العدد الهام لسكان بجاية و قسنطينة الذي يجب أخذه بكل حذر و لا نستغرب أن يكون ناتجا عن تقدير سيء و يمكن أن نفترض بالمقارنة مع مدينة تونس أن عدد سكان كل منهما لا يمكن بحال من الأحوال أن يفوق 40 ألف ساكن . أما الرقم الذي يهم « تقرت» فيمكن اعتماده كمؤشر لتقدير سكان بعض المناطق المتاخمة للصحراء مثل: بسكرة، ونفطة و توزر و قفصة و نظرا لان نفس المصدر تحدث عن هذه المدن على أساس أنها آهلة بالسكان فاني لا استبعد أن يكون عدد سكان كل منها يتراوح بين 20 ألف و 30ألف ساكن فإضافة لمزايا موقعها في الفترات السابقة على مسالك التجارة الصحراوية فهي قد أصبحت ملجأ لبعض المجموعات الثائرة و مقر أنصار بني غانية في بداية العهد الحفصي و لبعض القبائل البدوية مثل بني مزني و أولاد حريز ببسكرة...كذلك يمكن الانطلاق من عدد سكان صفاقس الذي يمكن أن يكون 6 ألاف لإعطاء أرقام تقريبية لبعض المدن الساحلية مثل: سوسة و المنستير و المهدية و ليس من سوء التقدير أن نقترح لكل منها ما بين 5 و 10 ألاف ساكن على أقصى تقدير. أخيرا لا بد من الملاحظة أنه من الصعب التكهن بمجموع السكان الحضر بإفريقية أثناء العهد الحفصي و يمكن أن نجازف بالقول بأنه لا يتعدى النصف مليون ساكن لكن هذا الرقم يبقى بدون أهمية ما دمنا غير قادرين على تحديد العدد الجملي للسكان و بالتالي غير قادرين على تحديد نسبة السكان الحضر بالنسبة لبقية السكان.

خاتمة:

هكــذا يظهــر لنــا بصفــة واضحــة مــدى محدوديــة أيــة محاولــة في مجــال الديموغرافيــا التاريخيــة بالنســبة للبــلاد التونســية عــلى الأقــل قبــل القــرن الســابع عــشر و ذلــك لكــون حضارتنــا أهملــت الأرقــام لمــدة طويلــة كــما أن المصــادر التاريخيــة التــي مــن شــأنها أن تفيدنــا أهتمــت أساســا بالبلاطــات و الأحــداث السياســية والعســكرية دون غيرهــا لكــن بإمكاننــا أن نجتهــد في تحديــد ملامــح هــذه الديموغرافيــا و شــكلها و هــو مــا عــبر عنــه شــونو -P.CHAU NU باصطــلاح الديموغرافيــا المندمجــة(Démographie insérée) أي أنهــا وليــدة ســلوك ثقــافي و حضــارة معينــة تتميــز بالنســبة للمجتمعــات العربيــة الإســلامية عمومــا بالــزواج المبكــر و تعــدد الزوجات و اســتعمال الإمــاء و الجــواري للتــسري و الإنجــاب أيضــا كــما أن كــثرة الإنجــاب مســتحبة و ترفــع مــن شــأن المــرأة داخــل الأسرة و مــن جهــة أخــرى لا نســتبعد انتشــار ظاهــرة العائلــة الممتــدة حيــث يعيــش تحــت ســقف واحــد الأجــداد و الأبنــاء و الأحفــاد و هــذا الســلوك الديمغــرافي يفــترض وجــود بعــض الخاصيــات مثــل ارتفــاع نســب الــولادات و كــثرة عــدد أفــراد الأسرة الواحــدة و خاصــة ارتفــاع معــدل الأفــراد بالنســبة لــكل محــل ســكنى ...

القيروان و المجد الضائع

كيف فقدت القيروان دورها كعاصمة سياسية و فكرية لإفريقية؟

يعتبر أفول القيروان كعاصمة سياسية و فكرية (فقهية) لإفريقية من أهم المسائل التي تتطلب المتابعة الوئيدة و التفسير البعيد عن العاطفة و الأقرب إلى العقل فنحن أمام مصادر مختلفة و رؤى متباينة حول هذه المسألة . و في الحقيقة ليس من الهين تتبع مصير العاصمة التاريخية لإفريقية و لبلاد المغرب أولى أمصار المنطقة. كيف فقدت أدوارها الواحد تلو الأخر: السياسي، الاقتصادي، الفكري/ الديني؟ و في هذا الإطار تتبادر إلى أذهاننا العديد من التساؤلات: متى بدأ تراجع القيروان؟ ما هي أسباب ذلك؟ و ما هي النتائج التي انجرت عن هذا التراجع؟

إجابة عن هذه التساؤلات سنتعرض تباعا إلى صمود القيروان ثم إلى مأساتها و أخيرا إلى مجدها الضائع.

I – المدينة و الأمير : القيروان الصامدة.

ظلت القيروان افريقية و بلاد المغرب حتى مجيء الفاطميين ، لكنها منذ التأسيس كتب علبها أن تكون محل صراع بين حكامها و سكانها. و يذكر الرقيق القيرواني أن عقبة ابن نافع: «مضى سريعا لحنقه على أبي المهاجر. فأوثق أبا المهاجر في الحديد...و أمر بخراب مدينته و رد الناس إلى القيروان»[55] فقد كان لكل قائد قيروان لكن قيروان

[55] الرقيق القيرواني، تاريخ افريقية و المغرب، تونس 1968، ص40.

عقبـة صمـدت و نمـت و كـبرت . ولمـا جـاء الاغالبـة شـعروا بقوتهـا وحاولـوا منـذ البدايـة الخـروج عنهـا. فهـذا إبراهيـم ابـن الأغلـب قـد « اشـترى موضـع القـصر القديـم مـن ابـن طالـوت ...و ابتنـى بـه قـصرا فجعلـه متنزهـا ثـم جعـل ينقـل إليـه السـلاح و الأمـوال سرا... و لما تهيـأ لـه مـن ذلـك مـا أراد انتقـل مـن دار الإمـارة، و صـار إلى قـصره بعبيـده و أهلـه و حشـمه و أهـل بيتـه...»[56] هكـذا ابتعـد الأمـير عـن مدينتـه منشـئا مدينـة جديـدة أطلـق عليهـا اسـم « العباسـية»[57] و ربمـا اتخـذ داخـل هـذه المدينـة الأسـواق و الفنـادق مـع حمايتهـا بسـور خـاص بهـا[58] و لـئن اختفـى اسـم « العباسـية» فقـد حفظـت لنـا المصـادر اسـم «مدينـة القـصر القديـم»[59] و لمـا ثـار الجنـد اسـتقل قائدهـم منصـور الطنبـذي بالقـيروان (سـنة 209هـت/824م) و بعـد تراجـع الثـوار جعـل زيـادة اللـه عقوبتهـم هـدم سـور القـيروان حتـى ألصقـه بـالأرض [60]

اثـر ذلـك يبـدو أن القطيعـة بـين الأمـير و المدينـة أصبحـت حتميـة و لا بديـل عنهـا. وفي سـنة 261هــ/874م عنـد وفـاة أبي الغرانيـق محمد، أتى أهـل القـيروان إلى إبراهيـم بـن أحمـد (إبراهيـم الثاني) و هـو مجرد وال على القيروان و شـجعوه على انتزاع السـلطة،« فركب من القيروان و معه أكـثر أهلهـا فحاربـوا أهل القـصر» [61]. و نجح في افتكاك السـلطة لكنه لم يفكر في الاحتماء بالقيروان و البقاء بها بل شرع منذ سنة 263هت/876م أي قبـل نهايـة الإمـارة الأغلبيـة بجيـل واحـد في بناء مدينة رقـادة[62] التي ظلـت المدينـة الأميرية الموازية للقيروان حتى مجـيء الفاطميين. و هكذا

---

[56] ن،م،222

[57] ح،ح،عبد الوهاب، منازل الاغالبة حول القيروان، الورقات، مكتبة المنار، تونس 1972،ج 1 ص 354.

[58] ن م ج 1،355،

[59] ابن عذاري المراكشي ، **البيان المغرب في أخبار الأندلس و الغرب**،بيروت1980 ج I، ص 185

[60] ن م I ص 100

[61] ن م I ص116

[62] ن م I ص117

أريـد للقـيروان أن تكـون مدينـة الرعية و إلى جانبها ضرتهـا مدينة الراعي (القـصر القديـم ثـم رقادة) لكـن القصة لا تنتهي هنا فاثـر هزيمة زيادة الله أمـام أبي عبـد اللـه الشـيعي وتحـرك هـذا الأخـير مـن الأربـس يريد القيروان استقبلته هذه الأخيرة و خرج إليه أهلها « من الفقهاء والوجوه و جلـة التجـار فالتقـوا بـه على سـاقية ممس و سـلموا عليـه و أظهروا له الرغبـة في دولتـه وسـألوه الأمـان فأمنهـم..» [63] و عند وصوله لم يسـتقر بالقـيروان بـل برقـادة خشـية منهـا و تهميشـا لهـا ، وقـدم خطيبـا بجامع القـيروان و أخـر بجامع رقادة [64]و لم يطل المقـام بالفاطميين برقادة ذاتها ، ففـي ذات الوقـت الـذي بـدأت فيـه القيروان تقـاوم الفاطميين [65] شرع الإمـام المهـدي في بنـاء عاصمـة جديـدة تختلف عـن العاصمـة التاريخية للبـلاد مـن حيث المذهب و التوجهـات و الوضع الاقتصادي. و قد ولدت المهديـة في إطـار واقـع جديـد مشـحون بالثنائيـات العقائديـة و العرقيـة و غيرهـا فنحـن أمـام ميـلاد عاصمـة جديـدة يقابلـه تهرم عاصمـة قديمة المهديـة هـي عاصمـة خلافـة محدثـة أمام القـيروان عاصمة ولايـة لم يبق منهـا إلا الاسـم و هـي عاصمـة السـلطة و تبقـى القيروان عاصمـة الرعية و الأهـم مـن كل هـذا ، فهـذه عاصمـة الشـيعة الاسـماعلية و الأخـرى عاصمة المالكية. واحدة عاصمة المشـارقة و الأخرى تبقى عاصمة المغرب كل هـذه التناقضـات شـحنت العلاقـات بـين السـلطة الجديـدة المتجهـة أصـلا نحـو الـشرق و العاصمـة القديمـة الباقيـة حتـما في المغـرب. كل ما يمكـن تأكيـده في بدايـة الأمـر أن أغلـب النخـب القيروانيـة العسـكرية والفكريـة التقـت مصالحهـا مـع السـلطة الجديـدة فناصرهـا البعـض وهادنهـا البعـض الأخـر و هكـذا بقيـت القـيروان عاصمـة الذيـن لم تكن لهـم أيـة مصلحـة مـع الفاطميـين مـن بعـض مـن تبقـى من عـرب الفتح

[63] القاضي النعمان، **افتتاح الدعوة**، تونس 1975ص 244-243،**البيان**، 150، I

[64] ن م ، ص 249

[65] ن م ،323-320،البيان ، 166- 167 ، I،

و بعض الفقهاء والكثير من التجار و الصناع [66] الذين تضرروا من سياسة الدولة الجديدة و قد انتظر هؤلاء الزعيم المنقذ فجاءت ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد الزناتي حيث حاولوا لأول و لأخر مرة مقاومة سلطة الفاطميين . و لما فشلت رياح الثورة عزم المنصور الفاطمي على الاقتراب من القيروان ببناء مدينة جديدة حولها و هي صبرة المنصورية [67] و كان الغرض منها مراقبة القيروان عن قرب فكل الصراعات التي تحدثنا عنها لم تكن بين الفاطميين و افريقية بل أساسا بين الفاطميين والقيروان حيث ستكون الحرب معلنة بين المشارقة و المغاربة بين فقهاء الاسماعلية و فقهاء السنة بين من يحاول مراقبة السوق و من يعيش بالسوق[68]. و في الواقع شرع الفاطميون في الحرب منذ بداية استقرارهم بافريقية. ففي سنة 305هـ/917م» تم شأن القاسمية بالقيروان (الغالب على الظن أنه حي تجاري و نسبة اسمه لأبي القاسم ولي العهد آنذاك و الذي سيتولى الخلافة باسم « القائم بأمر الله) و انتقل اليها التجار و أهل الصناعات» [69] و في سنة 309هـ/921م و بعد سنة واحدة من انتقال عبيد الله إلى عاصمته الجديدة المهدية أمر بأن يكون «طريق الحاج على المهدية لأداء ما وظف عليهم من المغارم [70]و هي محاولة لتنشيط العاصمة الجديدة و جلب المزيد من الخدمات إليها وكانت النتيجة الأولى لهذه السياسة موت رقادة و بقاء القيروان و يذكر ابن عذاري أنه لما انتقل (عبيد الله) إلى المهدية دخل رقادة الوهن و انتقل عنها ساكنوه فلم تزل تخرب شيئا بعد شيء إلى أن ولي معد بن إسماعيل فخرب ما بقي منها...» [71] مع بناء صبرة المنصورية

---

[66] Ibrahim Jadla, « Individu et pouvoir,enjeux politiques et dynamique sociale en Ifriqiya fatimide », La Recherche Historique, Rabat 4-2006, pp33-45…

[67] المقدسي، **أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم** ،ليدن 1906ص226

[68] المالكي، **رياض النفوس**، بيروت 1981، ج2، 328 329-

[69] البيان ، ج1،180

[70] ن م، ج1 ،186،

[71] ن م، ج1 ،206

بـدأت المحنـة الحقيقيـة للقـيروان و القيروانيـين ففي سـنة 336هـ/947م أمـر المنصـور ببنـاء صـبرة و خططهـا و سـماها المنصوريـة و أمـر أسـواق القـيروان إلى صـبرة [72] و هـذا يعنـي أن السـلطان أصبـح هو مالك الأسـواق وهـو الـذي يكريهـا حسـب مـا يـراه صالحـا و يفـرض عليهـا الضرائـب التـي يبتغيهـا. و بذلـك مـر المنصـور مـن الخنـق السـياسي إلى الخنـق الاقتصـادي للمدينـة و سـاكنيها. و يصـف لنـا المقـدسي صـبرة قائـلا:« وهـي مـدورة ...شـديدة العـمارة حسـنة الأسـواق... و تجارهـا يغـدون ويروحـون إليهـا مـن المـصر (أي القـيروان) عـلى حمـير مصريـة»[73] و عـن القـيروان وسـكانها يقـول:» و الضرائـب موضوعـة عـلى أصحـاب الدكاكـين تعيّشـهم في صـبرة، و أسـواق المـصر (القـيروان) « والضرائـب معطلـة، والعـوام كالأغنـام المرسـلة ....ولا بقـي للفريقـين بهـا مـا تكـون أقـل مـن ثلاثـة أميـال في مثلهـا بـلا سـور...»[74] في هـذا الظـرف بالـذات بـدأت مأسـاة القـيروان الحقيقيـة.

II - مأساة القيروان:

تقليديـا و منـذ أن كتـب أدبـاء القـيروان تاريـخ مدينتهم أصبحـت الفكرة الرائجـة أن مأسـاة القـيروان تعـود الى اجتياحهـا مـن طرف الهلاليـين لكننا و في ثنايـا الأحـداث السـابقة لمنتصـف القـرن الخامـس هـ/الحـادي عـشر م نجـد أكـثر مـن اشـارة إلى هـذه المأسـاة :و أولهـا أنهـا مدينـة تفتقـد إلى سـور منـذ عهـد زيـادة اللـه الاغلبـي لمـا ثـار عليـه الجنـد[75] و لا تذكـر لنـا المصـادر أن سـورها أعيـد بنـاؤه بعـد ذلـك حتـى أنـه في فـترة مبكـرة أصبحـت رقـادة أكـبر مـن القـيروان[76] و إن كانـت رقـادة قـد تراجعـت

[72] ن م ، ج1،219.

[73] المقدسي، ص 226.

[74] ن م، 225.

[75] اليعقوبي، **البلدان،** ليدن ، بريل 1893، ص 47.

[76] ح. ح. عبد الوهاب، **الورقات،** ج 1، 373.

ثـم اختفـت و إن كانـت المهديـة فشـلت هـي أيضـا في إطفـاء بريـق القـيروان ، فـإن صـبرة المنصوريـة خلقـت لـكي تقتـل القـيروان يقـول ابـن حماد:«بنـى(المنصـور) سـورها بالطـوابي وجعـل لهـا أربعـة أبـواب بـاب قبـلي و بـاب شرقـي سـماه بـاب زويلـة و بـاب جنـوبي سـماه بـاب كتامـة و بـاب غـربي سـماه بـاب الفتوح...ونصـب عليها أبوابـا ملبسـة بالحديد... ثـم بنيـت فيهـا بعـد ذلـك القصـور الشـامخات و الأبنيـة الرفيعـة...»[77] وقـد اشـتدت محنـة القـيروان في العهـد الزيـري فتلازمـت مـع الازمـة السياسـية و الاقتصاديـة للإمـارة و تتـالي الكـوارث الطبيعيـة. ففـي سـنة 377هــ/987م، لمـا قتـل عبـد اللـه الكاتـب و ابنـه يوسـف بدعـوى أنهـما كانـا وراء ثـورة الداعـي أبي الفهـم الخراسـاني الـذي التفـت حولـه بعـض جمـوع كتامـة ، قامـت العسـاكر بنهـب النـاس و قطـع الطـرق« فأخـذوا كل مـن وجـدوا مـن المسـافرين و غيرهـم، و مالـوا إلى وادي القصاريـن ، و إلى بـاب تونـس، أحـد أبـواب القـيروان فنهبـوا مـا كان عنـد القصاريـن، فذهـب في ذلـك اليـوم أمـوال المسـلمين و قتـل خلـق ممـن دافـع عـن نفسـه و مالـه »[78] و في سـنة 395هــ/1004 م تعرضـت افريقيـة إلى الوباء و الجفـاف و قـد اشـتدت الأزمـة بالقـيروان « فـمات مـن طبقـات النـاس و أهـل العلـم و التجـار و النسـاء والصبيـان مـا لا يحـصى عددهـم ... وخلـت المسـاجد بمدينـة القـيروان » [79] وإضافـة لهـذه العوامـل القاهـرة تدخلـت السـلطة الزيريـة نفسـها في تأزيـم الأوضـاع بهـذه المدينـة. ففـي سـنة 405هـت/1014 م نـادى منـاد في القـيروان بانتقـال مـن كان يسـكن فيهـا مـن الصنهاجيـين إلى المنصوريـة. ثـم نـادى منـاد أخـر بعـد ذلـك بإغـلاق الحوانيـت بالقـيروان و فنادقهـا، فأغلقـت ولم يبـق بهـا ألا بعـض حوانيـت الأحبـاس و بلـغ كـراء حانـوت بالمنصوريـة مائتـي درهـم لبيـع الكتـان و مـا سـمع بذلـك في كـراء حانـوت بالقـيروان فـكان ذلـك

[77] ابن حماد، **أخبار ملوك بني عبيد،** الجزائر 1346 هـ ص 24-23

[78] البيان، ج1، 243

[79] البيان ، ج1، 257.

أول أسـباب خرابهـا ...[80] كانـت هـذه أخـر محاولـة لخنـق القـيروان، وأثرهـا مبـاشرة تحـرك الفقهـاء و العامـة و كانـت ضحيتهـم الأولى مـن تبقـى مـن الشـيعة بالبـلاد خـلال لأحـداث 407هـ/1016 م و السـنوات اللاحقـة... قلـت كانـت هـذه أخـر محاولـة لخنـق القـيروان لأننـا اقتربنـا مـن فـترة دخـول العـرب الهلاليـين لافريقيـة حيـث أن المعـز بـن باديـس بعـد هزيمتـه في حيـدران و عندمـا اقتربـت خيـول العـرب الهلاليـين مـن عاصمتـه « أمـر كافـة النـاس بانتهـاب الزروعـات المحيطـة بالقـيروان وصـبرة....» ثـم دخـل القـيروان « يمـشي فيهـا و يـوصي أهلهـا بالاحتفـاظ و البنـاء.... و أمـر السـلطان المعـز أن ينتقـل عامـة أهـل صـبرة و سـوقتها الى القـيروان ، و يخلـوا الحوانيـت كلهـا بصـبرة وأمـر جميـع مـن بالقيروان مـن الصنهاجيـين و غيرهـم مـن العسـكر أن ينتقلـوا الى صـبرة و ينزلـوا في حوانيتهـا و أسـواقها، فارتـج لذلـك البلـد و عظـم الخطـب... ومـد العبيـد و رجـال صنهاجـة أيديهـم الى خشـب الحوانيـت و سـقائفها و اقتلعوهـا، و خربـت العـمارة العظيمـة في سـاعة واحـدة...[81].»

هكـذا انتهـى أمـر المنصوريـة و بقيـت القـيروان هـذه المدينـة التـي هجرهـا الأمـراء بعـد ثـورة الجنـد في العهـد الاغلبـي و رجعـوا ليحتمـوا[82] بهـا بعـد دخـول الهلاليـين و لكـن يبـدو أن الأوان قـد فـات ، ويتعـين علينـا التأكيـد أن الأمـراء هـم الذيـن كانـوا في العديـد مـن المـرات وراء خـراب القـيروان ، مـن هـدم للأسـوار و تحويـل الأنشـطة الاقتصاديـة وتهجـير للأسـواق و عندمـا جـاء الهلاليـون كانـت السـلطة السياسـية غـير قـادرة عـلى التعامـل معهـم فوقعـت النكبـة التـي لا نجـد صداهـا إلا عنـد أبنائهـا مـن الأدبـاء و الشـعراء و الفقهـاء.

---

[80] ن م، ج1 ، 261.

[81] ن م ، ج1 ،291.

[82] بنى المعز بن باديس سور القيروان سنة 444هـ (البيان، ج1، 293).

III المجد الضائع

يظهر مما سبق أن تسميه المصادر « تخريب القيروان» أمر يرجع إلى فترات سابقة لمنتصف القرن الخامس هـ / الحادي عشر ميلادي ولكن ما حدث بعد منتصف القرن الخامس هو أن النخبة القيروانية من أدباء و رجال بلاط و بعض الفقهاء قد صدمت بهزيمة أميرها و فقدان السيادة على مدينتهم و كانت المأساة بالنسبة إليهم هي مأساة القيروان فقط و لم تكن مأساة إفريقية و ممن كتب في هذا الباب أبو عبد الله محمد بن سعدون بن علي بن بلال (ت 485هـ/1092م بأغمات) الذي ألف :«تعزية أهل القيروان بما جرى على البلدان من هيجان الفتن و تقلب الأزمان» [83] و للأسف لم يصلنا منه شيء عكس ما كتبه ابن شرف القيرواني الذي نقل عنه ابن عذاري العديد من الفقرات في هذا الباب و من المؤكد أن ابن شرف قد أثر في اللاحقين من الإخباريين و لئن كانت افريقية قد شهدت العديد من الثورات و الحروب و الأهوال منذ الفتح ،فلا يوجد أي نص يصف ذلك بمثل ما فعله ابن شرف بدخول الهلاليين إلى القيروان و ما جاورها فهو يورد عن شخص يثق فيه قائلا :» فلم أمر بقرية إلا و قد سحقت ، و أكلت أهلها عراة أمام حيطانها، من رجل و امرأة و طفل ،يبكي جميعهم جوعا و بردا...»[84] و عن معركة باب تونس كتب ابن شرف:« لم يبق منهم (سكان القيروان) إلا من حصنه أجله ... فقامت النوائح و النوادب بكل جهة و مكان بأزقة القيروان، تتصدع لمنظرها و سماعها الجبال...»[85] و تنضاف إلى هذه النصوص النثرية العديد من القصائد في رثاء القيروان [86] و مما نظم

---

[83] **البيان،** ج1، 281؛ وفي **معالم القيروان،** ج3، 195،: « تأسي أهل الإيمان بما طرأ على مدينة القيروان».

[84] **البيان ،** ج1، 291

[85] ن م ،ج1، 292.

[86] انظر مجمل هذه القصائد في ابن ناجي،: **معالم الإيمان،** 1968.

ابـن شرف في الموضـوع:

ترى سيئات القيروان تعاظمت

فجلت عن الغفران و الله غافر

تراها أصيبت بالكبائر وحدها

ألم تك قدما في البلاد الكبائر

ترحل عنها قاطنوها فلا ترى

سوى سائر أو قاطن وهو سائر[87]

و في هـذا البيـت الأخـير يصـف لنـا الشـاعر هجـرة أبنـاء القـيروان وهـو واحـد مـن أشـهرهم و في الواقـع هـي هجـرة النخبـة التـي كانـت تعيـش حـول البـلاط الزيـري و التي حبذت الرحلـة إلى بلاطات صقليـة والأندلس بحثـا عـن الشـهرة و مواصلـة لحيـاة الـترف حتـى أبـو الفضـل بـن عبـد الواحـد البغـدادي الدارمـي (تـوفي بطليطلـة سـنة 455هــ/1063م) فهـو لم يكـد يسـتقر بالقـيروان حتـى هاجرهـا إلى الأندلـس و لسـان حالـه يقـول:[88]

حالت علي القيروان فحالها

عما عهدت العيش فهو منغص

فخرابها في كل يوم زائد

و جنابة المعمور فيها تنقص

---

87 ابن بسام، **الذخيرة في محاسن الجزيرة**، تونس 1981، ص 532-432.

88 **معالم الإيمان**، ج3، 195.

إن مـا تكـرر في كل مـا كتـب حـول القـيروان حتـى في فـترة متأخـرة هـو استعمال كلمـة «خـراب» و يحـدد ابـن ناجـي هـذا «الخـراب» باليـوم و السـنة قائـلا:« و كان خرابهـا في أول رمضـان سـنة تسـع وأربعـين وأربعمائـة و سـبب خـراب القـيروان دعـاء الشـيخ الواعـظ عبـد الصمـد فانهـزم سـلطان القـيروان مـع كـثرة عسـاكره و قلـة مـن جـاءه (أي مـن الأعـداء)[89] و حسـب نفـس الروايـة يرجـع هـذا الدعـاء إلى سـنة 441هـ/1049م عندمـا قـام المعـز بـن باديـس بنفـي محمـد بـن الشـيخ عبـد الصمـد الـذي كان بجامـع عمـرو بـن العـاص بمصر قصـد الحـج وكان أثنـاء قيامـه بالمناسـك يطـوف ويقـول:« يـارب المعـز عليـك بـه يـا رب عليـك بابـن باديـس» فنفـذت دعوتـه و ان كنـا لا نأخـذه هـذه الروايـة عـلى محمـل الجـد فالمهـم بالنسـبة إلينـا هـو المصـير الحقيقـي للقـيروان و نخبهـا بعـد منتصـف القـرن الخامـس هجـري / الحـادي عـشر ميـلادي و كيـف ضـاع مجدهـا في القـرون التاليـة.

لا تختلـف النصـوص في كـون عمـران المدينـة قـد تراجـع كثـيرا في تلـك الفـترة. ففـي حـين أن بعـض المصـادر تشـير إلى كـون المعـز بـن باديـس قـد بنـى سـور القـيروان سـنة 444هـ/1052م [90] فـان ابـن ناجـي يحدثنـا عـن سـور محـدث [91] بعـد القديـم و يبـدو أن هـذا السـور لا يشـمل إلا جـزءا متواضعـا للمدينـة إذ أن مسـجد الزيتونـة و هـو مـن أقـدم المسـاجد بقـي خارجـه[92].

يعتـبر نـص البكـري أقـدم النصـوص التـي تحدثـت عـن كارثـة القـيروان حـين قـال :« و سـنة اثنـين و خمسـين (452هـ/1060م) سـبيت القـيروان و أخليـت و لم يبـق فيهـا إلا ضعفـاء أهلهـا »[93] و قـد تعـددت الإشـارات

---

[89] ن م، ج3، ص 191-190.

[90] **البيان**، ج1، ص 293.

[91] **معالم الإيمان**، ج1، 28.

[92] **معالم الايمان**،I،28

[93] أبو عبيد البكري، **كتاب المسالك و الممالك**، تونس 1992، ص 678.

التـي تصـف تراجـع مدينـة القـيروان في الفـترات اللاحقـة و ضمـن فتـاوى المـازري نجـد محـضرا مؤرخـا بأواخـر ربيـع الأول سـنة ثـلاث و عشريـن و خمسـمائة (523هــ/1128م) يفيـد أن بعـض الأشـخاص قـد «... عاينـوا سـور القـيروان مـن أبراجـه و مادتـه و بدنـه و جميعـه قـد انتهـى الى آخـر البـاب و أنـه سـائر إلى الهـلاك وأن جـل سـقوف أبراجـه ذهبـت، وسـائر عـود ظاهـر [94] و في منتصـف القـرن السـادس هـ/الحـادي عـشر م و في حديثـه عـن القـيروان يقـول الإدريـسي:» و توالـت عليهـا الجوائـح حتـى لم يبـق منهـا الا أطـلال دراسـة و أثـار طامسـة، وهـي الأن في وقتنـا هـذا عـلى جـزء منهـا سـور تـراب وولاة أمورهـا العـرب...»[95] أمـا ابـن سـعيد المغـربي فهـو يصـف القـيروان ذاكـر بأنهـا :« في الصحـراء تصلـح لجـمال العـرب »[96] و لمـا زار العبـدري افريقيـة سـنة 688هــ/1289م، مـر بالقـيروان و صـدم بمـا وجـده قائـلا :« فلـم أر إلا رسـوما محتهـا يـد الزمـان ، و أثـارا يقـال عنهـا كان الأحيـاء مـن أهلهـا جفـاة الطبـاع مـا لهـم في رقيـة الحضـارة بـاع، و لا في معنـى مـن المعـاني الإنسـانية انطبـاع... والمدينـة نفسـها ليـس لهـا بـر و لا بحـر و لا سـحر و لا نحـر، وضعـت في سـبخة قرعـا و لا مـاء بهـا و لا مرعـى و لا تنبـت أصـلا و لا تقـل فرعـا..» [97]و يضيـف عـلى هـذه اللوحـة البائسـة : « و لم أر بالقيروان مـا يـؤرخ و لا مـا يهتـم بذكـره سـوى جامعهـا و مقبرتهـا» [98] و لا يختلـف هـذا عـن موقـف ابـن عـذاري المراكـشي الـذي كان يكتـب في نفـس الفـترة فهـو يعتـبر أن عمارتهـا بـدأت في تلـك الفـترة و قـد ذكـر أنـه :« لم يبـق بهـا إلا أطـلال دراسـة و آثـار طامسـة...و هـي الان في وقتنـا هـذا

---

[94] أبو عبد الله محمّد المازري، **فتاوى**، تونس 1994، ص 187.

[95] الإدريسي،**المغرب العربي من كتاب نزهة المشتاق**، تحقيق محمد حاج صادق الجزائر 1983 ، ص 146.

[96] أبو الحسن علي بن سعيد المعربي،**كتاب الجغرافيا**،بيروت1970،114

[97] العبدري(أبو عبد الله محمد) **الرحلة**،تحقيق محمد الفاسي،الرباط1968،64

[98] ن م، ص 65.

و هـو أخـر المائـة السـابعة قـد ابتـدأت بالعـمارة»[99] و لعـل أكـبر شـاهد عـلى وضـع القـيروان في الفـترات اللاحقـة هـو دون أي شـك ابـن ناجـي (ت 837هــ/1433م) الـذي ولـد و عـاش مـدة طويلـة في ذات المدينـة و قـد تـرك العديـد مـن الإشـارات توحـي بتقلـص عمـران القـيروان مـن ذلـك مـا قالـه حـول مسـجد الزيتونـة و هـو مـن أقـدم مسـاجد القـيروان كيـف أصبـح عهـده « بخـارج سـورها المحـدث... ودائـر بـه ربـض أولاد غيـث « [100] و هـذا المسـجد هـو أحـد ثلاثـة بقيـت من سـبعة أمـا الأربعة الأخـرى فهـي غـير معلومـة المـكان لاسـتيلاء الخـراب عـلى جـل مدينـة القـيروان هـذا التقلـص في حجـم المدينـة جعـل ابـن ناجـي يسـتعمل كلمـة « القـيروان المختـصرة» [101] للدلالـة عـلى هـذا الجـزء الصغـير المتبقـي مـن القـيروان التاريخيـة و الـذي زاده انعـدام الأمـن تعاسـة. و عندمـا زار الحسـن الـوزان المدينـة سـنة 922هــ/1516 م ذكـر أنـه لا يوجـد « فيهـا الآن غـير صنـاع فقـراء أكثرهـم يصبغـون جلـود الغنـم و الماعـز و يبيعونهـا ملابـس جلديـة...» [102] و مـن المؤكـد أن القـيروان بـدأت تطمـح إلى اسـترجاع مجدهـا الضائـع منـذ أن حاولـت الحركـة الشـابية منـذ نهايـة القـرن 9هــ/15 م أن تجعـل منهـا عاصمـة لمشروعهـا الجديـد [103] و منـذ دخلهـا أوائـل الاتـراك و جعلـوا منهـا تحـت سـلطة حيـدر باشـا عاصمـة وقتيـة حتـى طـرد الاسـبان مـن البلاد[104](ولعلهـا في الفـترات اللاحقـة عرفـت نوعـا مـن النمـو و أصبحـت أكـبر مـما كانـت عليـه فالوزيـر الـسراج (ت 1149هــ/1736 م) الـذي ألـف « الحلـل السندسـية» أثنـاء النصـف الأول مـن القـرن الثـاني عـشر هـ/الثامـن عشر

---

[99] البيان، ج1، ص 208.

[100] معالم الإيمان، ج1، 28.

[101] معالم الايمان،ج4، 35.

[102] الحسن الوزان، **وصف إفريقيا**، بيروت 1983، ج2، ص91.

[103] CH .Monchicourt, *Etudes Kairouanaises, Kairouan et les Chabbia* (1450-1592) Tunis 1939

[104] ابن أبي دينار، **المؤنس في أخبار افريقية و تونس**، تونس187،1967

ميلادي يقول :« و القيروان لم يعلم الآن بعد مدينة تونس في الوطن الإفريقي أعظم منها مدينة ، و أهلها أشبه الناس علما و أكثرهم حذاقة و أحدهم خطابا و أقواهم تجلدا على عض الدهر...»[105] لم يكن التراجع العمراني للقيروان منذ القرن الخامس هـ/الحادي عشر ميلادي منعزلا عن التاريخ السياسي و الفكري فالقيروان قد فقدت نهائيا دورها كعاصمة لصالح المهدية ثم تونس فيما بعد أما على المستوى الفكري فلم يكن الحال بأفضل من ذلك فقد هجرها شعراء البلاط إلى صقلية و الأندلس أما الفقهاء فقد بقوا بالقيروان دون إشعاع أو أثر يذكر و كأنهم شاهدون على مدرسة تحتضر و اثر وفاة أبي عبد الله محمد بن أبي الفرج المازري سنة 500هـ/1106 م قال ابن ناجي : « ثم انقرضت هذه الطبقة بعد الخمسمائة سنة و لم يبق بالقيروان من له اعتناء بتاريخ ، لاستيلاء مفسدي الأعراب على افريقية و تخريبها ، و إجلاء أهلها عنها إلى سائر بلاد المسلمين، و ذهاب الشرائع بعدم من ينصرها من الملوك إلى أن من الله على الناس بظهور دولة الموحدين... فظهر بظهورها بافريقية العلماء والصلحاء و ذلك في سنة الأخماس خمس و خمسين و خمسمائة، والله أعلم » [106] و في الواقع لم تعد القيروان مركز إشعاع للفكر والأدب و الفقه المالكي فحتى نهاية القرن السابع هـ/ الثالث عشر ميلادي لما زار العبدري المدينة لم يجد فيها ما يذكر و قد تحسر قائلا : « و قد بذلت وسعي إذ دخلت القيروان في البحث عمن بها من أهل العلم فلم أجد بها من يعتبر وجوده » [107] و حتى في الفترات اللاحقة لم تتغير الأمور و عندما كان ابن ناجي شابا قال له الشيخ عبيد الغرياني :« امش لتونس و تعلم العلم بها « و يضيف» و ألح علي في ذلك و قال : لا يخرج الخير إلا من تونس، فكان في

---

[105] محمد بن محمد الوزير السراج، **الحلل السندسية**، بيروت 1984،ج Iص 233

[106] **معالم الإيمان، ج3**، ص 204-203

[107] العبدري، **الرحلة**، ص 66.

إشارته بركة عظيمة فأقمت فيها أربعة عشر عاما»[108] و هذا دليل على أن العاصمة الفكرية و الدينية الجديدة للبلاد أصبحت دون منازع مدينة تونس.

خاتمة

القيروان مدينة ثائرة على حكامها، هجرها الأمراء بعد ثورة الجند و رجعوا إليها بعد قدوم الهلاليين. و كانوا في البداية السبب الأول في خرابها لكنهم عجزوا أخيرا عن حمايتها. ربما يكون هذا مصيرا عاديا لأية مدينة أخرى لكن فيما حفظته لنا الذاكرة و التاريخ هي مدينة بنيت بدعاء و قد قال عنها أبو القاسم الفزاري في قصيدة أنشدها بين يدي أبي يزيد الخارجي بمحضر علماء القيروان:

و لست أقيس بغداد إليها　　و كيف تقاس بالسنة الشهور

بلاد خطها أصحاب بدر　　و تلك اختط ساحتها أمير

بناها المستجاب و قد دعا　　في جوانبها دعاء لا يبور[109]

قلنا بنيت بدعاء(دعاء عقبة بن نافع أثناء تأسيسها) لكنها خربت أيضا بدعاء و هو دعاء الشيخ عبد الصمد الذي كان يطوف بالكعبة و يدعو على المعز بن باديس و بين هذا الدعاء و ذاك، اكتسبت القيروان قدسية لم تكن لمدينة أخرى بعد الحرمين الشريفين والقدس[110] فهي قد ضمت بعض جسد رسول الله (صلعم):«وذلك أن رسول الله لما حلق رأسه في حجة الوداع أخذ من شعره أبو زمعة البلوي و جعله في قلنسوته ، فلما مات بالقيروان دفن بها

[108] **معالم الإيمان،** ج4، ص259.

[109] **معالم الايمان:**ج1، 22.

[110] ن م، ج1، ص 7، « إن القيروان هي رابعة ثلاثة: المدينة ومكّة، و وبيت المقدس، والقيروان».

معــه...»[111] و بذلــك أصبحــت القــيروان دار هجــرة المغــرب و التربــة المقدســة التــي « ضمــت شــعر المصطفــى فأصبحــت بــه قسـيمة يـثرب»[112]هــذه القدسـية المكتسـبة مـن روايـات أبنـاء القـيروان جعلـت منهـا مدينــة لا يضيــع مجدهــا أبــدا.

[111] ن م، ج1، 13

[112] ن م ،ج1، ص7.

مدينة قفصة في العصر الوسيط

يصعب الحديث عن بدايات قفصة الإسلامية ، نتيجة الغموض الذي كان يحيط بمختلف مدائن افريقية في الفترة الأولى من الحضور الإسلامي. والمصادر لا تتحدّث عنها سواء بالسلب أو بالإيجاب. ويغلب على الظنّ أن التحوّل من المدينة البيزنطية إلى المدينة الإسلامية تمّ دون المشاكل . و برزت منزلة المدينة بالنسبة للفترات التاريخية الأولى من عهد الولاة إلى الفترة الفاطمية من خلال ما ورد في كتب الجغرافيا والرّحلة (أهمّها كتاب البلدان لليعقوبي وصورة الأرض لابن حوقل والمغرب في ذكر افريقية والمغرب للبكري) ومختلف هذه المصادر تحدّثت عن مدينة مزدهرة. ويبدو أنّ أهمّ عامل وراء هذا الازدهار هو موقعها كمحطّة متقدّمة للتجارة الصحراوية مع بعض العوامل الطبيعية والاقتصادية الأخرى مثل وجود الماء والنخيل الكثير والأسواق العامرة والمتاجر الكثيرة.

I/- تأزّم الأوضاع منذ العهد الفاطمي :

لمّا زار ابن حوقل المنطقة حوالي سنة 336 هـ / 947م تحدّث عن بعض المدن الصغيرة القريبة من قفصة مثل : قاصرة ومذكور ونفايض وجمونس الصابون وذكر بأنّها «مديّنات قريبة الأحوال وكانت قبل سنة ثلاثين في غاية الكمال فأتى عليها أبو يزيد مخلد

بـن كيـداد»[113]. وفي هـذا الوصـف لا نجـد حديثـا عـن المائتـي قـصر العامـرة التـي سـيذكرها البكـري بعـده بقـرن مـن الزمـن منـذ ثـورة صاحـب الحـمار. ومـن المؤكـد أن السياسـة الجبائيـة المشـطّة للفاطميـين والأزمـات المتتاليـة التـي عرفتهـا افريقيـة أثنـاء العهـد الزيـري: انقسـام الإمـارة كـوارث طبيعيـة، ثـمّ دخـول الهلاليـين للمنطقـة جعلـت المجـالات الحضريـة تتقلّـص وأحيانـا تنقطـع عـن البـوادي المحيطـة بها بـل ودخلت في صراع مريـر مـع القبائـل الهلاليـة الوافـدة. ولم تشـذ قفصـة عـن هـذه الوضعيّـة العامّـة لكنّهـا اسـتغلّتها لـكي تنفصـل عـن السّـلطة المركزيـة وتؤسّـس لأول مـرّة دويلـة مسـتقلّة تحـت سـلطة بنـي الرّنـد (حكمـوا مـن سـنة 445 هــ/1053م إلى سـنة 554هـ/1159م) .أسّـس هـذه الإمارة : عبـد اللـه بـن محمّـد بـن الرّنـد الـذي كان عامـلا للزيريـين بقفصـة وأصله مـن بنـي صدغيـان مـن جربـة وكانـوا يقطنـون بجهـة الجوسـين بنفـزاوة. حكـم عبـد اللّـه هـذا إمـارة قفصـة المسـتقلّة مـن سـنة 445 هــ/1053م إلى سـنة 465 هــ/1169م وقـد نجـح في مصالحـة القبائـل الهلاليـة التـي انتـشرت بالجهـة مقابـل دفـع إتـاوة موسـميّة سـنويّة (والسّـماح لهـم بالمرعـى في الأراضي خـارج العمـران) ويبـدو أنّ سـلطته امتـدّت إلى تـوزر والحامـة ونفـزاوة. وأصبـح لـه بـلاط جلـب إليـه الشـعراء والقصّـاد. وقـد تـولى بعـده ابنـه المعتـز الـذي بسـط نفـوذ الإمـارة إلى جهة قمـودة وجبل هـوارة وسـائر بـلاد قسـطيلية. ولمّـا قـدم الموحّـدون مـن المغـرب كان على رأس هـذه الإمـارة يحـي بـن تميـم بـن المعتـزّ الـذي نفـاه الموحّـدون وأصبحـت بذلـك مدينـة قفصـة وجهتهـا جـزءا مـن الدّولـة الموحّديـة. وكان أوّل وال يـترأس قفصـة ممثـلا للموحّديـن هـو : نعـمان بـن عبـد الحـق الهنتـاتي (554هــ/1159م - 557هــ/1161م) ثـمّ تولاهـا ميمون بن أجانـا الكنسـيفي وأخـيرا عمـران بـن مـوسى الصنهاجـي الـذي ثـار عليـه السّـكان سـنة 563 هــ/1167م واسـتدعوا مـن بجايـة عـلي بـن العزيـز بن المعتـزّ الـذي حـاصره الموحّـدون وهزمـوه ثـمّ نفـوه إلى مراكـش.

---

[113] ابن حوقل، صورة الأرض ، ليدن 1938، ص94

يمكــن القــول أن العلاقــة بــين قفصــة والموحّديــن اتجهــت منــذ ذلـك الحـين نحـو التـأزّم خاصـة بعـد أن أصبحـت المنطقـة بكلّهـا محطّـة للميورقيــين الذيــن كثــيرا مــا لجــأوا بالقبائــل المواليــة لهــم إلى قفصــة. وكانــت بينهــم العديــد مــن المعــارك مثــل وقيعــة «عمــرة» ودخــول المنصـور الموحّـدي المدينـة سـنة 601هــ/1204م التـي قـال عنهـا أحـد الشـعراء الموالـين للموحّديـن:

ما غرّ قفصة إلاّ أنّها اجترمت

فلم يكن عند أهل الحلم تثريب

تلك البغيّ التي خانت فحاق بها

بالزناء بها رجم وتغريب

أمّا الشاعر إبراهيم الخولاني الأندلسي فقد قال بالمناسبة :

سائل بقفصة هل كان الشقيّ لها

بعلا وكانت له حمّالة الحطب

لا كان من كافر بالله ألهبها

فكان بالكافر الأشقى باللهب

بصفـة عامّـة يمكـن القـول أنّـه مـع بدايـة القـرن 7 هــ / 13 م تمكّـن الموحّـدون مـن السـيطرة التامـة عـلى المدينـة وعنـد انتصـاب الحفصيـين كانــت قفصــة مدينــة منهكــة سياســيا وعســكريا لكــن موقعهــا مــن السّـلطة سـيكون دائمـا رهـين التّحالفـات والتّحالفـات المضـادّة التـي كان وراءهــا الأمــراء الغاضبــون والقبائــل البدويّــة المســاندة لهــذا الثائــر أو ذاك...

II/- تراجع المدينة في العهد الحفصي:

إن التدهــور المتنامــي للأوضــاع الاقتصاديــة والاجتماعيّــة والعمرانيــة بمدينــة قفصــة طيلــة العهــد الحفـصي ظاهــرة يمكــن تتبّعهــا مــن خــلال مــا ورد في العديــد مــن المصــادر كــما رأينــا أعــلاه. وقــد تزامــن هــذا التراجــع مــع التطــوّرات السّــلبيّة التــي عرفتهــا المدينــة عــلى المسـتوى السـياسي والتـي تفـسّر ولـو نسـبيّا أزمتهـا المزمنـة التـي دامـت أكــثر مــن ثلاثــة قــرون. فقبيــل ظهــور الحفصيــين ومــع نهايــة القــرن 6 هــ / 12 م كانــت جهــة قفصــة مسرحــا لمعــارك طاحنــة بــين الموحّديــن الذّيــن كانــوا قــد قضــوا نهائيّــا عــلى ســلطة بنــي الرنــد حــوالي ســنة 575 هــ /1179 م[114] ضّــد بنــي غانيــة آخــر ممثــلي المرابطــين الذيــن انســحبوا مــن ميورقــة ملتجئــين إلى افريقيــة حيــث تــم دحرهــم إلى جهــة قفصــة مــع مــن حالفهــم مــن القبائــل الهلاليــة. ومــن النتائــج المبــاشرة لهــذه الحــرب هــدم أســوار المدينــة وقطــع جــزء هــام مــن نخيلهــا[115] ففــي حصــار 583هــ /1187م بلــغ معــدّل الأشــجار المقطوعــة ألــف شــجرة يوميّا، وهــذه أولى الكــوارث التــي بــدأت تحــلّ بالمدينــة في هــذه الحــرب التــي تواصلــت حتــى ســنة 601 هــ /1205م[116] .

ومــع بدايــة العهــد الحفــصي كانــت العلاقــات طيبــة بــين الســلطة المركزيّــة والمدينــة التــي ربمــا اســتفادت مــن ذلــك لتتجــاوز أزمتهــا. ففــي عهــد أبي زكريــاء يحــي الأول تــمّ اســتعمال أحــد أعيانهــا مــن أسرة بنــي أبي زيــد الجبايــة أمــوال الجريــد[117]. وقــد تواصــل هــذا الهــدوء النســبي في العلاقــات الــذي ربّمــا كان نوعــا مــن التحالــف حتــىّ ظهــور الدعــي ابــن أبي عــمارة ســنة 681 هــ / 1282م وكان هــذا الأخــير بعــد حصولــه عــلى

---

[114] **العبر**، بيروت 1968، ج 6، 502

[115] **رحلة التجاني**،تونس 1958، 139، العبر، ج6، 510

[116] **رحلة التجاني**، 147

[117] العبر، ج6، 933

مبايعة بني مكي بقابس انتقل إلى قفصة التي انطلق منها ليبسط نفوذه على بقية الحواضر : القيروان والمهديّة وصفاقس وسوسة[118] وبذلك انجرت قفصة من جديد في الصراع ضدّ السلطة المركزيّة ولكن بوادر القطيعة لم تظهر إلا أثناء انقسام السلطة (684 هـ/ 1285 م – 718هـ /1318م) ثم اتخذت شكلا عدائيا في عهد السلطان أبي يحي أبي بكر (718هـ / 1318م – 747هـ / 1346م) حيث يفيدنا ابن خلدون أنّه لما عقد هذا السلطان سنة 728/1328 للحاجب والمزوار ابن قالون على قفصة أوعز ابن سيد الناس الذي كان قد تولى أيضا حجابة هذا السلطان الى مشيخة قفصة بأن يقبضوا على حاميته[119]. ويبدو في هذه المرّة أيضا أنّ المدينة أنجرّت للثروة بواسطة طرف من أطراف السلطة. لكن ما يلفت الانتباه هو بروز أسرة جديدة في ظروف غامضة وهي أسرة بني العابد فاثر إحداث 728 هـ /1322 م استبد برئاسة المدينة : يحي بن علي بن عبد الجليل بن العابد الشريدي. وبنو الشريد هؤلاء بطن من سليم [120] لا نعرف متى استقرّوا بالمدينة بالضبط ويمكن أن نفترض أنّ هذا الاستقرار قد تمّ منذ 30 أو 40 سنة أي منذ جيل على الأقل (حوالي سنة 700 هـ /1301-1300م). ونتيجة لذلك تحرّك السلطان أبو يحي أبو بكر إلى المدينة سنة 735هـ /1335م حيث حاصرها وأمر بقطع نخيلها وقد انجرّ عن ذلك استسلام يحي بن العابد ونفيه مع البعض من قومه إلى تونس في حين أنّ البقيّة احتموا بابن مكي في قابس[121]. واثر وفاة السّلطان أبو يحي أبو بكر سنة 747هـ /1346م رجع بنو العابد للمدينة واستبدّ برئاستها أحمد بن عمر بن عبد

---

[118] ابن القنفد، **الفارسيّة**، تونس 1968، 141، العبر، ج6، 690، الزركشي، **تاريخ الدّولتين**، تونس 1966، 45

[119] **العبر**، ج6، 772

[120] القلقشندي، **نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب**، القاهرة – بيروت 1991، 60

[121] **العبر**، ج6، 786، **تاريخ الدولتين** ، تونس72-71،1966

الجليـل بـن العابـد[122] ونظـرا لموقعـه المعـارض بالنسـبة للسّـلطة المركزيّـة لم يتـوان مثلـه مثـل بقيّـة مشـائخ المـدن الهامشـيّة (مـدن الأطـراف) المعارضـة : قابـس، بسـكرة، تـوزر عـن مسـاندة أبي الحسـن المرينـي أثنـاء دخولـه افريقيّـة[123].

إثـر هـذه الفـترة المضطربـة دخلـت المدينـة وكامـل جهـة الجريـد في تحالـف مـع أولاد أبي الليـل مـن الكعـوب[124] وهومـا سـيجعلها في مأمـن مـن نقمـة السّـلطة حتّـى تـولّى أبي العبـاس احمـد الحكـم سـنة 772هــ / 1370م. وقـد عمـل هـذا السّـلطان عـلى فـرض سـيطرته عـلى كافّـة أنحـاء البـلاد وخاصّـة مـدن الأطـراف المتاخمـة للصحـراء. وفي سـنة 778هــ / 1376م زحـف أبـو العبّـاس أحمـد إلى قفصـة وبـادر بقطـع نخيلهـا حتـى استسـلام أحمـد بـن العابـد وابنـه محمـد[125]. ورغـم محاولة هـذا السّـلطان وضـع المدينـة تحـت سـلطته المبـاشرة بواسـطة ابـن أبي بكـر ثـم بواسـطة عبـد اللـه التريـكي أحـد عمّالـه فقـد تواصلـت حـركات التمـرّد ضـدّه، ومـن ذلـك أحمـد ابـن أبي زيـد سـنة 782هــ / 1380م[126]، وكذلـك ثـورة محمـد الدّنيـدون وهـو احـد أقـارب أحمـد بـن العابـد سـنة 794 هــ /1392م [127]. وطبعـا ردّ السـلطان الفعـل بأكـثر عنـف إذ انّه تحـرّك للمدينـة وحاصرهـا ثـمّ عمد إلى قطـع الكثير مـن أشـجارها[128]لكنّه لم يتمكّـن مـن دخولهـا. ولم يتـم ذلـك للحفصيـين إلاّ عـلى يـد أبي فـارس عبـد العزيـز الـذي خلـف أبـا العبـاس احمـد وقـد حـاصر المدينـة سـنة

---

[122] **العبر**، ج6، 936

[123] ن م، 812

[124] ن م، 878، 938

[125] ن م، 979، 939، الشماّع، **الأدلّة البيّنة النورانيّة في مفاخر الدّولة الحفصيّة**، تونس 1984، 110، تاريخ الدّولتين، 110.

[126] تاريخ الدّولتين، 110

[127] العبر، ج6، 905

[128] الفارسيّة، 188، **الأدلّة 112، تاريخ الدولتين**، 114.

802هـ/ 1400م وأمـر بهـدم سـورها إلى الأرض وبنـى بأنقاضـه قصبـة لقـواده[129]. وبعـد هـذا التّاريـخ قبلـت المدينـة الأمـر الواقـع واستسـلمت لمصيرهـا وودّعـت الثـورة لـترزح أكـثر مـن قـرن ونصـف تحـت السـلطة المبـاشرة للحفصيـين. ولـن تصبـو قفصـة إلى الاسـتقلالية مجـدّدا إلاّ أثنـاء فـترة الفـوضى التـي عرفتهـا البـلاد أثنـاء القـرن 10 هـ / 16م خاصـة بعـد دخـول الأسـبان وثـورة الشّـابيّة بوسـط افريقيّـة. وقـد التجـأ آخـر ممثّـل رسـمي للحركـة الشـابية محمـد الزّفـزاف إلى قفصـة سـنة 968 هـ /1560م[130] لكـن الظّرفيّـة السياسـيّة العامّـة لم تعـد تسـمح بوجـود هـذه الحـركات الاسـتقلالية المحلّيّـة أو الحضريّـة إذ أنّ افريقيّـة بأكملهـا كانـت عـلى وشـك الدخـول تحـت سـيطرة العثمانيـين الأتـراك في إطـار دولـة إمبراطوريـة عظمـى لمـدّة طويلـة.

III/- المدينة والماء :

يذكـر صاحـب كتـاب الاسـتبصار في عجائـب الأمصـار الـذي زار المنطقة في أواخـر القـرن السـادس هجـري /الثـاني عـشر ميـلادي أنّ أهـل قفصـة يقولـون :« إذا رأيـت قومـا يتخاصمـون وقـد عـلا بينهـم الـكلام فاعلـم أنهـم في أمـر المـاء .....»(19) وهـذا يـدلّ عـلى أهميـة المـاء في هـذه المنطقـة الشـبه صحراويّـة حيـث أنّ الاسـتقرار والعمـران مرتبطـان بالمـاء ولا غـير ذلـك وهـو مـا يفـسّر عراقـة وقـدم الحضـارة بهـذه المنطقـة.

ويفيدنـا نفـس المـصر الـذي أخـذ عنـه الحمـيري صاحـب الروضـة المعطـار، بمعلومـات هامـة عـن العيـون الكثـيرة الموجـودة داخـل المدينـة وخارجهـا ومـن أهـم هـذه العيـون :

---

[129] الفارسية، 197، ابن ناجي ، **معالم الإيمان**، تونس 1320هـ 258، **تاريخ الدّولتين**، 120.

[130] 172، 170، Monchicourt, Etudes Kairouanaises, Tunis 1939 عـلي الشـابي، عرفـة الشـابي، تونـس 1982، 44.

- الـوادي الكبـير (الرّاتـب الكبـير حسـب الحمـيري) و فـوق هـذه العـين عـين اصغـر منهـا تسـمى « رأس العـين »[131]. وهـي ميـاه الحـوض الرّوماني وهـي ميـاه الحـوض الموجـودة إلى الآن.

- الترميـد وهـي عـين توجـد تحـت قـصر ققفصـة (أي الـبرج حاليّـا) وهـو مـا جعـل المؤلّـف يقـول بأنّـه عليهـا بنـاء عجيـب ويضيـف أيضـا أنهـا بـإزاء مسـجد يعـرف بمسـجد الحواريـين[132] هـذه العيـون الموجـودة داخـل المدينـة تعـرف بالمـاء الدّاخـل وهـي تمسـح بـريّ نصـف الواحـة فقـط[133] .

- «المـاء الخارج»[134](يعنـي الخـارج) وهـو يتكـوّن خاصّـة مـن عـين عظيمـة تسـمى «عـين المنسـتير » ومـن مـاء وادي «بايـش» (حاليـا بيّاش وهـي التسـمية التـي اسـتعملها الزركـشي، تاريـخ الدّولتـين، تونـس 1966، ص 154،) ولا نعـرف إن كان صاحـب كتـاب الاسـتبصار هـو الـذي حـرف التسـمية رغـم أنّـه أقـدم أم أن تحريفهـا طـرأ فيـما بعـد)، وتنضـاف إليهـا ميـاه غـير هـذه تسـمى «المـاء الصغـير» وهـي عيـون كثـيرة توجـد حـول المدينـة[135] وعـين المنسـتير تقـع بجانـب وادي بايـش الـذّي قـال عنـه صاحـب كتـاب الاسـتبصار بأنّـه « يشـقّ غابـة ققفصـة ويسـقي بعض بسـاتينها ... لكنّـه في أيـام الصيـف يقـلّ جريانـه ولا ينشـع... وفيـه تـورد العـرب إبلهـا تحفـر فيـه أحسـاء فيخـرج مـاء عذبـا»[136] .

- ونظـرا لأهميّـة المـاء بالنسـبة للمدينـة وسـكّانها فـانّ توزيعـه كان يخضـع إلى تنظيـم دقيـق وثمـن باهـض[137] وكان الناظـر في قسـمة المـاء

[131] **الاستبصار**، 152، **الروض المعطار**، 477.

[132] **الاستبصار**، 152، **الروض المعطار**، 478.

[133] **الاستبصار**، 152، **الروض المعطار**، 478.

[134] **الاستبصار**، 152، **الروض المعطار**، 478.

[135] **الاستبصار**، 153، **الروض المعطار**، 478.

[136] **الاستبصار**، 152

[137] **الروض المعطار**، 478

عـادة مـن بيوتـات المدينـة وأعيانهـا مثـل محمّـد الدّنيـدون الـذي كان مـن قرابـة أحمـد بـن العابـد وقـد تـولّى هـذه المهمّـة في نهايـة القـرن الثامــن هجري/الرابــع عــشر م[138]. ويعتمــد توزيــع المــاء عــلى ضبــط هنـدسي وتدقيـق حسـاب وذكـر صاحـب الاسـتبصار بـأن سـقيهم بهـا بالسـاعات فـترى خـدام تلـك الجهـة والبسـاتين أعـرف بأوقـات النهـار، وإذا سـألت رجـلا منهـم لا يفقـه شـيئا عـما مـضى مـن سـاعات النّهـار وقـف ونظـر إلى الشـمس واكتـال بقدميـه في موضـع ظلـه ويقـول لـك مـضى كـذا وكـذا سـاعة وكـذا وكـذا سـدس سـاعة...[139]

وكانـت المبـاه تتبـع سـواق مبينـة بالحجـر عـرض كلّ سـاقية شـبرين (حـوالي 44 صـم) وارتفاعهـا حـوالي شـبر[140]. وكانـت قسـمة المـاء عـلى البسـاتين تتـمّ بواسـطة مكيـال يسـمّى «قـادوس» وهـو عبـارة عـن قـدر مثقـوب مـن أسـفل يجعـل فيـه المـاء ثـمّ يقـاس بـه زمـن السّـقي. وفي هـذا المجـال يقـول ابـن راشـد القفـصي : « والقـادوس عندنـا يجـري في مقـدار عـشر سـاعة (أي أن القـادوس يفـرغ مـن المـاء مـن خـلال ذلـك الثقـب في الأسـفل خـلال عـشر سـاعة)... والكيـل بالقـادوس لمعرفـة الزّمـن لا لمعرفـة قـدر المـاء المشـترى».. [141] ويذكـر البكـري أنّ سـقي اليـوم الكامـل هـو مائـة واثنـان وتسـعون قدسـا[142]. وإذا اعتبرنـا أنـه يعنـي باليـوم الكامـل أربـع وعـشرون سـاعة فـإنّ فـراغ القـادوس مـن المـاء يكـون في ظـرف ثمانيـة دقائـق.

---

[138] ابن خلدون، **كتاب العبر**، دار الكتاب اللبناني، بيروت 1968،ج 6، 506

[139] **الاستبصار،** 153؛ **الروض المعطار،** 478

[140] البكري، 708 ،II

[141] ابـن راشـد القفـصي، **الفائـق في معرفـة الأحـكام والوثائـق،** مخطـوط 6152 د ك و تونـس، II،ورقة 43ظ

[142] البكري، 709 ،II

أمّا هذه العيون التي تنبع منها المياه فهي مملوكة بصفة خاصّة لأشخاص[143] نعتقد أنّهم يمثّلون أصحاب الجاه في المدينة. وعادة ما تحتاج هذه العيون والسّواقي إلى الصّيانة فإنّ هؤلاء الأعيان يلزمون أصحاب الجنات للقيام بذلك[144]. بصفة عامّة يمكن القول أن أهمّ ثروة في المدينة هي الماء والتنفّذ الاجتماعي يتمّ عبر السيطرة في درجة أولى على هذا الماء وفي درجة ثانية على الأجنّة المحيطة بالمدينة وفي درجة ثالثة على طاقة العمل المتوفّرة في هذا المجال الواحي. وكانت المدينة عاجزة دائما عن الدّفاع عن مصالحها و سرعان ما تجبر على الرضوخ للسلطة المركزيّة كلّما أقدمت هذه الأخيرة على اجتثاث الغابات وإفسادها لما تمثّله من شريان أساسي للحياة بها.

الخاتمة

أخيرا يمكن القول أن ما أصاب مدينة قفصة من تراجع في العهد الحفصي يدخل في إطار ظاهرة عامّة شملت جلّ مدن افريقية بسبب ما تعرّضت إليه من تهميش ناتج من جهة عن المركزة السيّاسية التي دامت طويلا ومن جهة أخرى عن السياسة الجبائية المشطّة التي ارتكزت عليها الدولة السلطانيّة. لكن يبدو أنّ الأزمة كانت أعمق بالنسبة لهذه المدينة فبالإضافة للازمة الموروثة عن الزحف الهلالي فإنها قد تعرّضت إلى أبشع أنواع الانتقام والتضييق في النصف الثاني من القرن 8هـ /14م حيث تعرّضت غابتها وهي الثروة الرئيسية للسكان إلى الاجتثاث ثلاث مرّات في ظرف ستين سنة أي بمعدّل مرّة كل عشرين سنة. وقد ازدادت الأزمة عمقا بسبب التحوّلات الهيكليّة العامة التي تمثّلت أساسا في تدهور المدن الدّاخليّة ولجوء الحياة الحضريّة والأنشطة التابعة لها إلى السواحل.

---

143 ابن راشد، **المرقبة العليا**، ورقة 61و.

144 **الفائق**، 44 ،IVظ.

مدينة بنزرت في العهد الحفصي

إن الدارس لمدن افريقية في العصر الوسيط يتعرض لصعوبات مختلفة أهمها ندرة المعلومات في المصادر التي عادة ما تهتم بعاصمة البلاد و لا يتعرض فيها للمدن الأخرى إلا أثناء ذكر حدث هام خاصة الثورات و مدينة بنزرت لا تشذ عن هذه القاعدة إذ رغم أنها مدينة ضاربة في القدم فالمعلومات حولها نادرة .و أصبح اليوم من الضروري تجاوز المصادر المكتوبة و التأكيد أساسا على دراسة الآثار لتوفير المزيد من المعلومات، لكن للأسف اقتصرت محاولتي هذه على المعلومات المتفرقة الموجودة فيما توفر من مصادر، و سأتطرق أولا إلى الحديث عن هذه المدينة قبل العهد الحفصي ثم سأتناول بالدرس المدينة أثناء العهد الحفصي، و أخيرا سأتعرض لبعض أعلامها

مرسى القبة

إن أهم المعلومات حول مدينة بنزرت في العصور الوسطى وصلتنا عن طريق كتب الرحلة و الجغرافيا و رغم القرون التي تفصل بعض هذه المصادر عن بعضها فإننا في الكثير من الأحيان نجد نفس المعلومات تتكرر من مصدر إلى أخر ،و غالبا ما نقل المتأخرون حرفيا ما ذكره من سبقهم فالبكري في كتابه « المغرب في ذكر افريقية» و المغرب حوالي سنة 450هـ لا يضيف كثيرا في وصفه عما جاء في صورة الأرض لابن حوقل (القرن 4 هـ) كما أن

المعلومات التي أوردها كل من الإدريسي (ق 6 هـ) في نزهة المشتاق و الزهري (ق6هـ) في كتاب الجغرافيا لا يضيف شيئا جديدا إلى ما أورده البكري من قبل .و كل هذه المصادر تتحدث عن بنزرت بكونها مدينة صغيرة أصغر من سوسة حسب ابن حوقل [145] و هي حسب الإدريسي مدينة صغيرة حسنة عامرة [146] و قد أطنب هذا الأخير في الحديث عن بحيرة بنزرت خاصة و عن كثرة الحيتان بها وكيف يظهر كل شهر نوع من الأسماك[147] و يفيدنا الزهري بأنه:«من عجائب هذه البحيرة أنه يصاد فيها الحوت بالنقارة و ذلك أنه متى خرج نوع من ذلك الحوت في شهره خرج فيها حيتان يقول عنها الصيادون أنها إناث ذلك الصنف فيوثق منها في السنانير و في الاخياط ثم ترمي في البحر فيجتمع الحوت عليها فترمي من عليها فيؤخذ من الحوت شيء كثير....»[148] و ينفرد البكري بإعطائنا معلومة تختلف عما ورد في المصادر الأخرى سواء المتقدمة أو المتأخرة و ذلك بذكر اسم سيختفي فيها بعد و هو : مرسى القبة و قال عنه « وهو مرسى بنزرت» [149] و بما أننا نعرف أن المعلومة التي أوردها البكري ترجع إلى حوالي 360هـ/970م حين وضعها صاحبها الأصلي محمد بن يوسف الوراق الذي اخذ عنه البكري في القرن الموالي فإننا نرجح أن تكون هذه التسمية قديمة و تم التخلي عنها فيما بعد إذ أنها اختفت من المصادر المتأخرة . و بصفة عامة يمكن القول إن هذا المرسى الصغير المحاط بسور من الصخر [150] لم يشهد توسعا يذكر حتى انتصاب بني الورد على رأس المدينة و في حديثه عن أبي رجاء الورد اللخمي يقول ابن خلدون «.. اجتمع عليه سكان بنزرت

---

[145] ابن حوقل ،**صورة الأرض** دار مكتبة الحياة بيروت ص 75

[146] الإدريسي

[147] ن م ص 151 نجد نفس الخبر في صورة الأرض 76

[148] الزهري **كتاب الجغرافيا** نشر ضمن B.E.O.T،1968 ،ص200-199

[149] البكري **المغرب في ذكر بلاد افريقية و المغرب** الجزائر 1911،ص58ص83

[150] ن م ص 58

وادخلـوه الحصـن...و اسـتفحل أمـره و تسـمى بالأمـير و شـيد المصانـع و المبـاني و كـثر عمـران بنـزرت...»[151] و يفيدنـا ابـن خلـدون أيضـا بـأن المدينـة اتسـعت شـيئا مـا اثـر قـدوم عبـد المؤمـن بـن عـلي لافريقيـة سـنة 554هــ/ و ذلـك بأحـداث ربـض خـارج السـور حيـث أنه بعـد عدة اضطرابـات شـهدتها المدينـة و المناطـق المجـاورة لهـا « عصـت القلعـة بالسـكان فاتخـذ لهـا ربضـا »[152] و نفهـم ضمنيـا مـن ذلـك أن التجمـع الأصـلي المحـاط بالسـور لم يتجـاوزه السـكن إلا أثنـاء قـدوم الموحديـن .

بنزرت في العهد الحفصي

تتنـوع المعلومـات عـن بنـزرت في العهـد الحفـصي و تـزداد ثـراء نظـرا لتنـوع المصـادر فإضافـة للمصـادر الإسـلامية نجـد مصـادر أروبيـة تتحـدث عنهـا مـن ذلـك مـا كتبـه ليـون الإفريقـي (أبـو الحسـن لـوزان) و مارمـول وهـو مـا يبعدنـا عـن النقـل الحـرفي للمعلومـات السـابقة وعـن الحديـث عـن البحـيرة و الأسـماك. أولى المصـادر التـي ترجـع للفترة التـي تهمنـا و التـي ذكـرت مدينـة بنـزرت كتـاب الجغرافيـا لأبي الحسـن عـلي بـن سـعيد (673هــ/1274م) الـذي التحـق ببـلاط المسـتنصر باللـه الحفـصي بـين سـنتي 652هــ/1254م و 666هــ/1267م و هـو لا يضيـف لمعلوماتنـا شـيئا حيـث أنـه تحـدث عـن البحـيرة المالحـة و الأخـرى الحلـوة و عـن اختـلاف أنـواع الأسـماك حسـب شـهور السـنة [153] وهـذا يـدل عـلى انـه لم يـزر المدينـة بـل اكتفـى بنقـل هـذه المعلومـات مـن مصـادر قديمـة. أمـا المعجـم الجغـرافي الـذي كتبـه السـبتي الأصـل محمـد بـن عبـد المنعـم الحمـيري « الـروض المعطـار في خبـز الأقطـار» و الـذي يرجـع إلى القـرن الثامـن هــ/ الرابـع عـشر ، فهـو يعـرف لنـا بنـزرت بأنها

---

[151] ابن خلدون **العبر**،دار الكتاب اللبناني،VI،346

[152] ن م VI،34

[153] ابن **سعيد ، كتاب الجغرافيا** بيروت 1970،143

« أم بـلاد عمـل سـطفورة و هـي مدينـة صغـيرة عامـرة حصينـة بهـا مرافـق و أسـواق و عليهـا سـور قديـم حصـين»[154] و هـذا يؤكـد أن حجـم المدينـة لم يتطـور كثـيرا بـل بقيـت مجـرد تجمـع سـكني صغـير الحجـم رغـم كونهـا عاصمـة إقليـم سـطفورة و إن لم نسـتفد مـن موقعهـا البحري لتصبـح مركـزا تجاريـا هامـا فإنهـا عـلى الأرجـح تحولـت إلى نقطـة عبـور للهجـرة الأندلسـية الأولى و مرحلـة بـين بجايـة و تونـس و هـو مـا جعـل المدينـة تسـتفيد مـن الهجـرة الأندلسـية و قـد ظهـر في هـذه الفـترة حـي خـاص باللاندلـس [155]

لكـن هـذه الظاهـرة الجديـدة لم تعـط دفعـا للأنشـطة الاقتصاديـة بالمدينـة التـي ظلـت حتـى بدايـة القـرن 10هــ/16 م مجـرد بلـدة صغـيرة و يذكـر ليـون الإفريقـي بأنهـا :« صغـيرة يسـكنها قـوم فقـراء» و يضيـف بأن:«بحيرتهـا تحيـط بهـا مـداشر عديـدة لصيـادي السـمك و الفلاحـين»[156] كـما أنـه تحـدث عـما يقاسـيه كان المدينـة و سـكان الأريـاف المحيطـة مـن كـثرة الضرائـب التـي يفرضهـا السـلطان و القبائـل البدويـة و يذكـر بأنـه بالبحـيرة كميـة وافـرة مـن الأسـماك و خاصـة سـمك المرجـان الكبـير، ويفيدنـا بأنـه عنـد انتهـاء شـهر أكتوبـر يصطـاد السـكان نوعـا مـن الأسـماك يسـمونه : زرافـة يعـرف عنـد الايطاليـين باسـم لاتشـيا.

أمـا مارمـول MARMOL فهـو لا يتحـدث عـن المدينـة بقـدر مـا يتحـدث عـن سـكان المـداشر المحيطـة بالبحـيرة ، حيـث لاحـظ وجـود مسـاكن أنـاس مـن فقـراء الصياديـن و الفلاحـين يصفهـم بالكبريـاء و الشراسـة، ويذكـر أن هـؤلاء السـكان يعيشـون في فقـر دائـم بسـبب عـبء الضرائب و مضايقـة القبائـل البدويـة و في حديثـه عـن بحيرة بنـزرت يقول:«ويصلح فيهـا سـمك الشـابل لأنهـا تصـير حلـوة بسـبب ميـاه الأمطـار ويـدوم صيـده مـن أوائـل شـهر نوفمـبر إلى نهايـة شـهر أفريـل. [157]»

---

[154] عبد المنعم الحميري، **الروض المعطار في خبر الأقطار** بيروت 1975ة104

[155] I،299

[156] ليون الإفريقي،**وصف إفريقيا** بيروت II،1983

[157] **مارمول إفريقيا** الرباط 1989 ج II w 68

و يحـدد مارمـول عـدد سـكان مدينـة بنـزرت أثنـاء القـرن 10هـ/16 م بأربعـة ألاف سـاكن [158] و تحـدث عـن تعـدد انتفاضاتهـم ضـد السـلطان و كيـف كانـوا مـن أول مـن نـاصر خـير الديـن بربروسـة . وفعـلا كان خـير الديـن قبـل دخولـه مدينـة تونـس قـد اسـتقر ببنـزرت سـنة 940هـ/1534م و لما تـم اجلاء خـير الديـن استقرت بها جيـوش شـارل كانـت مـن سـنة 941هـ/1535م إلى سـنة 980هـ/1572م و أثنـاء هـذه الفـترة بقيـت بنـزرت خاضعـة للسـلطان الحفـصي الـذي انطلـق منهـا أثنـاء بعـض معاركـه[159] و يبـدو إن مدينـة بنـزرت ظلـت صغـيرة الحجـم حتـى دخـول الاسـتعمار الفرنـسي فالورثيـلاني الـذي مـر بهـا حـوالي 1179هـ/1765م يقـول :« دخلـت مدينـة بنـزرت ...وهـي مدينـة شريفة مليحـة المـرسى فيهـا بسـاتين لا سـيما العنـب و أنـواع الفواكـه و خـير الـبر والبحـر مجتمـع فيهـا » [160]

الحياة الفكرية ببنزرت

لا تذكـر لنـا المصـادر الكثـير عـن الحيـاة الفكريـة ببنـزرت خاصـة لكونهـا ظلـت متواضعـة الحجـم لمـدة طويلـة و بسـبب قربهـا مـن مدينـة تونـس التـي كانـت تسـتقطب في ذلـك العهـد كل الأنشـطة و خاصـة الفكريـة منهـا لكـن هـذا لم يمنـع مـن بـروز اسـم خلـدت ذكـراه جـل كتـب الطبقـات و التراجـم و هـو أبـو محمـد عبـد اللـه بـن سـليمان البحـيري(و أظـن أن كلمـة البحـيري نسـبة لبحـيرة بنـزرت) الـذي ذكـر الرصـاع في فهرسـته انـه مـن أشـياخه و أصلـه مـن بلـد بنـي زرت [161] وقـد

---

[158] ن م جIII،ص10

[159] علي الشابي ، **عرفة الشابي** ،تونس 1982،ص120،ص127

[160] الورثيلاني **نزهة الأنظار (الرحلة الورثيلانية)** الجزائر 1908ص677

[161] **فهرست الرصاع** تونس 1967ص178

كان قاضيا للأنكحة ثم تولى الإفتاء بجامع الزيتونة [162] كما تولى الخطابة به من سنة 856هـ [163] حتى وفاته في الخامس من ذي القعدة سنة 858هـ [164] ومن رجالات بنزرت أيضا الولي الصالح عبد الواحد الذي قال عنه الورثيلاني « و اني زرت ولي الله على الإطلاق و صاحب البركة على الاتفاق سيدي عبد الواحد مشهور بالزيارة ومعلوم الصلاح و الإنارة ...»[165]

و أخيرا و في هذا الإطار أود أن أذكر بعض الأبيات التي كتبها الأديب أبو عبد الله ابن أبي تميم الحميري بمناسبة حلول المستنصر بالله ببنزرت:

لما حاتم باللوى	بين ظلال الالويه
رأيت في بنزرت ما	لم أرفي إفريقية
سعد السعود قاد ال	بلدة سعد الأخبيه [166]

[162] **الزركشي تاريخ الدولتين** ص 135

[163] ن م ص 143

[164] ن م ص 148

[165] **الرحلة الورثيلانية** ص677

[166] ابن رشيد ،**ملء العيبة**،تونس 1982،جII ص384

خاتمة

يمكن القول أن مدينة بنزرت رغم أن تأسيسها يرجع للعصور القديمة فإنها في العهود الإسلامية ظلت متواضعة الحجم و يرجع ذلك أساسا لعدم تنوع الأنشطة الاقتصادية بها خاصة التجارة فهي لم تستفد من موقعها لتصبح مرحلة هامة في طريق التجار و لا ميناء تجاريا هاما بالنسبة للتجارة المتوسطية التي سيطرت عليها كل من بجاية و تونس .

و يبدو أيضا أنها كتجمع حضري لم تتمكن من التحول إلى مركز تبادل نشيط مع الأرياف المجاورة، و لعل ذلك يرجع لقرب مدينة تونس التي كانت مركز استقطاب لهذه الأنشطة و للعناصر البشرية المدعوة للتنقل الاختياري او القسري.

حمام الأنف في العصور الإسلامية

كانـت « نـارو» (Naro) عندمـا دخـل العـرب إفريقيـة قـد اختفـت تمامـا أو عـلى الأقـل لم يبـق منهـا إلا حماماتهـا (Aqua Pasiane) ومـن المرجـح أن تراجعهـا قـد تـم في العهـد البيزنطـي رغـم بعـض الشـواهد التـي نـم العثـور عليهـا مثـل البيعـة اليهوديـة التـي تـم اكتشـاف بقايـا أرضيتهـا المتكونـة مـن الفسيفسـاء سـنة 1883 مـن طـرف فرقـة عسـكرية فرنسـية والتـي ترجـع في أقـصى تقديـر إلى نهايـة القـرن الخامـس م أو بدايـة القـرن السـادس م ولا نجـد أي ذكـر لهـذه المدينـة في المصـادر الإسـلامية الأولى وهـو مـا يؤكـد أن المدينـة لم تكـن قائمـة إبـان الفتـح الإسـلامي .

1 - حامـة الجزيرة :

تعتـبر حـمام الأنـف أول مـا يعـترض المسـافر إلى شـبه جزيـرة الوطـن القبـلي بعـد تجـاوزه رادس قادمـا مـن تونـس لذلـك فقـد عرفـت باسـم « حامـة الجزيـرة » أو « حامـة شريـك » نسـبة إلى شريـك العبـسي أحـد العاملـين عليهـا إبـان الفتـح وهـو والـد قـرة بـن شريـك والى مـصر مـن قبـل الوليـد بـن عبـد الملـك[167].

[167] أبو عبد الله التجاني، رحلة تونس 1981، ص11

هـذه « الحامـة» أو «الحمـة» أي العـين الحـارة هـي منتهـى أرض مرنـاق و أول أرض الجزيـرة[168] ويعتـبر « ريـاض النفـوس» لأبي بكـر المالكي (تــ حـوالي سـنة 438 هــــ/ 1046م) أول مصـدر عـربي يتحـدث هـن هـذه « الحامـة» وذلـك أثنـاء حديثـة عـن المبتعـد : عمـرون الأسـود الحامـي[169] . إننـا نجـد في هـذه الترجمـة التـي كتبـت النصـف الأول مـن القـرن 5هـــ /11م العديـد مـن المعطيـات حـول « حامـة الجزيـرة» فعمـرون هـذا كان يتعبـد في « حصـن الحامـة»[170] الموجـود أسـفل الجبـل (أي بوقرنــين حاليـا) ومــن المؤكـد أن هــذا الحصــن أو « القــصر»[171] هـو مبنـى قديمـا يرجـع إلى العهـد البزنطـي أو الرومـاني وهـو حسـبما يبـدو الأثـر الوحيـد الـذي كان موجـودا آنـذاك في هـذه المنطقـة رغـم أن الكاتـب تحـدث عـن « مـرسى الحامـة»[172] فهـو يـورد لنـا أن مابـين البحـر والقـصر يغطيـه السـمار[173] وتبعـا لذلـك يمكـن الافـتراض أن المنطقـة لم تكـن مسـكونة سـوى مـن بعـض العبـاد أو بعـض الأشـخاص الذيـن يقيمـون حـول هـذا الحصـن[174] الـذي كان عبـارة عـن ربـاط ويغلـب عـلى الظـن أيضـا هـذا الحصـن كان محاذيـا للميـاه المعدنيـة أو مقامـا عليهـا .

أمـا البكـري (تــ بعـد 483 هــــ/ 1090م) الـذي عـاش بعـد المالـكي بقليـل فهـو يتحـدث عـن « حامـة جليلـة مجربـة النفـع»[175] كـما يذكـر لنـا بـين المـراسي الصغـار «ربـاط الحمـة »[176] وهـو عـلى الأرجـح

[168] ن م، ص 11-10

[169] أبو بكر المالكي، رياض النفوس (3 أجزاء) بيروت 1981، ج اا ص377-383

[170] ن م ، اا ص 378 - 380

[171] ن م، اا، 379 382-381-

[172] ن م ، اا، 382

[173] ن م ، اا، 383-382

[174] ن م، اا، 382

[175] **أبو عبيد البكري المسالك والممالك** (جزآن) تونس 1992، ج اا، ص704

[176] ن م ، اا 759

هـذا الحصـن أو القـصر الـذي تحـدث عنـه المالـكي مـن قبلـه والـذي آوى إليـه بعـض العبـاد مـما يفـسر تسـمية « ربـاط» التـي اسـتعملها البكـري.

هـذه المصـادر المتقدمـة نسـبيا لا تتحـدث عـن حيـاة عمرانيـة متميـزة ولا عـن أنشـطة اقتصاديـة تسـتحق الذكـر أو حضـور سـكاني نسـبي وهـو مـا يعـبر عـن الـدور المتواضـع لهـذا الربـاط الـذي ظـل لعـدة قـرون ثانويـا مقارنـة بمـا كانـت عليـه رادس المجـاورة ولعـلّ الميـزة الوحيـدة لهـذا الموقـع هـو وجـود الميـاه المعدنيـة الحـارة أو «الحمـة» التـي كانـت عـلى الأقل منـذ العهـد الرومـاني سـببا في الاسـتقرار والعمران عـلى سـفح جبـل بوقرنـين.

إن النصـوص التـي ترجـع إلى العهـد الحفـصي توحي بأن «حامـة الجزيرة» بـدأت تلفـت الانتبـاه أكـثر فأكـثر وربّمـا تنامـى دورهـا وأصبحـت قبلـة حتـى لبعـض السـلاطين وعـلى سـبيل المثـال يذكـر لنـا ابـن القنفـد بخصـوص أحـداث سـنة 694هــ/ 1294م أن الأمـير أبـا حفـص :« ....سـافر .... بعـد مـوت قائـده الفـازازي لجهـة القبلـة فخـرج مـن تونس..وأقـام بالحمـة مـدّة ثـم عـاد إلى تونـس مريضـا...»[177]

هـل يعنـي هـذا أن حامّـة الجزيـرة صـارت منـذ العهـد الحفـصي مشـتى للسـلاطين ورجـال الدولـة ؟ هـذا يبـدو مسـتبعدا والأمـر لا يتعـدّى كـون هـذه العمليـة كانـت مجـرّد محاولـة استشـفائية فقـط والـذي يثبـت ذلـك هـو مـا أورده التجـاني في رحلتـه وهـو شـاهد عيـان مـر بالمنطقـة سـنة 706هــ /1306م :« ثـم انتقلنـا عـن رادس يـوم الاثنين فاجتزنـا في أول المرحلـة بالحامـة المعروفـة بحامـة الجزيـرة وماؤها مفرط السـخانة وهـي موصوفـة بإبـراء ذوي العاهـات يطلبـون الجلـوس عـلى مائهـا لدوائهـم... وكانـت قبـل هـذا محجـورة عـن النـاس ببنـاء محـدق

[177] ابن القنفد القسنطيني، **الفارسية في مبادئ الدولة الحفصيّة**، تونس 1968 ص151

بهـا ثـمّ أبيحـت بعـد للنـاس والبنـاء المحـدق بهـا بـاق إلى الآن ...»[178]
ونفهـم ضمنيـا مـن كلام التجـاني أن هـذه المنطقـة لم تكـن تمثّـل مركـز إقامـة ولـو وقتيّـة بالنسـبة للسـلاطين الحفصيـين أو حتّـى بالنسـبة لبقيّـة السّـكان الذيـن حسـبما يبـدو يأتـون إليهـا قصـد الاستشـفاء فقـط.

أمّـا المعلومـات التـي أوردهـا مارمـول (Marmol) عـن «عـراض» ؟؟ وهـي حسـب مـا كتبـه :« مدينـة صغـيرة ... تقـع عـلى الطريـق التـي تـؤدّي مـن حلـق الـوادي إلى تونـس شرقـي المسـتنقع (أي البحـيرة) بناهـا الرومـان.. اشـتهرت بحمامـات جاريـة الميـاه.»[179]

فهـي غـير مضبوطـة ولا يمكـن أن نثـق بهـا بخصـوص الاسـم أو التحديـد المـكاني فهـو حسـب رأيـه بـين حلـق الـوادي وتونـس وشرقـي البحـيرة في الآن نفسـه كذلـك مـن المسـتبعد أن تكـون حامّـة الجزيـرة آنـذاك أي في النصـف الأول مـن القـرن 10 هــ /16م قـد أصبحـت مدينـة صغـيرة.

هــذه المعطيــات المتفرّقــة والقليلــة عــن «حامــة الجزيــرة» في العـصر الوسـيط تجعلنـا نسـتخلص أن مدينـة «نـارو» القديمـة قـد اختفـت تمامـا قبـل قـدوم العـرب إلى افريقيـة ولعـدّة قـرون بقيـت محاولـة إعـادة تعميرهـا بطيئـة جـدّا ولـو لا جـود الميـاه المعدنيـة لمـا رجعــت الحيــاة الحضريّــة لهــذا الموقــع.

[178] **رحلة التجاني**، ص10

[179] مارمول، **إفريقيا** (3 أجزاء) الرباط 1984، ج III، ص62

II/- ميلاد حمام الأنف

رأينـا كيـف اختفـى اسـم «نـارو» منـذ بدايـة الفـترة الإسـلامية وظهـر مكانـه اسـم «حامـة الجزيـرة» ثـمّ مـع نهايـة العهـد الحفـصي وبدايـة العهـد الـتركي ظهـر اسـم جديـد ونهـائي لهـذا الموقـع «حـمام الأنـف» يعتـبر كتـاب «المؤنـس في تاريـخ افريقيـة وتونـس» لابــن أبي دينـار الـذي كان حيّـا في أواخـر القـرن 11هــ /17م أقدم مصدر بالنسـبة لهـذه الفـترة وأثنـاء حديثـه عـن الوطـن القبـلي ذكـر ابـن أبي دينـار أن:«جزيـرة شريـك هـي الجزيـرة المعلومـة في زمننـا هـذا التـي بهـا حـمام الأنـف وبناهـا الأندلـس مثـل سـليمان وتـركي وغيرهـما....»[180]

بالنسـبة لهـذه الفـترة بالـذات يحظـى ابـن أبي دينـار بثقـة كبـيرة لأنّـه معـاصر للأحـداث أو قريـب منهـا، وهـو يفيدنـا بشـيئين هامـين وهــما :

- التسـمية الجديـدة للموقـع : حـمام الأنـف، وهـو اسـم يرجـع عـلى الأقـل الى القـرن 11هــ / 17 م.

- تأسـيس المدينـة مـن جديـد بعـد تـلاشي عمرانهـا لعـدّة قـرون وحسـب مـا يفيدنـا بـه ابـن أبي دينـار فـإنّ تأسيسـها كان عـلى يـد الأندلسـيين مثلها مثـل سـليمان وتـركي وغيرهـما هـذا يجعلنـا نجـزم أن إعـادة التعمـير هـذه انطلقـت اثـر الهجـرة الأندلسـيّة في عهـد عثـمان داي سـنة 1018هــ /1609م لكنّهـا بقيـت محـدودة لأنّهـا عكس المـدن الأندلسـيّة الأخـرى لم تتطـوّر عمرانيـا ولم تتخـذ طابعـا خصوصيّـا في ولا توجـد أي آثـار تـدل عـلى ذلـك.

- أمـا الوزيـر الـسراج (تــ 1149هــ/1736م) فهـو رغـم تأخـره بمـا لا يقـل عـن نصـف قـرن عـن ابـن أبي دينـار فهـو لا يضيـف شـيئا

---

[180] ابن أبي دينار، **المؤنس في تاريخ افريقية وتونس،** 1967 ص 29.

لمعلوماتنا وهو بقوله « وقبلتها (رادس) العين السخنة المعروفة في القديم بالحمة وتعرف اليوم بحمام الأنف وماؤها مفرط السخانة، وهي موضعة بإبراء ذوي العاهات، يطلبون الجلوس على مائها للتداوي ...»[181] يكرر ما جاء في النصوص القديمة (خاصة البكري) لكنه يؤكد التسمية الجديدة التي ذكرها من قبله ابن أبي دينار. ومن المرجح أن الذين أعادوا تعمير الموقع مع بداية القرن 11هـ/17م هم الذين أطلقوا هذه التسمية الجديدة التي لانستبعد أنها مرتبطة بشكل التضاريس التي بسفحها نجد عيون الماء وهي في شكل : رعن أو أنف جبلي(Promontoire)

III- حمام الأنف مكان إقامة البايات:

هذا الموقع كان متواضعا في بداياته ولا يؤمه الناس إلا للاستشفاء ويذكر الحكيم شاو (Dr Shaw) أن مياهه المعدنية تشفي من داء المفاصل واليرقان وبعض الأمراض الأخرى.[182]هذه الشهرة التي تعدت الآفاق لا يمكن أن تغيب عن أصحاب القرار بالإيالة التونسية وإن اختار البايات بعض الضواحي الشمالية لمدينة تونس لقضاء الصيف فإنهم حبذوا حمام الأنف لقضاء الشتاء.

وحسب بعض النصوص ترجع هذه العادة على الأقل إلى بداية العهد الحسيني ويفيدنا صاحب« المشروع الملكي» محمّد الصغير بن يوسف أثناء حديثه عن أحداث سنة 1755 أن علي باشا انتقل إلى حمام الأنف مع حاشيته قصد الاستراحة.[183]

[181] الوزير السراج، **الحلل السندسية في الأخبار التونسية** (3 أجزاء) بيروت 1985، ج ا ص548

[182] Docteur Shaw, voyage dans la régence d'Alger (2ème édition Bouslama), 1980,p30

[183] Mohamed Seghir B.Yousef, *Chronique Tunisienne*, (17ème édition, Bouslama), 1978,p 274

وتتعـدد الإشـارات في المصـادر حـول ظاهـرة تواجـد البايـات في هــذه المدينــة وقــد تــرك لنــا المبــشر ايفالــد وصفــا مفصــلا عــن ذلــك قائـلا :» وهنـا (في حـمام الأنـف) يملـك بـاي تونـس قـصرا شـتويا مـن عـادة صاحبـه أن يرتـاده في هـذا الفصـل بمعيـة كافـة أفـراد البـلاط ويبـدو هـذا البنـاء للناظـر مـن الخـارج كأنّـه ديـر راهبـات، علـما بـأن كافـة نوافـذه شـدت عليهـا الشـبابيك بسـبب النسـاء. أمـا داخلـه فهـو مــزدان بزينــة شرقيــة فاخــرة.»[184]

ويضيــف ايفالــد بــأن القــصر مدعــوم بمــا يشــبه الحصــن وقــد انتصبــت أعــلاه ثمانيــة مدافــع[185] وكان يــشرف عــلى تســيير القــصر «وكيــل» أو «ناظــر القــصر» وهــو زنجــي مــن عبيــد الوزيــر الأول[186] وكانـت أغلـب الحمامـات عـلى ذمّـة البـاي مـع جعـل البعـض منهـا في متنــاول العمــوم.[187]

ويبــدو أن هــذا القــصر الــذي يمثــل نــواة أساســية في حــمام الأنـف قـد عـرف تراجعـا في السـنوات اللاحقـة لزيـارة إيفالـد التـي تمـت سـنة 1251هــ / 1835م إذ أنـه اثـر ذلـك بحـوالي خمـس سـنوات قـام بيليسـيسي Pélissier بزيـارة إلى تونـس (1842-1840) وأثنـاء مـروره بحـمام الأنـف ذكـر بـأن قـصر البـاي رديء وأنـه مهمـل بصفـة شـبه كلية وفي تقهقـر متواصـل[188] ولا نعـرف بالضبـط أسـباب هـذا التراجـع الـذي يوافـق فـترة حكـم مصطفـى بـاي (1837-1835) وبدايـة حكـم أحمـد بـاي ولعـل قـصر فـترة حكـم مصطفـى بـاي الباهتـة ثـم اهتـمام أحمـد بـاي بإصلاحاتـه وببنـاء قـصر المحمديـة هـي السـبب في إهـمال قـصر

---

[184] المبشر ايفالد، **رحلة من تونس إلى طرابلس**، نقلها إلى العربية د. منير الفندري، بيت الحكمة قرطاج 1991 ص 21

[185] ن م، ص22

[186] ن م، ص21

[187] ن م، ص22

[188] E Pélissier, *Description de la régence de Tunis*, Paris 1853, p 63

البايـات بحـمام الأنـف وتراجعـه في تلـك الفـترة بالـذات ومـن المؤكـد أن البايـات سـيعودون لمشـاتهم الرسـمي اثـر ذلـك وخاصـة مـع فـترة حكـم محمـد بـاي الثـاني (1859-1856) ويخبرنـا ابـن أبي الضيـاف أنـه هـذا البـاي كان بحـمام الأنـف مـع بعـض أتباعـه عندمـا انكـسر مركـب للإفرنـج عـلى الشـاطئ فذهـب هـذا البـاي وأصحابـه لإعانـة الغرقـي وكان في يـوم ماطـر بـارد عاصـف الريـح.[189]

IV/- حمام الأنف كما رآها الرحالة الأجانب

تعـددت رحـلات الأوروبيـين إلى بـلاد المغـرب بدايـة مـن القـرن الثـاني عـشر (رحلـة الحكيـم شـاو بـين سـنتي 1732-1720)، لكـن أهمهـا التـي تمـت في القـرن التاسـع عـشر والتـي وردت في شـكل تقاريـر علميـة مدققـة حـول البـلاد والعبـاد والـثروات الفلاحيـة والمعدنيـة... وهـي رحـلات لم تكـن بريئـة حيـث تـم اسـتغلال نتائجهـا لتوجيـه وإنجـاح المشـاريع الاسـتعمارية وفي هـذا الإطـار نذكـر مـا كتبـه الحكيـم فرانـك (Dr Louis Frank) (1816) والمُبـشّر إيفالـد (1835) وبيليـسي E Pélissier(1842-1840).وهـنري دونانـت Henry Dunant (1856) وطبعـا في أماكـن متفرقـة مـن كتابـات هـؤلاء تـم ذكـر حـمام الأنـف خاصـة في إطـار الحديـث عـن مياههـا المعدنيـة ومكوناتهـا ومزاياهـا العلاجيـة.

كان الحكيـم لويـس فرانـك عضـوا في البعثة الطبيـة التي صاحبت نابليـون في حملتـه ضـد مـصر وبعـد فشـل هـذه الحملـة سـافر إلى عـدة بلـدان مـن بينهـا تونـس التـي اسـتقر بهـا مـدة طويلـة مـن 1806 إلى 1816 حيـث أصبـح طبيبـا للبـاي. وبحكـم هـذه الإقامـة الطويلـة تمكـن مـن كتابـة « تاريـخ مدينـة تونـس» (Histoire de Tunis)

---

[189] ابن أبي الضياف، **اتحاف أهل الزمان،** تونس 1990 ج IV، ص 295

وأهـم مـا في هـذا الكتـاب هـو الوصـف الحـي لمختلـف مظاهـر الحيـاة العمرانيـة والبشريـة والاقتصاديـة للبـلاد آنـذاك ويعـد وصفـه لحـمام الأنـف مـن أهـم الشـهادات لأنـه كان يصاحـب البـاي ويلاحـظ عـن كثـب كل مـا يمكـن أن يتغافلـه الآخـرون أولم يتمكنـوا مـن الإطـلاع عليـه .

لاحـظ لويـس فرانـك أن البنـاء الموجـود كان يشـبه الخـان أو الفنـدق حيـث يحيـط عـدد كبـير مـن البيـوت بفضـاء وسـطي.[190]

هـذا البنـاء المتسـع كان عـلى ملك البـاي وهو يسـتغل بمعية خاصيته النصـف وفي المقابـل يكـري النصـف الآخـر بحـوالي 1500 ريـال سـنويا.[191]

وإذا مـا اسـتثنينا هـذا البنـاء هـذا البنـاء فيبـدو أنـه لا يوجـد شيء آخـر وحسـب وصـف فرانـك... لا توجـد أشـجار حـول المـكان ولا ممـر للبحـر ولا أي مبنـى حتـى لبيـع بعـض المسـتلزمات الضروريـة...[192] ونفهـم ضمنيـا مـن هـذا الوصـف أن المـكان شـبه خـال مـن المسـاكن والسـكان أيضـا ولعـل رواده ينتقلـون يوميـا إليـه أو يسـتقرون حولـه بصفـة موسـمية حسـب الحاجـة...

وكانـت ميـاه الحمامـات تتكـون مـن عينـين رئيسـتين الأول التـي يوجـد حولهـا البنـاء والتـي يسـتغلها البـاي أمـا الثانيـة فهـي عـلى بعـد حـوالي 200 خطـوة نحـو الجنـوب وحسـب فرانـك تسـمى «الحـمام العريـان» أي العـين التـي لا سـقف لهـا[193] هـذا التفسـير يجعلنـا نميـل إلى الافـتراض أن شـخصية سـيدي العريـان لا وجـود لهـا آنـذاك وهـي تسـمية تـم خلقهـا في فـترة متأخـرة أمـا بخصـوص الـولي الصالـح الـذي

[190] Dr Louis Frank, *Histoire de Tunis* (2ème édition, B) 1985, p141

[191] ن م ص141

[192] ن م، ص141

[193] ن م، ص 141

كان ينسب لهذا الموقع فالكاتب يذكر لنا سيدي سعيد شورشان[194] (لعلها شوشان؟؟)

ومن الملاحظات الأخرى التي يمكن ذكرها حول هذه المياه هو أنها لم تكن تصرف عبر قنوات بل كانت تذهب إلى حوض طبيعي أو تنساب على الأرض مكونة ما يشبه السبخة ونجد حولها العديد من السلاحف التي كانت تتميز بذيول قصيرة في حجم السبابة.[195]

أخيرا يتحدث الحكيم لويس فرانك عن مزايا هذه المياه واستعمالها ضد الأمراض المزمنة وغيرها مثل : الأمراض التناسلية والجلدية والجذامية[196] مؤكدا أنها تستعمل حسب طريقتين: الاستحمام البدني والشرب خاصة في شهر رمضان بعد الإفطار وهي عبارة عن مسهل ويستعملها المسلمون واليهود على السواء.[197]

أما هنري دونانت (Henry Dunant) وهو سويسري زار تونس سنة 1856 فهو يذكر لنا أن شهرة المياه المعدنية بحمام الأنف تعدت الآفاق لا في البلاد التونسية وحسب بل حتى في بعض بلدان أوروبا الجنوبية[198] هذه المياه الحارة حسب رأيه تبلغ 60 درجة حرارية وتحتوي على الحديد والكاربون الجيري ولبن العذراء(Magnésie) والكبريت وعدة أملاح أخرى[199] وهو يؤكد ما قاله فرانك بخصوص استعمالها للاستحمام والشرب مضيفا أن هذا الاستعمال يكون تصاعديا في بداية الفترة العلاجية وتنازليا في نهايتها

---

194 ن م، ص29

195 ن م ، ص 141

196 ن م ، ص142

197 ن م ، ص142

198 Henry Dunant, *La régence de Tunis* (2ème édition, S.T.D) Tunis 1975, p 122

199 ن م، ص 123

وعمليـة شرب هــذه المـيـاه مفيــدة جــدا بالنســبة لأمــراض المعــدة.

وبالنسـبة لمنافـع هــذه الميـاه عمومـا فهـي حسـب رأيـه تقـوي الجهـاز العصبـي وتسـاعد عـلى خــروج البخـار وتضاعـف مـن خـروج العــرق والريــق وتعمــل عــلى ترطيــب الأمعــاء وعــلى القضــاء عــلى الحوامـض في الجسـم[200] إضافـة لذلـك يؤكـد بأنهـا مفيـدة ضـد السـوداء أو الوحشـة (La Mélancolie) وضـد الأمـراض العصبيـة وخفقـان القلـب وعــرق الأسى والفالــج والحصـا والأمــراض الجلديــة ...[201]

خــــاتمة

يمكـن القـول أن مدينـة حـمام الأنـف ظلـت متواضعـة الحجـم لعـدة قـرون رغـم مـا أورده ابـن أبي دينـار مـن كـون تأسيسـها يرجـع إلى بدايـة القـرن السـابع عـشر وقـد تظافـرت عـدة عوامـل للمسـاعدة عـلى رجـوع الحيـاة العمرانيـة لهـذا الموقـع وهــي:

- المياه المعدنية الحارة التي حالت دون اندثار الموقع تماما.
- اهتمام البايات بهذه المياه واستغلال مزاياها العلاجية .
- الاســتيطان الاســتعماري الــذي أحيــا المنطقــة منــذ نهايــة القــرن التاســع عــشر (أصبحــت بلديــة منــذ 9 مــارس 1899).

ومـع بدايـة القـرن العشريـن تسـارع نموهـا العمـراني والسـكاني حتـى أننـا نجدهـا تضـم 4932 سـاكنا في سـنة 1926 منهـم 2045 مـن المسـلمين و283 مــن اليهــود و2604 مــن الأوروبيــين.[202]

[200] ن م، ص 123

[201] ن م، ص 123

[202] Dénombrement de la population civile Européenne et Tunisienne en Tunisie, Tunis 1931, p44,142

الحضور الأوروبي بمدينة تونس
أثناء القرن العاشر هـ/السادس عشر

يعتبر الحضور الأوروبي بمدينة تونس ظاهرة قديمة و قد عرف أثناء القرن السادس عشر منعرجا هاما تميز بطابعه العنيف و جاء كتعبير عن واقع جديد ما هو إلا انعكاس للعلاقات بين عالمين : جنوب المتوسط بكياناته السياسية المتداعية تقابله في شمال هذا البحر أوروبا المتحفزة. وقد طغى على هذه العلاقات أثناء هذا القرن الحضور الاسباني الذي كان عبارة عن امتداد لحرب الاسترداد (Reconquista). هل خدم الحضور القديم للاروبيين المشروع الاسباني؟ كيف يمكن تقييم هذا الحضور أثناء القرن السادس عشر م ؟ و ما هو رد فعل السكان المحليين على الاحتلال؟

I) حضور قديم:

إن ظاهرة تواجد المسيحيين في المدن الساحلية و خاصة بمدينة تونس ظاهرة قديمة غير أن ما يمكن اعتباره كشكل جديد لهذا التواجد هو أن العناصر التي استقرت منذ بداية العهد الحفصي عناصر غير محلية[203] جاءت لأغراض مختلفة : التجارة و التبشير والارتزاق العسكري [204].

[203] DUFOURCQ (CH.-E :), *l'Espagne Catalane et le Magreb aux XIIIè et XIVè sicles,* Paris1966, p106.

[204] ابراهيم جدله ، المجتمع الحضري بافريقية في العهد الحفصي ،ش ت ب، كلية الآداب والعلوم الإنسانية تونس، 1990،مرقونة،ص 300-295

- التجـار: كانـوا ينتمـون إلى جنسـيات مختلفـة و كان هـؤلاء أكـثر تنظيـما مـن الأصنـاف الأخـرى و أكـثر تمثيـلا لمصالـح بلدانهـم. و يـشرف عـلى كل مجموعـة وطنيـة قنصـل،و هـو عبـارة عـن رئيـس الجماعـة وقـاض بينهـم و أحيانـا ممثـلا لملـك بـلاده يسـهر عـلى مصلحـة رعايـاه بافريقيـة [205]ومـن أقـدم القناصـل الاروبيـين الذيـن اسـتقروا بمدينـة تونـس[206]: قنصـل البندقيـة سـنة628هـ/1231م و قنصـل بيشـه (pise) سـنة 631هــ/1234م و قنصـل صقليـة سـنة 636هــ/ 1239م...

و كان هـؤلاء التجـار يقيمـون في الفنـادق و هـي عبـارة عـن محـلات سـكنى و متاجـر ومخـازن للسـلع و مراكـز دينيـة تابعـة للملـوك الاروبيـين و قـد أكـدت بعـض الوثائـق أن فنـادق تونـس و بجايـة كانـت ملـكا لملـك الاراغـون[207] . و بصفـة عامـة كان الاروبيـون يمثلـون الطـرف الأقـوى في المعامـلات التجاريـة مـع مدينـة تونـس بسـبب سـيطرتهم عـلى وسـائل النقـل فقـد كانـت هـذه المدينـة محطـة رئيسـية لخطـوط منتظمـة تابعـة للبندقيـة و فلورنسـة و جنـوة[208].

و قـد بـدأ حضـور التجـار بمدينـة تونـس يتقلـص بدايـة مـن النصـف الثـاني للقـرن التاسـع هـت / الخامـس عـشر م نتيجـة تظافـر عـدة عوامل منهـا : سـقوط القسـطنطينية في يـد الأتـراك (1453م) و الطاعـون الـذي انتـشر بتونـس سـنة 1468- 1469 [209] ثـم سـقوط غرناطـة و اكتشـاف أمريـكا (1492م) و هـي عوامـل سـاعدت عـلى التنافـر بـين المجموعتـين في الوقـت الـذي لاح فيـه بريـق الـثروات البعيـدة خـارج الإطـار الضيـق للبحـر المتوسـط و رغـم هـذه الظـروف الجديـدة فقـد تواصـل تواجـد

[205] DUFOURCQ , op. cit., 518 ; BRUNSCHVIG(R) *La Berbérie Orientale sous les Hafsides,* Paris 1940-47,T 1, 435.

[206] Brunschvig , op, cit I 434

[207] Dufourcq, op , cit, 519

[208] SAYOUS(A-E) *Le commerce des européens à Tunis*, Paris, 1929, p 92.

[209] Ibid, p 93

التجار بتونس في بداية القرن السادس عشر م و قد لاحظ ليون الإفريقي (الحسن الوزان) أنهم كانوا يسكنون ربضا خارج باب البحر على بعد نحو نصف ميل من بحيرة قنال حلق الوادي يضم حوالي ثلاثمائة كانون و يمكن افتراض أن العدد الجملي لهؤلاء لا يقل عن ألف و مائتي شخص (أي بمعدل 4 أشخاص / كانونغ) ينتمون إلى جنسيات مختلفة: جنونيين و بنادقة و قطلانيين[210]...

- المرتزقة: إن ظاهرة استعمال النصارى كمرتزقة تعود إلى عهد المرابطين ثم تواصل العمل بها مع الموحدين [211] و لم تنقطع مع وصول الحفصيين للحكم. و قد تطورت في شكل تصاعدي مع حاجة السلطان إلى حماية خاصة و انفصاله شيئا فشيئا عن المجتمع المحلي حتى أن احد الزوار الأوروبيين أثناء القرن 9/هـ 15م لاحظ أن السلاطين الحفصيين يحبون النصارى كثيرا لأنهم لا يثقون إلا فيهم [212]

و بما أن هؤلاء كانوا في الأصل أحرارا و عملهم يخضع لإرادتهم فإنهم حافظوا على ديانتهم و لم يتحملوا أية وظيفة باستثناء الحماية الخاصة للسلطان[213] و في بداية القرن 8هـ/14م كان قادة المرتزقة كلهم قطلانيين و ربما كذلك بقية العناصر . و كان ملك الاراغون يحصل مقابل خدمات هؤلاء على 20 ألف درهم سنويا[214] . و اشترط إضافة إلى ذلك عندما عين الفارس بيرنقر دي كاردونا (Berenguer de Cardona) كقائد على المليشيا أن يتولى هذا الأخير حمل راية الاراغون بتونس [215] و هذه العملية إن لم نعتبرها تعديا على سيادة

---

[210] الحسن الوزان (ليون الإفريقي) ، **وصف إفريقيا**، بيروت 1983 ج II ص 74

[211] Brunschvig, op, cit, I, 440.

[212] Brunschvig, *Deux récit de voyage inédit en Afrique du Nord XVe siècle,* Paris 1936, p.191.

[213] Brunshvig, *La Berbérie*…I, 440

[214] Dufourcq, op, cit., 103

[215] Ibid, 452

السلطان فهي تدل على الأقل على استقلالية هؤلاء المرتزقة بالنسبة إلى السلطة المحلية.

و ربما كان عدد هؤلاء متواضعا حتى نهاية القرن 9هـ /15م فحسب ابن أبي دينار أصبحت لهم حظوة خاصة في عهد أبي عمر عثمان (839هـ/1435م-892هـ/1486م) الذي أسكنهم بالربض الموجود خلف القصبة (أي حومة العلوج) [216] و هذا الربض هو الثاني المخصص للنصارى إلى جانب الربض الموجود جنوبي القصبة (أي باب المنارة) و الذي توجد به حوالي 200 بيت و يمكن افتراض إحداث ربض ثاني كدليل على تنامي عدد المرتزقة المسيحيين الذي بلغ أثناء القرن 10هـ/16م حوالي 1500 فارس [217] إضافة إلى مائة من الرماة المسلحين ببنادق النار [218]و تطلق المصادر الغربية التي ترجع للقرن السادس م على هؤلاء المرتزقة اسم: ربضيين :Los Rabatinos-Rabatins [219] و حسب مارمول كان هؤلاء من السادة و لهم قضاتهم الخاصون .. و كانوا على قدر من النبل و الغنى [220] و كان للمقدم على هذه المجموعة نفوذ كبير في الدولة [221] فقد كان من أعيان الدولة الذين يشاركون في اختيار الأمير الذي استولى الحكم. و رغم تأكيد بعض المصادر على أن هؤلاء النصارى قد اسلموا[222] فان البعض منهم قد لعب دورا هاما إلى جانب الاسبانيين مثل هذا المرتد الجنوي الذي نصح السلطان الحسن باللجوء إلى

---

[216] ابن أبي دينار ، **المؤنس في أخبار افريقية و تونس** ،تونس 1967،ص168

[217] ليون الإفريقي II،80،مارمول افر يقيا (3 أجزاء) الرباط 1984، ج III ص 28

[218] ليون الإفريقي، 80 ،II، مارمول، 28 III

[219] (De la Primaudaie(E.) Doc. Inédits sur l'histoire de l'occupation espagnole en Afrique, *R.A.*, 1875, p.270 ; Sebag (Paul),Une nouvelle de Bandello, *Ibla*, 127,1971,55,56,60

[220] مارمول، 20، III

[221] مارمول، 20 ،III.

[222] ليون الافريقي،II.80

شارل كانت أثناء دخول خير الدين مدينة تونس و قد حمل هذا الجنوي الرسالة إلى الإمبراطور [223]. و كان السلطان أحمد بن الحسن الذي كثيرا ما ناهض الحضور الاسباني قد سجن الكثير منهم عند توليه الحكم سنة 950هـ/1543م [224].

- الرقيق : يبدو أن سوق النخاسة كانت مزدهرة أثناء العهد الحفصي و لا أدل على ذلك من انتشار استعمال الغلمان و الجواري. فقد كان للسلطان الحسن من المردان أكثر من 400 [225] و كان السلاطين الحفصيون كثيرا ما ينجبون من جواري الروم و أغلب الذين تولوا الحكم منهم أمهاتهم علجيات [226] و الغالب على أن إعداد القيق قد تزايدت بصفة ملحوظة في نهاية القرن 15م و بداية القرن 16م و قد ارتبط ذلك بتنامي النشاط القرصني الذي نتج عنه وجود آلاف من الأسرى المسيحيين الذين تم فك أسرهم أثناء حملة شارل كانت على تونس سنة 1535م و يتراوح عدد هؤلاء حسب المصادر الغربية من 11 ألف [227] إلى 20 ألف [228]...

-المبشرون: ساعد وجود التجار و المرتزقة المسيحيين على انتشار ممارسة الدين المسيحي بالمدن التي استقروا بها. و كان لكل فندق كنيسة صغيرة خاصة به [229] و لكن في الأثناء و منذ بداية القرن 7هـ/13م ظهرت حركة تبشيرية منظمة هدفها تنصير السكان

[223] مارمول ، III،32

[224] Une nouvelle de Bandello, *Ibla,* 127,p. 55

[225] مقديش ، **نزهة الأنظار**، مخ رقم 220، دك و تونس، 254 ، آو.

[226] H ;H ; Abdul-Wahab , Coup d'œil général sur les apportséthniques étrangers en Tunisie, Réimprimé in : *Les Cahiers de Tunisie* , TXVII, n 69-70,1970,p,162

[227] G.Médina, l'expédition de CHARLES Quint, *R.T* .1906, p303

[228] CH.Braquehaye, La prise et le pillage de la ville de Tunis, *R.T,* 1904,184,Sayous ،OP.CIT ?96

[229] Brunschvig,*La Berbérie,* I, 452

المحليـين. و منـذ حـوالي سـنة 648هــ/1250م أسـس الدومينيكيـون بمدينـة تونـس «مركـز الدراسـات العربيـة» الـذي يبـدو أنـه نشـط حتـى الحملـة الصليبيـة ضـد تونـس[230].

و في القـرن السـادس عـشر م نجـد بمدينـة تونـس ثـلاث كنائـس للنصارى: كنيسـة مريـم العـذراء و كنيسـة القديـس سـان فرانسيسـكو و كنيسـة القديـس مرقـص[231]، لكـن يصعـب التكهـن بعـدد رجـال الديـن آنـذاك و مـن الأرجـح انـه لا يتعـدى عـدة عـشرات و رغـم قلـة عـدد هـؤلاء لا يسـتبعد أن يكونـوا مـن أكـثر المجموعـات تحمسـا لمـشروع احتـلال تونـس نظـرا إلى ارتبـاط البابويـة الوثيـق بحملـة شـارل كانـت. أخـيرا يمكـن القـول أن هـذه المجموعـات المسـيحية المختلفـة مـن مرتزقـة و تجـار و عبيـد و رجـال ديـن لا يمكـن أن يقـل عددهـم مـع بدايـة القـرن 10هــ/16م عـن عـشرة ألاف و هـو مـا يـدل عـلى أن هـذه الجالية أصبحـت هامـة لأنهـا موزعـة عـلى أنشـطة حيويـة مثـل : التجـار والعمل العسـكري . وهـذه الأقليـة الهامـة يمكـن أن تلعـب دورا هامـا في تـسرب الاروبيـين لافريقيـة و هـو مـا سـيتم بصفـة فعليـة أثنـاء احتـلال شـارل كانـت لمدينـة تونـس.

II) احتلال مدينة تونس : بين الحلم الصليبي و المشروع الاستعماري

لقــد ارتبــط مصـير مدينــة تونــس ببقيــة المــدن السـاحلية الشــمال افريقيـة التــي كانـت هدفـا مبـاشرا للقـوى الاروبيـة الصاعـدة خاصـة البرتغــال و اسـبانيا حتـى قبـل سـقوط غرناطـة (احتـلال البرتغاليـين لسـبتة سـنة 1415م) ثـم اثـر ذلـك حـين اشـتد الضغـط الاسـباني عـلى

[230] Dufourq, op, cit, 108-109

[231] P.M.Montalvez, les manuscrits de la bib. Nationale de Madrid ,*C,T,* XVIII,69-70,1970,p121

المـدن السـاحلية التـي اسـتولوا عـلى العديـد منهـا مـع بدايـة القـرن 16 م مثـل : المـرسى الكبـير و وهـران و الجزائـر و بجايـة .[232]

و قـد سـبق التدخـل العسـكري في تونـس إعـداد عسـكري و عمـل جوسـسي يوحـي بـان نجـدة مـولاي الحسـن الحفـصي لم تكـن سـوى الفرصـة المنتظـرة لمـد حـدود الركونكيسـتا إلى ابعـد نقطـة في الحـوض الغـربي للبحـر المتوسـط.

و منـذ سـنة 1533 م بـادر القبطـان أوكـوا ديرسـيلا (Ochoa d'Ercilla) الـذي كان أسـيرا بتونـس بإعطـاء الاسـبانيين كل المعلومـات حـول مدينـة تونــس و ســلطانها[233]. و اثــر ذلــك تــم إرســال لويــس برزنــدا (Luis Presenda) ســنة 1534 إلى مدينــة تونــس بغــرض التجــارة ظاهريــا والتجســس عــلى ســلطان تونــس و عــلى خــير الديــن بربروســة في نفــس الوقــت و قــد تعهــد بــأن يرســل إلى الإمبراطــور الأخبــار التــي يحصــل عليهـا مـرة في كل 15 يومـا [234] . و لم يكـن رجـال الديـن بمعـزل عـن هـذا النشــاط الجوســي و كان أحدهــم و هــو يدعــي: خــوان دي ايريبــاس (Juan de Iribès) قــد بعــث برســالة يتحــدث فيهــا عــن تدخــل خــير الديــن بتونــس و هــي تحتــوي عــلى معلومــات دقيقــة حــول قــوة خــير الديــن العســكرية و في خاتمــة هــذه الرســالة يوجــه النــداء للامبراطــور بــأن يــسرع في التدخــل بتونــس أثنــاء شــهر مــارس [235]1535.

و هـو مـا يجعلنـا نتسـاءل عـن طبيعـة هـذا التدخـل هـل هـو امتـداد للعقليـة الصليبيـة و حـرب الاسـترداد أم يدخـل في إطار الحركة التوسـعية الكولونياليـة التـي يمكـن إرجاعهـا إلى احتـلال سـبتة سـنة 1415 م ؟ عنـد مغادرتهـا لاسـبانيا لم ترفـع سـفن الإمبراطـور شـارل كانـت الرايـة الصفـراء

[232] G.Médina, op, cit, *R.T.*,1906 ,301

[233] De la Primaudaie, op, cit,*R.A.*1875, 269-270

[234] Ibid,339

[235] Ibid,349

و القرمزيـة لقشـتالة و ليـون بـل العلـم الأبيـض الحامـل للصليـب [236] و قـد اتسـمت هـذه الحملـة بعقليـة ثأريـة جعلـت أحـد شـاهدي عيـان ممـن حـضر معركـة تونـس يسـميها بالحـرب الفينيقيـة الثالثـة[237] متناسـيا أو جاهـلا أن رومـا التـي هزمـت قرطـاج أثنـاء تلـك الحـرب لم تكـن مسـيحية.

أمـا القـوى التـي شـاركت في الحملـة فهـي متنوعـة نظـرا إلى امتـداد إمبراطوريـة شـارل كانـت و حسـب مارمـول كانـت تضـم سـبعين سـفينة مـن السـفن الضخمـة مـن بينهـا عـدد مـن سـفن النقـل جـاءت مـن فلانـدرا و عـلى هـذه العـمارة أربعـة و عـشرون ألـف فـارس: أربعـة آلاف مـن الاسـبان و أربعـة آلاف مـن الايطاليـين و سـبعة آلاف مـن الألمانيـين[238] و قـد وفـر البابـا أيضـا عـدة فـرق إضافـة إلى فرسـان مالطـة و حـوالي خمـس و عشريـن ألـف مـن المشـاة [239] و هـو مـا جعـل ابـن أبي دينـار يتحـدث عـن عـمارة فيهـا مائة ألـف مقاتـل[240].

و في الحقيقـة رغـم العقليـة الصليبيـة التـي صاحبـت هـذه الحملـة و كانـت واضحـة في بعـض الأحيـان يبـدو أن الجانـب الطاغـي و المحـدد فيهـا هـو السياسـة التوسـعية التـي تـم التأكيـد عليهـا منـذ بدايـة القـرن السـادس عـشر و بالضبـط قبـل 15 سـنة مـن احتـلال تونـس ففـي رسـالة مؤرخـة في شـهر مـاي 1510 موجهـة مـن الملـك فردينانـد الكاتوليـكي إلى

---

[236] G.Médina,op,cit,*R.T.*1906,194

و كذلـك رايـة أسرة الهابسـبورغ التـي تتميـز بصـورة النسر،انظـر:Weins Eberhard, unter nehmungen ka iser karls V. egen die Raubstaaten Tunis,Algier und Mehedia. Munster1832P.43

[237] P.M.Montalvez,op,cit,p 122

[238] مارمول ، افريقيا،35 III

[239] G.Médina,op,cit,301

[240] المؤنس ،164

قائـده العـام بإفريقيـا: الكونـت بيـدرو نافـارو (Pedro Navarro) يلـح ملـك اسـبانيا عـلى أن البقـاء بإفريقيـا مرتبـط باحتـلال المـدن السـاحلية: وهـران و بجايـة ، و طرابلـس... و دحـر الأهـالي المحليـين إلى المناطـق الداخليــة و تعويضهــم كليــا بســكان جــدد مســيحيين و يقــول :» اذا سـمحنا لهـم بسـكنى المـدن السـاحلية ، يصبـح مـن المسـتحيل المحافظـة طويـلا عـلى مـا فتحنـاه...»[241] و مهـما تعـددت الدوافـع و تشـابكت المصالـح الدينيـة منهـا و الاسـتعمارية فـان الـشيء الـذي كان لـه أثـر بالـغ في كل مـن عايـش تلـك الحملـة و الـذي حافظـت عليـه الذاكـرة الإنسـانية هـو ذلـك النهـب الهمجـي الـذي تعرضـت إليـه مدينـة تونـس و الـذي يذكـر في نفـس الوقـت بالحقـد المسـيحي و بالبطـولات الوحشـية للكونكيسـتادور في العـالم الجديـد .

وقـد انطلقـت عمليـات النهـب اثـر انسـحاب خـير الديـن بربروسـة و أتباعـه عـن مدينـة تونـس عندمـا أبـاح شـارل كانـت مدينـة تونـس لجنـوده مـدة ثلاثـة أيـام بدايـة مـن يـوم الأربعـاء 21 جويليـة 1535 وقـد عرفـت هـذه الكارثـة عنـد أهـل تونـس ب: «خطـرة الأربعـاء» [242] و فيهـا أقـدم الغـزاة عـلى أبشـع أعـمال النهـب و التنكيـل بالسـكان. و في رسـالة مـن ألفونسـو روسـتي (Alfonso Rossetti) لسـيده دوق اسـت(Le Duc d'Est) واصفـا مـا رآه بعينيـه يقـول «... إن تقتيـل سـكان مدينـة تونـس واصـل إلى حـد أن الجثـث التـي تركـت بـدون دفـن في المنـازل و الشـوارع انبعثـت منهـا روائـح كريهـة مـما أجـبر الإمبراطـور عـلى مغـادرة المدينـة بسرعـة» [243].

241 De la Primaudaie,op,cit,*R.A.*1875,70

242 المؤنس، ص 164.

243 G.Médina,op,cit,306

وقد تضاربت الأرقام حول ضحايا الاحتلال الاسباني لتونس فالبعض يحددها بعشرة ألاف أسير و ثلاثين ألف قتيل[244]، و البعض الأخر يتحدث عن سبعين ألف قتيل و أربعين ألف أسير[245]. ووصف مارمول ذلك قائلا :« فكنت ترى هنا و هناك أكواما ضخمة من جثث النساء و الأطفال...»[246]. أما ابن أبي دينار فقد تعرض لأحداث « خطرة الأربعاء» و ذكر أن ثلث سكان المدينة قتل والثلث اسر و نجا الثلث الأخير و سمع من أهل تونس بان الثلث يساوي ستين ألف شخص[247]. ومهما يكن هامش الخطأ في هذه الأرقام ومهما كانت المبالغات العفوية منها والمقصودة فإن عدد الضحايا لا يمكن أن يقل عن عشرين ألف و عدد الأسرى عن عشرة ألاف. كما أن ذلك يؤكد الطابع الوحشي لهذا الاحتلال و قد عبرت عن هذه الحقيقة كل المصادر الاروبية التي ترجع للفترة المذكورة وجاء على لسان مارمول أن :« كل واحد من الجنود أخذ في قتل من يلقاه من السكان و بالغ في ذلك الجنود الألمانيون الذين لم يتسامحوا مع أي كان...»[248] و قد انجر عن هذا التنكيل و التقتيل الجماعي إخلاء المدينة و القرى المجاورة لها من السكان حتى أن السلطان الحفصي رجا الإمبراطور بان يأمر القائد العام برنادينو دي مندوزا(Bernardino de Mendoza) بان يحسن معاملة سكان تونس و بأن يسمح برجوع سكان رادس و المرسى و قرطاج [249].

و ستتكرر عمليات النهب بأكثر بشاعة في نهاية العهد الحفصي ونهاية الحضور الاسباني كذلك، أثناء حملة دون خوان دي أستريا

---

[244] CH.Braquehaye,op.cit,186

[245] مارمول، افريقيا III 54

[246] ن م، ن ص

[247] المؤنس، 164

[248] مارمول افريقيا III 54

[249] De la Primaudaie , op.cit, R.A. 1876 ,394

(Don Juan d'Autriche) سـنة 1573 قبيـل تحريـر مدينـة تونـس مـن طـرف العثمانيـين و قـد أورد شـاهد عيـان أن جنـود الاحتـلال كانـوا مسـلحين في وضـح النهـار بالفـؤوس و المجـارف يهدمـون المنـازل حتـى أنـه لم يبـق منـزل واحـد قائـم ...»[250].و كان الهـدف مـن هـذه الأعـمال البحـث عـن الأمـوال و الذهـب و الجواهـر... و حتـى ألـواح و أعمـدة الرخـام [251]. و قـد دامـت عمليـات النهـب هـذه تسـعة أشـهر و سـتة أيـام بـدون انقطـاع[252]. و أثنـاء ذلـك امتـدت أيـدي النهـب إلى أعمـدة جامـع الزيتونـة بأمـر مـن دون خـوان دى أوسـتريا[253] .و حتـى خزائـن كتـب الجامـع الأعظـم لم تنـج [254]. هكـذا يبـدو واضحـا أنـه رغـم الإطـار الدينـي الـذي صاحـب الحملـة فإنهـا قـد تحولـت إلى غـزوة لا تختلـف في شيء عـما وقـع في أمريـكا الجنوبيـة حيـث ارتبـط البحـث عـن الـثروة بفقـدان الإنسـانية عنـد الغـزاة (الكونكيسـتادور) الذيـن تفننـوا في إبـراز شراسـتهم أثنـاء تقتيـل الأبريـاء و تهديـم مسـاكنهم لكـن إلى أي حـد قبـل الأهـالي المحليـون هـذه الوضعيـة؟

III) الحماية و المقاومة

أ) الحماية

لقـد انجـر عـن معركـة تونـس وضـع السـلطنة تحـت الحمايـة المبـاشرة للاسـبانيين و تمثـل ذلـك في الـشروط المشـطة المفروضـة عـلى السـلطان و هـي كـما يـلي:

[250] P.Sebag, « Une relation inédite sur la prise de Tunis par les Turcs », *C.T.*, XVII, 65-67,1969,p146

[251] Ibid,140

[252] Ibid,154

[253] P.M.Montalvez, op.cit,124

[254] المؤنس ،175

- تمكـين النصـارى مـن الاتجـار بحريـة بتونـس و تحديـد المكـوس المفروضـة عليهـم ب 5% فقـط[255].

- تحريـر الرقيـق مـن النصـارى و السـماح للربضيـين بالعيـش حسـب الديانـة المسـيحية[256].

- عـدم إيـواء القراصنـة في تونـس سـواء أكانـوا مـن الأتـراك أم مـن الأهـالي [257].

- بقاء حلق الوادي تحت سلطة الإمبراطور و حلفائه إلى الأبد[258].

- في كل عـام يجـب إرسـال سـبعة أفـراس و اثنـي عـشر صقـرا إلى ملـك اسـبانيا[259] . و في مقابـل ذلـك التـزم الإمبراطـور بحمايـة السـلطان والدفاع عنـه ضـد أعدائـه . وإثـر توقيـع هـذا الاتفـاق وضـع الإمبراطـور تحـت تـصرف مـولاي الحسـن مائتـين مـن الجنـود يحمـون شـخصه و يدافعـون عـن القصبـة(58).

و نتيجـة لهـذا الاتفـاق تـم احتـلال حلـق الـوادي و أصبـح يـشرف عليـه وال تابـع للإمبراطـور و تحـت إمرتـه 1200 مـن قدمـاء المحاربـين الإسـبان و أسـطولا يتكـون مـن 10 سـفن (59). و قـد بـادرت قـوات الاحتـلال بالقيـام بتحصينـات مسـتعملة صخـور بعـض الآثـار الرومانيـة كـما فرضـت عـلى السـكان المحليـين إمدادهـم بالجـص و الجـير[260] و مـن جهـة أخـرى التـزم الحسـن الحفـصي بدفـع خـراج سـنوي قـدره اثنتـا عـشر ألـف دوكـة[261].

---

[255] De la Primaudaie, op,cit.R.A.1875,494

[256] Ibid,494

[257] مارمول 55 III

[258] ن م ،ن ص

[259] ن م، ن ص.

[260] نم، ن ص.

[261] Oinssot et Lantier, « Les gouverneurs de La Goulette », *R.T.*, 1930,223.

و في هـذه الظـروف أصبـح السـلطان يحكـم و إلى جانبـه بعـض المقدمـين عـلى النصـارى[262]. و قـد اسـتبد هـؤلاء بالأحـكام مثـل جـوان بـن جاكمـو الـذي كان مـن أهـل الحـل و العقـد مـع نصـارى حلـق الـوادي[263]. و قـد ازدادت سـيطرة الاسـبان في أواخـر العهـد الحفـصي(1573 م) و يتحـدث ابـن أبي دينـار عـن ذلـك قائـلا :» و سـاكنوا المسـلمين وصـاروا الـدار بالـدار و سـكن القبطـان مـع السـلطان محمـد بالقصبـة و يجلسـان معـا في سـقيفتها للحكـم و اسـتمال القبطـان قلـوب النـاس و ساسـهم بعدلـه و مكـره و منـع مـن التعـدي عليهـم...»[264] و قـد ركـز الاسـبانيون حضورهـم في هـذه المـدة بالـذات عندمـا عمـدوا إلى بنـاء الباسـتيون خـارج بـاب البحـر مـن تونـس[265]. و اعتـبر الباسـتيون أقـوى ضررا مـن تحصينـات حلـق الـوادي عـلى أهـل تونـس نظـرا إلى قربـه ووجـوده في بـاب المدينـة المـشرف عـلى البحـر و لان الاسـبان « أرادوا أن يبنـوا فيـه حصـارا (قلعـة) و مدينـة»[266].

ب) **المقاومة**

رغـم التقتيـل و الأسر اللذيـن أصابـا السـكان و رغـم هـذا التركيـز المتواصـل للحضـور الاسـباني فـان مـن تبقـى مـن السـكان لم يستسـلموا بـل حاولـوا بقـدر المسـتطاع المقاومـة و لا أدل عـلى ذلـك مـما أورده ابـن أبي دينـار مـن أن:« أهـل تونـس كانـوا في شـدة مـع العـدو في كل حـين و لهـذا كانـوا يدربـون أولادهـم بلعـب الحجـر دائمـا ليتطـروا بملاقـاة العـدو»[267].

[262] De La Primaudaie, op.cit., *R. A.*, 1876,411.

[263] ح. ح. عبد الوهّب، ورقات، ج1، 462.

[264] المؤنس، 168.

[265] ن م، ن ص.

[266] ن م، 176.

[267] ن م، ن ص.

و في الحقيقـة قـاوم الأهـالي هـذا الاحتـلال منـذ الوهلـة الأولى عندمـا دخلـوا إلى جانـب خـير الديـن بربروسـة و كان عددهـم حـوالي ثمانيـة عـشر ألـف و قـد أكـد بعـض الذيـن حـضروا المعـارك عـلى قـوة رد فعـل المدافعـين و شـدة مقاومتهـم[268]. و ربمـا لم يكـن خـير الديـن سـينهزم لـولا خيانـة الاعـلاج الذيـن كانـوا بالقصبـة و نستشـف ذلـك مـن خـلال مـا أورده ابـن أبي دينـار قائـلا:« و ظهـرت شـجاعة خـير الديـن في ذلـك النهـار و كادت أن تكـون لـه عـلى النصـارى الغلبـة إلا و الخـبر أتـاه أن القصبـة أخـذت و أن الاعـلاج الذيـن بهـا فتحـوا البـاب»[269].

و رغـم انسـحاب خـير الديـن و خيانـة السـلطان تواصلـت المقاومـة مـن طـرف الأهـالي الذيـن كانـوا يهاجمـون الغـزاة يوميّـا خاصـة حـول نقـاط المـاء[270]. و حتـى السـلطان احمـد بـن الحسـن الـذي كثـيرا مـا كان مناوئـا للاسـبان فانـه قـد شـن العديـد مـن الغـارات عـلى المحتلـين و كانـت لـه:» في أهـل حلـق الـوادي عـدة وقائـع«[271].

و في السـنوات الأخـيرة مـن الاحتـلال تزايـد نسـق هـذه المقاومـة بصفـة ملحوظـة و لعـل ذلـك قـد اقـترن بتحـركات العثمانيـين المتواجديـن في الجزائـر و طرابلـس و بدايـة توغلهـم في العديـد مـن جهـات البـلاد. وقبيـل تحريـر مدينـة تونـس لم ينتظـر الأهـالي قـدوم الأتـراك العثمانيـين لمهاجمـة الباسـتيون حيـث استشـهد منهـم حـوالي 1200 شـخص[272].

و لم تقتـصر المقاومـة هنـا عـلى سـكان مدينـة تونـس فقـط بـل شـاركت فيهـا مجموعـات مـن داخـل البـلاد و أثنـاء المعـارك الأخـيرة جـاءت

---

[268] ن م، 195.

[269] ن م، 172.

[270] .G. Médina, op. cit., 303

[271] المؤنس، 171.

[272] .Poinssot et Lantier, op. cit., 246

بعـض القبائـل العربيـة مـن جهـة طرابلـس[273] كـما أن قبيلـة دريـد سـاهمت بكميـات كبـيرة مـن الصـوف تـم اسـتعمالها مـع الرصـاص في ردم الخنـادق المحيطـة بحصـن حلـق الـوادي أثنـاء حملـة سـنان باشـا[274] التـي أدت إلى تحريـر البـلاد مـن الحمايـة الاسـبانية سـنة 1574م.

خاتمة

في الثلـث الأخـير مـن القـرن السـادس عـشر م تغـيرت كل المعطيـات الخاصـة بالحضـور الاروبي بمدينـة تونـس. فالاسـبان الذيـن فرضـوا حمايتهـم عـلى المدينـة حـوالي أربعـين سـنة لم يجنـوا عـلى المـدى الطويل سـوى بقـاء عملتهـم كوسـيلة تعامـل رئيسـية بالبـلاد لمـدة طويلـة[275]. كما أن الحضـور الـذي كان متنوعـا لمـدة ثلاثـة قـرون و نصـف تحـدد في اتجـاه واحـد لصالـح فرنسـا التـي ستسـتثمر معاهدتهـا مـع الإمبراطوريـة العثمانيـة بعـد حضـور الأتـراك بتونـس و ذلـك في إطـار نظـام الامتيـازات الـذي سـعت إلى تطبيقـه محليـا. و قـد كان القنصـل الفرنـسي الـذي عينـه هـنري الثالـث سـنة 1577م أول قنصـل أوروبي بمدينـة تونـس ثـلاث سـنوات بعـد إخلائهـا مـن الاسـبان[276]. هـذه التحـولات و إن قطعت شـيئا فشـيئا مـع الدوافـع الدينيـة فإنهـا فتحـت المجـال للأغـراض الاقتصاديـة و بذلـك حولـت البـلاد إلى هـدف للمطامـع الكولونياليـة.

---

[273] المؤنس، 191.

[274] نم، ن ص.

[275] Sayous, op.cit., 98, 119. ; voir aussi M.H. Chérif, «Introduction de la piastre espagnole dans la régence de Tunis , *C.T.*, XVI, 61-64, 1968, p.45-53

[276] .Sayous, op.cit., 101

القسم الثاني:

القبائل والسلطة والمجال.

المجموعات القبلية وتأثيرها على الحياة الإجتماعية و السياسية بإفريقية أثناء العهد الحفصي

تمّ نشرها ضمن: « القبيلة ن المدينة و المجال في العالم الغربي الإسلامي الوسيط، منشورات : كلّية العلوم الإنسانيّة و الإجتماعيّة بتونس، تونس 2006، الصفحات 182-153 ,

لقد تعمقت ظاهرة البداوة بإفريقية في العهد الحفصي بشكل ملفت للإنتباه. وهي بداوة من نوع جديد يمكن نعتها بكونها «مزمنة» لأنها حسب ما يبدو رفضت الإستقرار و فشلت في الوصول إلى السلطة لكنها كانت في الكثير من الأحيان مؤثرة في المشهد السياسي حاضرة في كل التحولات سلبية كانت ام إجابية وشاركت في إعادة تركيب هذا المشهد بصفة مستمرة مدة ثلاث قرون و نصف. فكانت «داء لا بد منه للسلاطين» و نقمة فعلية للسكان الحضر و فقهائهم.

لكن ذلك لا ينفي مدى تأثير هذه المجموعات على مختلف المستويات خاصة على المستوى الاجتماعي و السياسي. فهي منذ البداية قد خضعت لحركية جغرافية و اجتماعية متواصلة و فرضت على المجتمع المحلي التعامل مع كل تحول جديد حسب ميزان القوى الممكن في حينه. لكن أهم مظهر لهذه الحركية يبقى تلك العلاقة المتأرجحة مع السلطان من التحالف إلى التصادم وقابلية تغيير التحالفات في كل وقت وهو ما يجعلنا نتساءل عن

هـدف العصبيـات القبليـة في زمـن ابـن خلـدون هـل هـي البحـث عـن السـلطة ام خدمـة السـلطة؟ و هـل نحـن بصـدد تجـاوز مفهـوم «الدولة الخلدونيـة» إلى نمـط ثـان مـن الدولـة مسـتقل عـن العصبيـة المؤسسـة و عــن المجتمـع ككل.

البداوة المزمنة: استقرار مرفوض أم استقرار مستحيل؟

1 - ظاهرة قديمة:

إلى جانـب الإسـتقرار عرفـت بـلاد المغـرب ظاهـرة البـداوة منـذ أقـدم العصـور مـع العلـم أن البـداوة تسـبق دائمـا مرحلـة الإسـتقرار. وقـد ذكـر ابـن خلـدون:« أن أحـوال الحضـارة ناشـئة عـن أحـوال البـداوة و أنهـا أصـل لهـا..»[277]. و بـلاد المغـرب بإعتبارهـا منطقـة قاحلـة قليلـة السـهول و تنـدر فيهـا الأنهـار مؤهلـة أكـثر مـن غيرهـا لتقـدم الحيـاة الرعويـة و البدويـة . كـما أن التـوازن بـين نمطـي العيـش هـش إلى درجة أن العلاقـة بـين المجتمعـين كثـيرا مـا تتجـه نحـو العنـف و العنـف المضـاذ. و منـذ العهـد الرومـاني كانـت حـدود إفريقيـة الرومانيـة المحصنـة (Le Limes) عبـارة عـن مواقـع متقدمـة جعلـت خصيصـا لصـد تقـدم المجموعـات البدويـة التـي عجـزت الإمبراطوريـة الرومانيـة عـن إحتوائهـا و إدماجهـا ... و قـد كانـت حركـة التعمـير الرومانيـة قـد تمـت عـلى حسـاب هـذه المجموعـات التـي تـم إبعادهـا أكـثر نحـو المناطـق الصحراويـة و التـي سرعـان مـا تعـود في فـترات الإضطـراب وضعـف الدولـة.

ويمكـن القـول أن الأوضـاع لم تتغـير في الإتجـاه السـلبي بعـد دخـول العـرب المنطقـة و أسـلمتها. فالـصراع السـياسي كان قبـل كل شيء

[277] ابن خلدون، المقدمة، دار الكتاب اللبناني، بيروت 1960، ج I، ص 214

بـين العـرب الفاتحـين و البيزنطيـين مـن أجـل السـلطة السياسـية. أمـا الـصراع الإجتماعـي بـين العـرب و البربـر فقـد دام مـدة نصـف قـرن (مقاومـة كسـيلة، ثـم الكاهنـة...) لكنـه انتهـى لصالـح العـرب الذيـن اسـتقروا في المـدن فقـط و ظلـت الأريـاف و البـوادي بيـد البربـر. و نتيجة لذلـك يمكـن اعتبـار أن فـترة السـيطرة العربيـة الأولى لم تغـير الأوضـاع السـابقة للحضـور العـربي بالمنطقـة و الملفـت للإنتبـاه أن المصـادر لا تحدثنـا البتـة عـن مظاهـر صراع بـين مناطـق الإسـتقرار و المجموعـات البدويـة بإسـتثناء ذلـك الـصراع الإجتماعي-السـياسي بـين العـرب و البربـر و الـذي اتخـذ في الكثـير مـن الأحيـان شـكل معارضـة مذهبيـة (مثـل معارضـة الخـوارج للسـلطة المركزيـة...). ويمكـن تفسـير ذلـك بالسياسـة العربيـة المرنـة مـن جهـة و بإدمـاج المجموعـات البدويـة في الحلقـة الإقتصاديـة مـن جهـة أخـرى حيـث لعبـت هـذه المجموعـات دورا إيجابيـا في المبـادلات التجاريـة عـبر الصحـراء. لذلـك رغـم أننـا عـلى علـم بوجـود قبائـل بربريـة بدويـة خـلال القـرون الأولى مثـل زناتـه و هـوارة و لواتـه... فـإن ظاهـرة البـداوة لم تتخـذ حجـما مفزعـا أو حتـى ملفتـا للإنتبـاه.

وسـننتظر منتصـف القـرن الخامـس هجـري (بدايـة مـن 443 هـ) لـكي تندلـع أعظـم أزمـة بـين عـالم الإسـتقرار و عـالم البـداوة بإفريقيـة والتـي تضاعفـت تأثيراتهـا في القـرون المواليـة. و قـد جـاءت هـذه الأزمة نتيجـة تدخـل عنـاصر خارجيـة عـن المنطقـة (قـدوم الهلاليـين) وهـو مـا يجعلنـا نتسـاءل عـن أسـباب هـذا التحـول الهـام بعـد اسـتقرار دام قرابـة أربعـة قـرون و نصـف:

- هـل أن طبيعـة الوافديـن الجـدد هـي التـي تسـببت في هـذه الأزمـة العميقة ؟

- هـل أن أعدادهـم الهامـة هـي التـي تسـببت في انخـرام التـوازن بـين عـالم الإسـتقرار و عـالم البـداوة بالتـالي خلقـت هـذه الأزمـة؟

- هــل أن المنطقــة كانــت تتجــه بطبيعتهــا نحــو الأزمــة و جــاء القادمــون الجــدد (الهلاليــون) ليعمقوهــا؟

- هــل أن مــا حــدث بإفريقيــة بدايــة مــن منتصــف القــرن الخامــس هجــري لا يختلــف كثــيرا عــما وقــع ببقيــة أنحــاء العــالم الإســلامي التــي اتجهــت كلهــا و في نفــس الفــترة نحــو التــأزم؟

2- الزحف الهلالي أو البداوة المستوردة:

إثــر نبــذ الدعــوة الشــيعية مــن طــرف الزيريــين قــرر الفاطميــون معاقبــة هــؤلاء بإرســال مجموعــات بدويــة كانــت مســتقرة بالصعيــد المــصري و توجيههــا نحــو إفريقيــة[278]. و قــد وصلــت المجموعــات الأولى منهــم إلى المنطقــة ســنة 443 هـــ و تواصــل توافدهــم بعــد ذلــك بكثــير. و تتكــون هــذه المجموعــات البدويــة أساســا مــن بنــي هــلال و مــن بنــي ســليم.

من هم الهلاليون؟

تعودنــا عــلى إطــلاق تســمية «هلاليــن» عــلى مجمــوع القبائــل البدويــة العربيــة التــي وفــدت عــلى افريقيــة منذ ســنة 443 هـــ وهــي في الحقيقة قبائــل مختلفــة أهمّهــا البطــون المنتميــة لبنــي هــلال و البطــون المنتميــة لبنــي ســليم.

[278] حول هذه المسألة أنظر:
DAGHFOUS, de l'origine des Bani Hilàl et des Bani Sulaym, *les Cahiers de Tunisie,* n°91-92, t23, 1975, pp. 41-68

- الهلاليون[279]:

ينتمـي الهلاليـون إلى: هـلال بـن عامـر بـن صعصعـة بـن معاوية بـن بكـر بـن هـوزان بـن منصـور بـن عكرمـة بـن خصفـة بـن قيـس بـن عيـلان بـن مـضر. تذكـر المصـادر بأنهـم كانـوا يقطنـون الحجـاز و نجـد ثـم أقـام جـزء منهم بالشـام بعـد ظهـور الإسـلام. و كان الهلاليـون يمثلون إحـدى بطـون هـوازن التـي حاربـت الرسـول و انتـصر عليهـا في حنـين سـنة 8هــ/630م. و بعـد الإسـلام لم يشـارك هـؤلاء في الـردة التـي قامـت بهـا العديـد مـن القبائـل البدويـة . و قـد أصبحـت لهـم علاقـة تصاهـر مـع قبائـل قريـش و خاصـة مـع بتـي هاشـم[280]... لـذا نفـترض أن جـزء هامـا منهـم قـد اتجـه نحـو الإسـتقرار منـذ وقـت مبكـر. كـما هاجـرت بعـض بطونهـم إلى مـصر منـذ بدايـة القـرن الثـاني هجـري. و لا تتحـدث المصـادر عــن الهلاليــين بوصفهــم مصــدر للفــوضى و أعرابــا همجــا إلا أثنـاء ذكـر تحالفهـم مـع القرامطـة أثنـاء القـرن الرابـع هجـري(أي مـع بدايـة تـأزم الأوضـاع السياسـية بالعـالم الإسـلامي بصفـة عامـة).

وحسـب مـا ورد في المصـادر تنحـدر كل بطـون بنـي هـلال مـن أبنائـه الخمسـة: شـعبة و نـاشرة و عبـد منـاف و عبـد اللـه و نهيـك[281].

و من أشهر بطونهم: بنوقرة- بنوبعجة- بنوحرب- بنورياح.

[279] أنظـر مثـلا: القلقشـندي (أبـو العبـاس أحمـد)، **نهايـة الأرب في معرفـة أنسـاب العـرب،** دار الكتـاب المـصري-دار الكتـاب اللبنـاني، 1991، ص 473 و لنفـس المؤلـف، **قلائـد الجـمان في التعريـف بقبائـل عـرب الزمـان،** دار الكتـاب اللبنـاني بـيروت، 1982، ص 117 و مـا بعدهـا.

[280] لقـد تـزوج الرسـول مـن بتـي هـلال: ميمونـة ثـم زينـب أم المسـاكين، القلقشـندي، **قلائـد الجمان،** ص 117

[281] **قلائد الجمان،** ص 118

- بنو سليم[282]:

و هـم ينتسـبون إلى سـليم بـن منصـور بـن عكرمـة بـن خصفـة بـن قيـس بـن عيـلان بـن مـضر. كانت لهـم علاقـة تحالـف و تصاهـر مع القرشـيين قبـل الإسـلام فعبـد منـاف تـزوج عاتكـة بنـت مـرة السـلمي وكان لـه منهـا ثلاثـة أولاد: هاشـم و عبـد شـمس و المطلـب. و إن كانـوا قـد قاومـوا الرسـول في بدايـة دعوتـه فإنهـم كانـوا إلى جانبـه يـوم فتـح مكـة و أصبـح لهـم دور هـام في حركـة الفتوحـات الإسـلامية. و مثلـما هـو الشـأن بالنسـبة لبنـي هـلال فـإن مـا أوردتـه المصـادر عـن بعـض بطـون بنـي سـليم بكونهـا مشـاغبة و عدائيـة و ترفـض حيـاة الإسـتقرار و المركـزة السياسـية فهـو يرجـع للقـرن الرابـع هجـري عندمـا تحالفـوا مـع القرامطـة (مـن بنـي عقيـل بـن كعـب). مـع العلـم أن عـدة بطـون مـن بنـي سـليم قـد اسـتقرت بمـصر منـذ بدايـة القـرن الثـاني هجـري (١٠٩هــ) و ربمـا انتقلـت بعـض هـذه البطـون إلى منطقـة برقـة إثـر ذلك[283].

- المجموعات التي دخلت إفريقية:

بالنسـبة للهلاليـين بقيـت بعـض المجموعـات منهـم بالصعيـد المـصري أمـا أهـم بطونهـم التـي تحولـت نحـو إفريقيـة فهـي: زغبـة و ريـاح (منهـم مـرداس و فـادع) و الأثبـج (منهـم دريـد و قرفـة) و بنـو قـرة. ومـع هـؤلاء نجـد العديـد مـن البطـون الأخـرى مـن غـير بتـي هـلال من فـزارة و مـن غطفـان (مثـل أشـجع)[284]. و بنـي عبـس الذيـن اختلطـوا بزغبـة... و يذكـر ابـن خلـدون بأنهـم مندرجـون كلهـم في هـلال و في الأثبـح بصفـة خاصـة. و هكـذا نلاحـظ أن المجموعـات الهلاليـة لم تكـن متجانسـة بـل تتكـون مـن مجموعـات مختلفـة الأصـول ربمـا ربطـت بينهـا علاقـات الـولاء و التحالـف و التصاهـر...

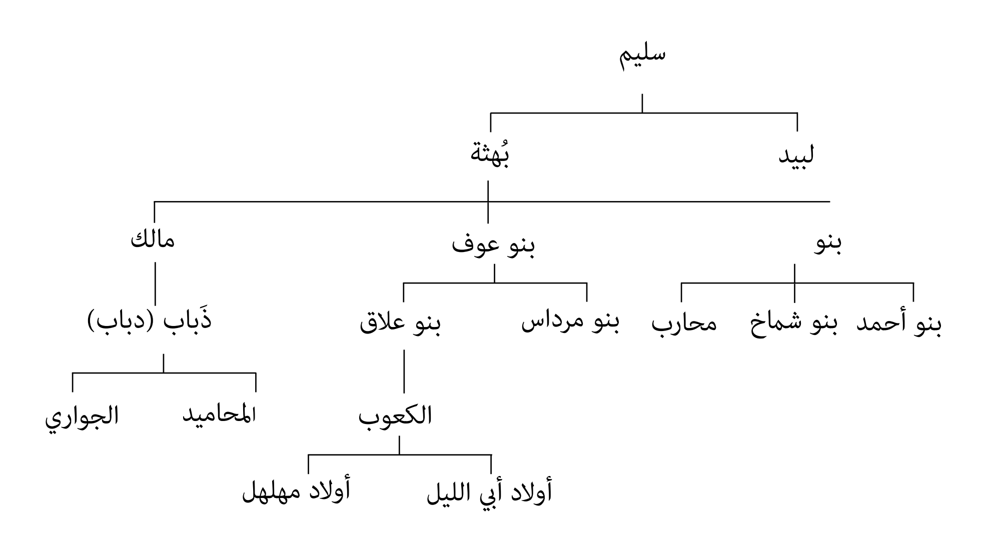
---

[282] **نهاية الأرب،** 294-295

[283] قلائد الجمان، 119

[284] ابن خلدون ، العبر،بيروت1960، VI، 120

أمـا بالنسـبة للمجموعـات المنتسـبة لبنـي سـليم و التـي اتجهـت نحـو الغـرب فقـد اسـتقرت مـدة بـين برقـة و طرابلـس ثـم تحولـت نحـو افريقيـة و مـن أهمهـا بطـون ذبـاب (منهم:المحاميـد و الجـواري) وبطـون بنـي عـوف (منهـم بـن مـرداس و بنـي عـلاق: الكعـوب و ولاد أبي الليـل...).



أ- **انتشارهم بإفريقية:**

رغـم أننـا متيقنـين بـأن الهلاليـين كانـوا قـد تقدمـوا بنـي سـليم نحـو إفريقيـة فـإن الأخبـار تتناقـض حـول أماكـن إنتشـار هـذه المجموعـات وحسـب مـا ذكـره ابـن خلـدون نجـد زغبـة سـنة ٤٤٥ هـ حـول القـيروان ثـم يتحـدث عنهـا في منطقـة طرابلـس سـنة ٤٤٦هـ[285]. و لعـل عـدم الضبـط هـذا يرجـع إلى كـون مصدرنـا الأسـاسي حـول انتشـار هـذه المجموعـات هـو ابـن خلـدون الـذي اعتمـد أساسـا عـلى روايـات سـمعها في فـترة متأخـرة عـن الأحـداث بأكـثر مـن ثلاثـة قـرون.

[285] **العبر،** 33 ،VI

و مــن المؤكــد أن المجموعــات الأولى كانــت متكونــة مــن ريــاح وزغبـة و نعـرف أن أمـير مـرداس بـن ريـاح: مؤنـس بـن يحيـي الصنـبري كان مـن أوائـل مـن دخـل افريقيـة. لكـن الأوضـاع لم تسـتقر لمجموعـة واحــدة بســبب حركيــة هــؤلاء و بســبب الصراعــات الداخليــة بينهــم وعمليـة الدّفـع نحـو الغـرب إضافـة لتفـرق هـذه المجموعـات لمانـصرة هـذا الأمـير أو ذاك. و في سـنة ٤٦٦ هــ تمكنـت ريـاح مـن دفـع زغبـة نحـو الغـرب و طردهـا مـن إفريقيـة[286]. و في سـنة ٤٩١هــ خرجـت عدي أيضـا مـن إفريقيـة أمـام ريـاح[287] و في نفـس الوقـت جلـب هـذا الفـراغ مجموعـات سـليم التـي جـاءت مـن جهـات طرابلـس لتسـتقر قـرب قابـس (مـرداس و عـلاق).

و بصفـة عامـة يمكـن القـول أنـه طيلـة الفـترة السـابقة لقـدوم الموحديـن (مـن ٤٤٤هــ إلى ٥٥٥ هــ) تمكنـت ريـاح مـن السـيطرة عـلى إفريقيـة و ضواحـي قسـنطينية و منطقـة الـزاب (حيـث نجـد الـدواودة إلى جانـب ابـن غانيـة في حربـه ضـد الموحديـن) . و في نفـس الوقـت انتــشرت زغبــة في منطقــة المغــرب الأوســط إلى جانــب مجموعــات أخـرى صغـيرة مثـل: المعقـل و جشـم و قـرة. أمـا بطـون سـليم فيبـدو أنهـا لم تتجـاوز قابـس نحـو الشـمال و الغـرب إلا بعـد قـدوم الموحديـن.

و يمكــن القــول أن أهــم صعوبــة تعترضنــا هــو تقييــم عــدد هــؤلاء الوافديــن لأن المصــادر لا تقــدم لنــا أي رقــم ســوى أســطورة: الثلاثــة آلاف فــارس مــن الهلاليــين الذيــن قابلهــم جيــش زيــري يضــم 30 ألـف فـارس و 30 ألـف راجـل (حسـب ابـن الأثـير)[288] أو ثمانـين ألـف فـارس ومثلهـم مـن الرجالـة (حسـب ابـن عـذاري الـذي اعتمـد عـلى

---

[286] ابن عذاري المراكشي، **البيان المغرب في أخبار الأندلس و المغرب**، دار الثقافة، بيروت 1980، I ـ ص 300

[287] ن م، 303، I

[288] ابن الأثير(عزالدين أبو الحسن علي)، **الكامل في التاريخ**، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت 1994،123، VI. (أنظر أيضا، **العبر**،33-32 ،VI)

رواية ابن شرف)[289]. و إذا انطلقنا من عدد الجيش المهزوم فبإمكاننا الإفتراض أن عدد أفراد المجموعات الهلالية لا يمكن أن يكون أقل منه خاصة أنها تقدمت بصفة مذهلة على حساب الجند النظامي الزيري وكذلك على حساب التحالفات القبلية البربرية (صنهاجة- زناتة).

و بالإمكان افتراض أن عدد المقاتلين الهلاليين أثناء الموجة الأولى من تقدمهم لا يمكن أن يقل عن 30 أو حتى 40 ألف مقاتل و إذا ما احتسبنا النساء و الأطفال و الشيوخ فإن العدد الجملي يمكن أن يرتفع إلى 200 ألف شخص. و قد تواصل توافد القبائل البدوية من الصعيد المصري وجهة برقة حتى قدوم الموحدين أي طيلة قرن من الزمن. و قد تضاربت الآراء حول العدد الجملي لهؤلاء فقد قدره أحمد توفيق المدني بنصف مليون شخص و حسن حسني عبد الوهاب بين خمسمائة و سبعمائة ألف و جورج مارسي قرابة المليون...[290] و مهما يكن من أمر فإن تأثيرهم البعيد المدى سياسيا و عسكريا و ثقافيا يجعلنا نميل إلى أن عددهم كان هاما وربما وصل إلى نصف مليون نسمة.

ج- نمط جديد من البداوة:

كان الزحف الهلالي عبارة عن دفق بشري هام في وقت كانت فيه إفريقية تشكو من النقص على المستوى الديمغرافي. لذلك مثل هؤلاء إسهاما بشريا هاما، غير أن هذه العناصر البشرية الجديدة لها ميزاتها الخاصة من حيث نمط العيش و العادات و التقاليد... و قد استقر الهلاليون ببوادي إفريقية و خاصة بالمناطق المنبسطة

[289] **البيان المغرب**، 290 ،I

[290] G. Marçais , ***les Arabes en Berbérie***, Paris 1913, p.733.

وكان هـذا الإسـتقرار عـلى حسـاب السـكان الأصليـين مـما جعـل العديـد مـن سـكان البـوادي مـن الفلاحـين يلجـأون إلى الحـواضر كـما أن جـزء آخـر مـن السـكان التجـأ إلى المناطـق الجبليـة و الأنجـاد الوعـرة. هـذه الوضعيـة الجديـدة خلقـت تناقضـا دام عـدة قـرون بـين سـكان الحـضر و الهلاليـين مـن جهـة و بـين هـؤلاء و سـكان الجبـال مـن جهـة أخـرى. و قـد عـبرت عـن هـذه التناقضـات كتابـات الأدبـاء و المؤرخـين و فتـاوى الفقهـاء و هـي تعكـس دائمـا وجهـة النظـر الحضريـة التـي تبـدو و كأنها عـلى طـرف النقيـض مـع مقومـات عيـش القبائـل البدويـة العربيـة وتصرفاتهـم و عقلياتهـم.

- الحياة القبلية و الإمتزاج العرقي:

مـع   قـدوم الهلاليـين أصبـح النمـط الإجتماعـي و السـياسي السـائد يرتكـز عـلى القبليـة أي عـلى تنظيـم داخـلي متماسـك تلعـب فيـه الروابـط الدمويـة دورا أساسـيا. و رغـم ذلـك فـإن افريقيـة قـد عرفـت نوعـا مـن الإمتـزاج العرقـي التدريجـي عـلى حسـاب السـكان المحليـين لصالـح المجموعـات الوافـدة. و قـد سـاعد عـلى هـذا الإمتـزاج (السـلبي بالمسـبة للسـكان المحليـين: أي العنـصر البربـري) عامـل العـدد مـن جهـة و عامـل اللغـة مـن جهـة أخـرى. و لذلـك يمكـن القـول أن المجموعـات الوافـدة لم تنصهـر بسـهولة في المجتمـع المحـلي كـما أن تأثيرهـا عـلى مسـتوى نمـط العيـش كان محـدودا. فـإذا مـا اسـتثنينا تعميـق حيـاة البـداوة و الترحـال يصعـب إثبـات مـدى تأثـير الهلاليـين عـلى المجتمـع المحـلي بخصـوص اللبـاس و الأكل إذ نرجـح أنهـم تأثـروا تدريجيـا بمـا وجـدوه بالمنطقـة خاصـة بالنسـبة للمجموعـات التـي تغـادر المناطـق الصحراويـة لتسـتقر نهائيـا بمناطـق التـل و تجـد نفسـها مجبـورة عـلى التأقلـم مـع أنمـاط جديـدة للبـاس و الغـذاء و اسـتغلال الأرض و تربيـة الحيوانـات (الغنـم عـوض الإبـل) وهـو مـا يجعلهـا تتأثـر

حتـما بأنمـاط العيـش المحليـة. و يمكـن أن نسـوق نفـس الملاحظـة عـلى مسـتوى العمـران إذ أن الهلاليـين لم يحاولـوا تأسـيس مـدن جديـدة أو حتـى توسـيع المـدن التـي تمكنـوا في فـترات معينـة مـن الإسـتقرار بهـا (قابـس، القـيروان، سوسـة، المعلقـة).

- <u>تأثير عميق على مستوى اللغة:</u>

مـا مـن شـك أن أهـم جانـب إيجـابي في تأثـير الهلاليـين عـلى الأوضـاع المحليـة يتمثـل في انتشـار اللغـة العربيـة خـارج المـدن الهامـة التـي كانـت قـد عربـت منـذ الفتـح. أمـا الأريـاف و حتـى بعـض المـدن الداخليــة مثــل قفصــة و بــلاد الجريــد فقــد كان ســكانها يتكلمــون البربريـة أو لغـة لاتينيـة محليـة مثلـما لاحـظ ذلـك الإدريـسي[291]. و إثـر الزحـف الهـلالي انحـسرت اللهجـة البربريـة بإفريقيـة في بعـض المناطـق الجبليـة أو المعزولـة في حـين أن اللغـة العربيـة اكتسـحت جميـع المناطق الحضريـة منهـا و الريفيـة و حتـى بعـض التجمعـات القبليـة البربريـة الكـبرى مثـل قبيلـة هـوارة التـي قـال عنهـا ابـن خلـدون:« و صـاروا ظواعـن في عـداد الناجعـة عـرب بنـي سـليم في اللغـة و الـزي و سـكنى الخيـام، و ركـوب الخيـل، و كسـب الإبـل، و ممارسـة الحـروب، و إيـلاف الرحلتـين في الشـتاء و الصيـف في تلولهـم، و قـد نسـوا رطانـة البربـر واسـتبدلوا منهـا بفصاحـة العـرب فـلا يـكاد يفـرق بينهـم»[292].

و يؤكـد العلامـة حسـن حسـني عبـد الوهـاب أن لهجـة الهلاليـين قـد تسربـت أيضـا إلى كلام الحـضر و أثـرت فيـه. و مـا ميـز هـذه اللهجـة هـو نطـق القـاف بصيغـة «القـاف المعقـود (ق)». مـع العلـم ان الهلاليين

---

[291] الإدريـسي (أبـو عبدالله محمـد)، **المغـرب العـربي مـن كتـاب نزهـة المشـتاق،** تحقيـق محمـد حـاج صـادق، الجزائـر 1983، ص 139

[292] **العبر،** 288 ،VI

أيضا تأثروا ببعض أشكال النطق البربري مثل إبدال الجيم بزاي (الجازية=الزازية أو يجوز =يزوز...)[293]. و هذا التأثير والتأثر على مستوى لغة التخاطب كان من العوامل الهامة في امتزاج العناصر الوافدة بالمجموعات المحلية. و رغم هذا الإمتزاج التدريجي فقد ظل التناقض حادا بين هذه المجموعات البدوية و السكان الحضر. و قد أظهرهم هذا التناقض في شكل أعداء للمؤمنين مخالفين لتصرفات المسلم الحقيقي و صورت بداوتهم على أنها كفر.

- بداوة مناقضة للدين أم للحضر؟

يحمل السكان الحضر عادة فكرة سيئة عن الأعراب بصفة عامة لما ورد في القرآن من نعتهم بالنفاق، و ردتهم بعد وفاة الرسول، و أخيرا لما كان منهم أثناء تحالفهم مع القرامطة و أخذ الحجر الأسود من الكعبة... و عرف عن الأعراب بأن إسلامهم واه وبأن الوازع الديني لديهم ضعيف. و يظهر ذلك من خلال مواقف الفقهاء منهم و حتى موقف الشعراء مثل ابن رشيق الذي قال عنهم بمناسبة دخولهم القيروان بعد معركة حيدران:

فتكوا بأمة أحمد أتراهم

أمنوا عقاب الله في رمضان

و المسلمون مقسمون تنالهم

أيدي العصاة بذلة و هوان ....

[293] حسن حسن عبد الوهاب، **ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية**، تونس 1972، III، ص 100-101

لكـن رغـم نعتهـم بكونهـم عصـاة و مارقـين عـن الديـن إلى حـد تكفيرهـم وهـو طبيعـي بالنسـبة لمجموعـات عاشـت أغلـب الأوقـات في مناطـق صحراويـة بعيـدة عـن العمـران و لم تمـارس الديـن بأشـكاله الملزمـة (صـلاة، صـوم...) فإنهـم لعبـوا دورا إيجابيـا عـلى المسـتوى الدينـي في بعـض الأحيـان قبـل قـدوم الموحديـن إلى إفريقيـة و ذلـك أنهـم حاولـوا في العديـد مـن المـرات مسـاندة التجمعـات الحضريـة السـاحلية و السـلطات بهـا ضـد هجـمات النرمـان عـلى المهديـة سـنة 517هــ/ 1078م.[294] سـنة 561 هــ/1121م. كـما حـاول الموحّـدون بعـد دخولهـم إفريقيـة اسـتعمالهم للجهـاد بالأندلـس أمـام تقـدّم المسـيحيين.

وإضافـة لحركـة الجهـاد هـذه تأثّـر البعـض مـن الهلاليـين بالحيـاة الدينيـة المحليـة و خاصـة حركـة الزوايـا التـي نشـطت كثـيرا أثنـاء العهـد الحفـصي و التـي لعبـت دورا هامـا في اسـتتابة الأعـراب و حسـب قول ابن خلـدون جعـل البعـض منهـم ينشـط في « تغيـير المنكـر في أهلـه و إقامـة السـنة لهـم» مثـل: سـعادة القائـم بالسـنة الرياحـي[295] الـذي كـثر أنصـاره مـن قومـه و غيرهـم. و قاسـم ابـن مـرا مـن الكعـوب[296]. كـما كانـت زوايـا مدينـة القـيروان خاصـة تسـتقطب الكثـير مـن هـؤلاء الأعـراب.

لكــن بصفــة عامــة و نظــرا للعــداء القائــم بــين المجتمعــين: الحــضري (المراقــب مــن طــرف فقهــاء المالكيــة) و البــدوي (الــذي لا يخضـع لأيـة سـلطة) فقـد كفـر فقهـاء المالكيـة البـدو و حاربوهـم باسـم الديـن. وهـو مـا أعطـى صـورة محـددة لهـؤلاء الأعـراب الجـدد بوصفهـم « قابلـين لمـشروع الأسـلمة» عكـس أجدادهـم عـرب الفتـح الذيـن جـاؤوا بالإسـلام قصـد نـشره في المجتمـع المحـلي (و كأننـا أمـام فتـح مضـاد يقـوم بـه المحليـون ضـد الغـزاة).

---

[294] **البيان المغرب**، I، 309

[295] العبر،VI، 81

[296] ن م ، VI، 160

2- الإستقرار المستحيل أم المرفوض؟

كان تنقل الهلاليين في البداية عبارة عن حركة سكانية من مناطق ذات فائض سكاني إلى مناطق طلب سكاني. و رغم عملية الدفع إلى الأمام الناتجة عن ضغط الجماعات الجديدة على من سبقهم فقد حاول الهلاليون الاستقرار منذ الوهلة الأولى سواء في مدينة القيروان أو في مدينة قابس أو سوسة أو المعلقة (قرطاج). و أكثر من ذلك حاولت هذه المجموعات تأسيس كيانات سياسية (إمارات) هذا يجعلنا نفترض أنها لم تكن ترفض الاستقرار بقدر ما كان استقرارها صعبا إن لم نقل مستحيلا. فأعداد الوافدين الجدد كانت هامة (ربما تجاوز عددهم النصف مليون) و دخلوا البلاد في فترة صعوبات مما جعل استقبالهم و استيعابهم من الأمور غير الممكنة في تلك الظرفية التي تميزت أساسا باختلال التوازن بين الإنسان و العنصر الطبيعي و بالتحديد في منطقة السباسب وهو ما أدّى إلى تقدم فجئي و سريع للبداوة و الحياة الرعوية على حساب الاستقرار المبني على الزراعة. و يذكر لنا صاحب كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار بأنّ « القوافل كانت أثناء مرورها بين قصور قفصة تكم إبلها و دوابها لكي لا ترعى ورق الشجر لكثرته» ويضيف بأنها » اليوم (أي مع منتصف القرن السادس هجري) خربة لا أنس بها...»[297] . و يذكر التجاني في رحلته بأن « الزيتون القديم المتصل المعروف بزيتون الساحل قد أذهب إفساد العرب أكثره»[298].

هذه الشهادات المختلفة تثبت أن الواقع الاقتصادي المتأزم آنذاك كان يعبر عن عجز إفريقية على استيعاب الوافدين إليها وبالتالي كان استقرارهم صعبا، وهو ما أدّى إلى انخرام التوازن على جميع المستويات (الاقتصادية والاجتماعية وحتى السياسية) خالقا

---

[297] مجهول، **الإستبصار في عجائب الأمصار**، بغداد- الرباط 1985، 154

[298] عبد الله التجاني، **رحلة**، الدار العربية للكتاب، تونس 1981، ص 65

وضعيـة جديـدة تتميـز بـــ:

- تراجع الحياة الحضرية و أنشطتها مقابل تقدم الحياة الرعوية
- انعدام الأمن الداخلي و تفكك مسالك التجارة الصحراوية
- بـروز التجـارة البحريـة كنشـاط رئيـسي تحـت هيمنـة السـلطان (مـع ظهـور نشـاط الغـزو البحـري)
- بــروز الارتــزاق العســكري (مــن طــرف القبائــل) كنشــاط داخــلي رئيــسي.

II. القبائل البدوية في العهد الحفصي:

1. الإنتشار الجغرافي:

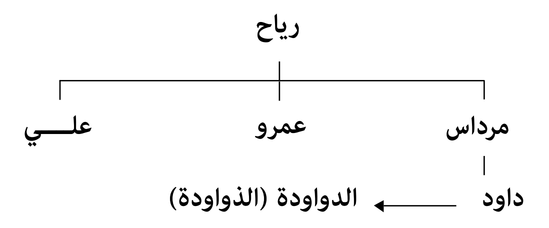
قبـل ظهـور الحفصيـين كانـت جـل إفريقيـة تحـت سـيطرة قبائـل ريـاح الهلاليـة في حـين أن بطـون سـليم كانت مسـتقرة أساسـا بـين قابس و طرابلــس. و أثنــاء الحــروب بــين بنــي غانيــة و الموحديــن تحالفــت ريـاح مـع بنـي غانيـة. و مثلـت بذلـك عـدوا تقليديـا للموحديـن ثـم للحفصيـين مـن بعدهـم حيـث أنـه لمـا تـولى أبـو زكريـا الحكـم وجـد نفســه مجبــورا عــلى التحالــف مــع بطــون ســليم ضــد ريــاح و خاصــة الــدواودة منهــم. هــذه التحالفــات الجديــدة أحدثــت حركيــة شــملت مختلـف القبائـل حيـث تواصلـت عمليـة الدفـع نحـو الغـرب خالقـة جغرافيـا جديـدة للاسـتقرار. فأبـو زكريـاء يحـي الحفـصي أخـرج ريـاح عـن مواطنهـا و اسـتقدم مـرداس و عـلاق مـن سـليم بغـرض مـلء الفـراغ الـذي أحدثـه.

و سـندرس هنـا كيفيـة اسـتقرار هـذه القبائـل إثـر المعادلـة الجديـدة أي منـذ بدايـة العهـد الحفـصي.

أ- **الهلاليون:**

للتذكير نقول أن أهم بطونهم التي استقرت بافريقية هي: رياح والأثبج و زغبة و المعقل.

- رياح:

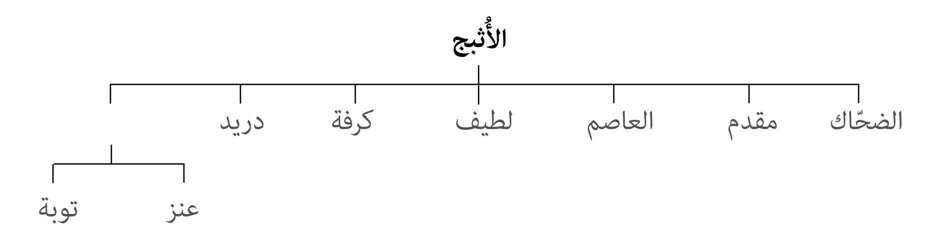


في العهد الحفصي أصبح الدواودة (ذرية داود) يمثلون أهم و أكبر بطون رياح و يذكر ابن خلدون أن:« بطون رياح كلها تبعا لهؤلاء الدواودة...»[299] و في عهده كان هؤلاء مستقرون في ضواحي قسنطينة و بجاية و مجالات الزاب و ربخ و ربما توسعوا نحو الشرق حتى الجنوب الشرقي حتى بلغوا القيروان و بلاد قسنطينة. وعند حديثه عن داود يفيدنا ابن خلدون بأنه:« صارت رئاسة البدو في ضواحي إفريقية ما بين قسنطينة و الزاب و القيروان و و المسيلة له و لقومه...»[300].

[299] **العبر**، 69-70، VI

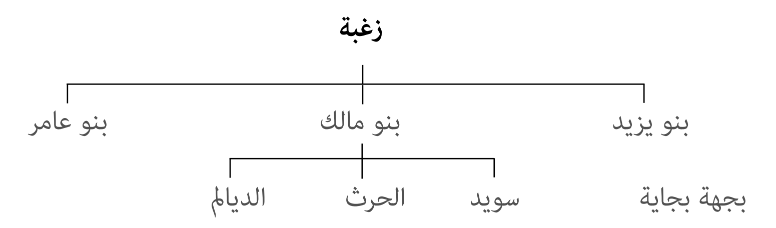
[300] ن م، 84، VI

- **الأثبج:**



و من أشهر بطونهم في العهد الحفصي: كرفة و دريد و كانت قبائل رياح قد دفعتهم نحو منطقة الزاب. لذلك تحالفت كرفة مع سليم و السلطان الحفصي ضد رياح. و عن دريد قال ابن خلدون:» كانوا أعزّ الأثبج و أغناهم»[301].

- **زغبة:**

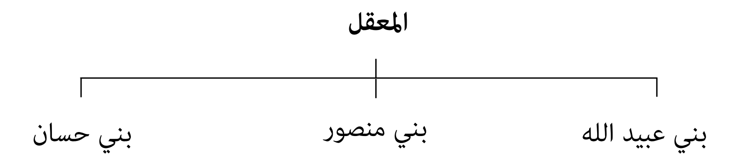


كانت بينهم و بين رياح صراعات و حروب استمرت حتى العهد الحفصي و تحدثنا المصادر عن الفتنة بين الطرفين أيام المستنصر . و قد تغلبت رياح على زغبة و دفتها نحو المغرب الأوسط. و أثناء حديثه عنهم يقول ابن خلدون:«و أقطعتهم الدولة الكثير من نواحي المغرب الأوسط و أمصاره في سبيل الإستظهار بهم»[302].

301 ن م، 48 ،VI

302 ن م، 8 ،7،VI

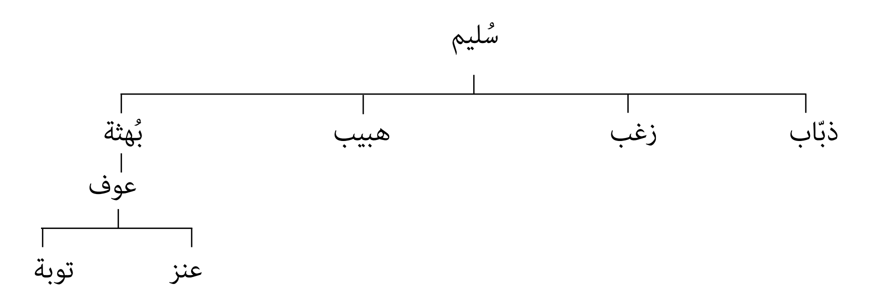
- المعقل:



و هـم أضعـف بطـون بنـي هـلال و قـد اسـتقروا قبلـة تلمسـان. و لم يكـن لهـم دور يذكـر في العهـد الحفـصي.

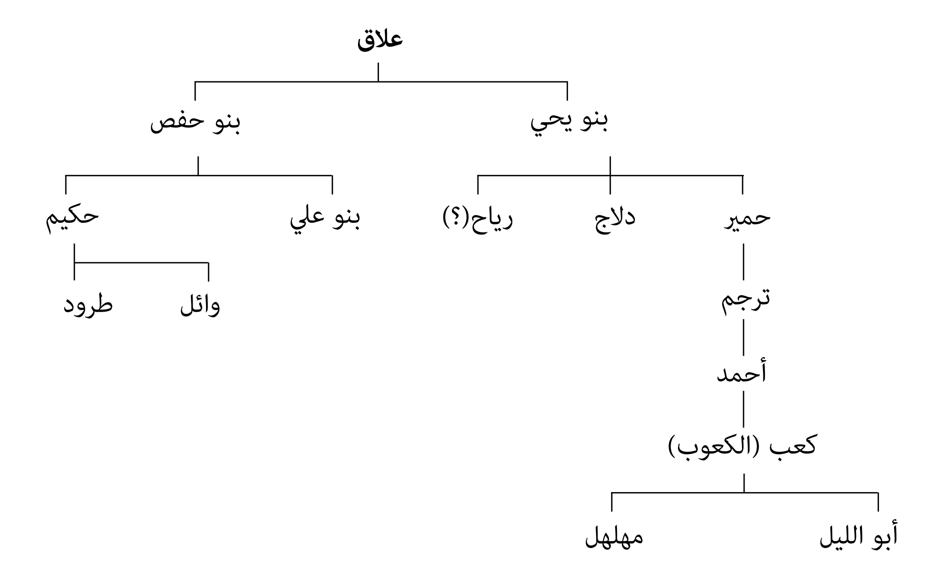
بصفــة عامــة يمكــن القــول أن ريــاح مثلــت أهــم مجموعــة هلاليـة أثنـاء العهـد الحفـصي و بمـا أنهـا كانـت قـد دفعـت نحـو الغـرب بقيـة إخوانها مـن هـلال (الأثبـج+ زغبـة) فإنهـا كانـت تسـيطر وحدهـا عـلى إفريقيـة مـع بدايـة اسـتقرار الحفصيـين وهو مـا جعلهـا في مواجهة مبـاشرة مـع الحفصيـين (القادمـين مـن المغـرب الأقـصى) الذيـن كانـوا مضطريـن للتحالـف مـع قبائـل سـليم التـي كانـت حتـى ذلـك العهـد لم تتجـاوز قابـس شـمالا. لكـن مـع بدايـة العهـد الحفـصي شرعـوا في تقدمهـم نحـو الشـمال و الغـرب.

ب- بنو سليم:



مـن بـين المجموعـات المنتميـة لسـليم و التـي يمكـن إثبـات وجودهـا بإفريقيـة: دبّـاب (دبـاب فيـما بعـد) و عـوف مـن بهثـة.

و ان استقرت بطون دباب فيما بين قابس و طرابلس فإن أبناء عوف من مرداس و علاق قد دخلت إفريقية في عهد أبي زكرياء يحي الحفصي الذي أخرج رياح عنها و استقدم هذه المجموعات من بني سليم و خاصة من بني علاق الذين سيطروا بصفة مطلقة على إفريقية. و في هذا الصدد يقول ابن خلدون:« و انبسطت أيدي العرب على الضاحية و أقطعتهم ا لدولة حتى الأمصار و ألقاب الجباية و مختص الملك و ما زالوا يغالبون الدولة حتى غلبوا على الضاحية و قاسموهم في جبايات الأمصار بالإقطاع ريفا و صحراء وتلولا و جريدا...»[303].



أما بالنسبة لإنتشارهم و أماكن استقرارهم فإننا نملك وثيقة هامة ترجع إلى بداية القرن الثامن هجري/الرابع عشر ميلادي (706هـ/1306هـ). و هي رحلة التجاني و قد كتبها صاحبها أبو محمد عبد الله بن محمد بن أحمد التجاني الذي كان من خواص أبي يحي

[303] ن م، VI،156

زكرياء (ابن اللحياني) و صاحبه أثناء تنقله بمحلته داخل السلطنة من سنة 706 هـ /1306م). إلى سنة 708 هـ/ 1308م. و أثناء وصفه لهذه الرحلة كان التجاني كلما مر بموضع يذكر لنا المجموعة التي تقطنه و بذلك ترك لنا شهادة حيّة عن أماكن استقرار العديد من المجموعات البدوية وهي كلها في تلك الفترة من بني سليم. و من خلال هذا الوصف يتضح توزيع هذه القبائل كما يلي:

أ- **بنو عوف:**

- بالوطن القبلي: دلاج
- بالساحل: حكيم و طرود
- بجهة صفاقس: حصن
- حول توزر: مرداس

ب- **الدبابيون: (بنو ذبّاب)**

- بجهة قابس النوائل
- غربي قابس نحو نفزاوة: بنو يزيد و بنو أحمد
- من قابس إلى طرابلس: نجد الوشاحيين (بني وشاح)

و يعترضنا المحاميد ثم الجواري.

- و في جهات طرابلس: نجد: أولاد سهيل (من العمور من بني وشاح) ثم الجواوبة كذلك نجد أولاد سنان (وهم إخوة الوشاحيين).

و بما أن رحلة التجاني قد اتبعت المسلك الساحلي فإنه لم يذكر لنا أسماء القبائل المنتشرة داخل البلاد و نحن نعرف من خلال

المصادر الأخرى و أساسا ابن خلدون وهو متأخر نسبيا (بالنسبة للتجاني) أن أهم القبائل و أقواها في تلك الفترة هم الكعوب (المنحدرون من كعب بن أحمد بن ترجم بن حمير بن يحي بن علاق بن عون بن بهثة) و حسب قول ابن خلدون: «استظهر بهم السلطان على شأنه و أنزلهم بساح القيروان و أجزل لهم الصلات والعوائد و زاحموا الدواودة من رياح... و أثبتهم في ديوان العطاء...»[304]. و انتشر الكعوب في المناطق الممتدة من سهول الفحص و باجة إلى القيروان. و أشهر بطونهم أولاد أبي الليل و أولاد مهلهل.

2- الحركية و الفتنة الدائمة:

إن الظاهرة الرئيسية التي ميزت هذه القبائل منذ قدومها إلى إفريقية هي عدم الاستقرار (و البداوة بطبعها ضدّ الاستقرار:la sédentarisation). و يمكن القول أن هذه الوضعية هي ناتجة عن الاضطرار لا عن الاختيار، فانعدام التوازن بين العنصر الطبيعي والعنصر البشري و بين النشاط الزراعي و النشاط الرعوي و بين المدينة و الريف و بين مفهوم الدولة (المركزة) و مفهوم الاستقلالية منعت كلها إفريقية في تلك الفترة من استيعاب العناصر الوافدة عليها في ظروف صعبة على جميع المستويات. و نتيجة ذلك أصبحت إفريقية تعيش حالة لا سلم مستمرة إذ أن فترات الهدوء و الاستقرار على المستوى الاجتماعي و السياسي هي استثناء في إطار وضعية اضطراب أو فتنة دائمة مثلت القاعدة لعدة قرون.

[304] ن م، VI، 146

أ- الحركية الجغرافية و الاجتماعية:

لقـد تحدثنـا آنفـا عـن الحركيـة الجغرافيـة الناتجـة عـن الصراعـات السياسـية و العسـكرية و عـن تغـير التحالفـات حيـث أنـه كلـما تـمّ دفـع قبيلـة نحـو الغـرب إلا و تـم مـلء الفـراغ الـذي تركتـه بقبيلـة قادمـة مـن الـشرق مثلـما وقـع لريـاح و بعـض بطـون هـلال التـي تركـت إفريقيـة لقبائـل سـليم التـي مـلأت الفـراغ الموجـود إثـر تحالفهـا مـع الموحديـن و مـع بنـي حفـص. و أحيانـا يكـون اسـتقدام هـذه القبائـل بـإرادة مـن السـلطان نفسـه. و عنـد حديثـه عـن الكعـوب قـال ابـن خلـدون:« أنزلهـم السـلطان بسـاح القـيروان...».

إضافـة لهـذه الحركيـة الجغرافيـة الدائمـة هنالـك حركيـة اجتماعيـة شـملت المجموعـات و الأفـراد عـلى السـواء. فالعديـد مـن القبائـل حبّـذت الاسـتقرار و تغيـير نمـط عيشـها و أنشـطتها مثـل: أولاد عطيـة مـن دريـد الذيـن: «عجـزوا عـن رحلـة القفـر و تركـوا الإبـل واتخـذوا الشـاة و البقـر و صـاروا في عـداد القبائـل الغارمـة...» و غيرهـم كثـير. أمـا البعـض فقـد أضعفتهـم الفـتن مـما جعـل السـلطان أو بعـض القبائـل القويـة الأخـرى يضعـون عليهـم الأتـاوات (الضرائـب). «وأصاروهـم خـولا و رعيـة...» و عـلى مسـتوى الأفـراد نلاحـظ أن بعـض المـدن قـد اسـتقطبت أشـخاصا كانـوا يعيشـون مـع قبائلهـم فتخلـوا عـن حياتهـم الأولى محبذيـن الحضـارة عـلى البـداوة و قـد اهتمـت كتـب الطبقـات (مثـل كتـاب معـالم الإيمـان لإبـن ناجـي) بالبعـض منهـم و هـم الذيـن أصبـح لهـم دور دينـي بـارز في إطـار حركـة الزوايـا التـي انتـشرت في تلـك الفـترة. و مـن بـين هـؤلاء يمكـن أن نذكـر[305]:

- أبو رحمة غيث بن قاسم الحكيمي المتعبد (من حكيم)
- صولة بن خليفة الليلي (من أولاد أبي الليل)

---

305 ابن ناجي، **معالم الإيمان** الجزء الرابع، تونس 1978، ص 34، 104 ، 148

- زيد بن عبد الرحمان الكعبي (من الكعوب)
- ميمون بن زيد الكرفاح الوائلي (من بني وائل)

كذلك من بين مظاهر الحركية ظهور أشكال علاقات تتجاوز القبيلة من ذلك علاقات التصاهر التي تتحول من مظهر من مظاهر التحالف إلى شكل من الارتقاء الاجتماعي و إن كانت أمّهات أغلب سلاطين بني حفص من العلجيات فإن أمّهات بعضهم من قبائل بدوية مثل: ظبية أم السلطان أبا حفص عمر. و جوهرة أم السلطان أبا فارس عبد العزيز وهي من المحاميد عرب طرابلس.

ب-الفتنة الدائمة:

قبل الحديث عن هذه الفتنة الدائمة التي عرفتها إفريقية لعدة قرون و كانت القبائل البدوية هي الحطب الذي جعل النار الفتنة لا تخمد قط لا بد من الملاحظة أن هذا القبائل لم تكن تطلب السلطة. و عكس فكرة ابن خلدون القائلة بأن: غاية العصبية: الملك. فإنه في هذه الفترة تمّ تهميش هذه القبائل و تحول مدار الصراع من البحث عن السلطة إلى: الصراع من أجل البقاء أو من أجل الامتيازات و الكثير من القبائل تذهب ضحية ولائها لهذا الطرف أو ذاك دون أن تجني شيئا من الصراع في إطار معادلة يحكمها قانون « البقاء للأصلح». فالضعيف يتراجع و يندثر و القوي يجني ثمار قوته آنيا في انتظار مرحلة لاحقة من الضعف و التشرذم و الاندثار هذا يفسر لنا تعاقب سيطرة القبائل البدوية (من هلال و سليم) على إفريقية طيلة عدة قرون. ففي البداية كانت إفريقية بأكملها تحت سيطرة قبائل رياح الهلالية و خاصة منهم الذواودة و ما الموحدون (و الحفصيون) بالنسبة إليهم سوى غزاة قادمون من الغرب و قد تحالفت بطون رياح مع ابن غانية ضد الموحدين و في المقابل تحالف الموحدون مع بني سليم (مرداس+علاق) و انتهى الصراع بانتصار الموحدين وحلفائهم

الذيـن طـردوا ريـاح نحـو الغـرب و اسـتقروا بإفريقيـة عوضهـم. و منـذ بدايـة القـرن 7هــ/13م تـم افتتـاح مرحلـة جديـدة امتـازت بمسـاندة: الكعـوب مـن سـليم للسـلطة و معارضـة الـدواودة (مـن ريـاح) وهـي معادلـة اسـتمرت حتـى نهايـة القـرن 7هــ/13م.

أمـا مـع بدايـة القـرن 8هــ/14م فقـد انقسـم الكعـوب على أنفسـهم و ظهـر نتيجـة ذلـك فريقـان قويـان : أولاد أبي الليـل و أولاد مهلهـل. وقـد تغـيرت التحالفـات بـين القبائـل و السـلاطين الحفصيـين عـدة مـرات نتيجـة الصراعـات بـين الأمـراء الحفصيـين أنفسـهم و يتحـدّد موقـع كلّ قبيلـة حسـب ولائهـا لهـذا الطـرف أو ذاك فأحيانـا نجـد أولاد أبي الليـل مـع السـلطان الشرعـي و أولاد مهلهـل مـع الأمـير الثائـر و أحيانـا نجـد العكـس. و أثنـاء القـرن 9هــ/15م بـدأت تظهـر مجموعـات جديدة مثـل: أولاد مسـكين و أولاد يعقـوب و الشـنانفة المنحدريـن مـن أولاد مهلهـل. و كذلـك الحنانشـة و قرفـة المنحدريـن مـن الـذواودة... و في كل مـرة تتغـير التحالفـات حسـب تـوزع المصالـح و المنافـع و اقتسـامها بـين السـلطان و هـذا الطـرف أو ذاك. و يمكـن أن نلخـص هـذه المتغـيرات في الجـدول التـالي:

السنة أو الفترة	مع السلطان	ضد السلطان
بداية القرن 7هـ/13م	مرداس+علاق (من سليم)	الذواودة (=رياح من هلال)
628هـ	علاق	الذواودة+مرداس
639هـ	علاق+ مرداس+رياح	(ضدّ يغمر ابن صاحب تلمسان)
648هـ		الذواودة
651هـ		الذواودة (مع الأمير أبي إسحاق)
664هـ		الذواودة
666هـ	الكعوب (من علاق)	
681هـ	الكعوب	دباب (مع الدعى)
683هـ	الكعوب : أولاد أبي الليل	دباب (مع الدعى)
683هـ	الكعوب : أولاد أبي الليل	الذواودة (مع الأمير أبي زكرياء)
685هـ	الكعوب : أولاد أبي الليل	دباب (مع الأمير أبي زكرياء)

687هـ	الكعوب : أولاد أبي الليل	دباب (الجواري+ المحاميد) مع زكرياء
بداية من 705هـ		الكعوب: أولاد أبو الليل
709هـ	الكعوب : أولاد مهلهل	الكعوب: أولاد أبو الليل
711هـ	أولاد أبي الليل	أولاد مهلهل
717هـ	حمزة ابن أبي الليل	عمر ابن أبي الليل
717هـ	الجواري	أولاد أبو الليل
725هـ	أولاد أبي الليل	الذواودة
728هـ	أولاد أبي الليل	
730هـ	أولاد أبي الليل	أولاد مهلهل
732هـ	أولاد أبي الليل	دباب
744هـ		سحيم (من بني سليم)
747هـ		أولاد أبي الليل
748هـ	أولاد مهلهل	أولاد أبي الليل
751هـ	أولاد أبي الليل	أولاد مهلهل
755هـ		أولاد مهلهل
767هـ	الكعوب	الذواودة
770هـ	الذواودة	أولاد أبي الليل
777هـ	أولاد مهلهل+حكيم	أولاد أبي الليل
782هـ	أولاد أبي الليل	رياح+مرداس
783هـ	أولاد أبي الليل	أولاد مهلهل
786هـ	دباب	الذواودة
794هـ		أولاد أبي الليل
810هـ		حكيم
811هـ		حكيم
833هـ		الذواودة
838هـ		حكيم
839هـ		أولاد أبي الليل
840		بني سيلين
842هـ		بني سيلين
846هـ		بني سيلين
867هـ		أولاد مسكين+ أولاد يعقوب+ الشنانفة
869هـ	الذواودة	

III- المجتمع البدوي و دوره في الحياة الاقتصاديّة و السياسيّة:

أ- دور البدو في الحياة الاقتصاديّة:

ساد الاعتقاد لمدة طويلة أن النشاط الوحيد للقبائل البدوية هو العمل العسكري (الارتزاق) لكن رغم أهميّة هذا النشاط فإن جموع البدو كانت لهم مشاركة هامة في الحياة الاقتصادية على جميع المستويات الإنتاج و التبادل و الاستهلاك.

- الإنتاج:

تمثل نشاط البدو الرئيسي في تربية الماشية و أساسا الإبل لكن البعض من القبائل اتجه إلى تربية الغنم و البقر، و قد ارتبط ذلك بحالة نصف بداوة(semi-nomadisme) عرفتها هذه القبائل. و قد ذكر زائر أوروبي دخل البلاد في أوائل القرن 10هـ/16م أن «هؤلاء العرب أغنياء في مجملهم كثير منهم من لديه 300 أو 1500 جمل، يستخدمون هذه الإبل لنقل العديد من المواد أو لخدمة الأرض أو للاستهلاك...»[306].

و إضافة لتربية الماشية حاول البعض استغلال الأرض و لو بصفة غير مباشرة أو موسميّة و في معالم الإيمان يذكر لنا ابن ناجي ما يلي:« كان شيوخ رياح ينزلون منزلتهم على بلد الحضرميين ونحوها من عمالة القيروان و لهم بها بلاد و هناشر يأخذون أحكارها و أعشارها بأمر السلطان...»[307] و كانت هذه الحالات نادرة و لا تهمّ سوى شيوخ القبائل و استغلالهم للأرض اقتصر على الحصول على

---

[306] بيدرو مارتيناز مونتانيز، مخطوطات المكتبة الوطنية بمدريد المتعلقة بالعلاقات بين إسبانيا و تونس خلال القرن السادس عشر، **الكراسات التونسية** عدد -70-69 1970، ص 125

[307] **معالم الإيمان**، 118 ،IV

ربع معين في شكل ضرائب مفروضة على المستغلين المباشرين. وكان السلطان عادة هو الذي يقطع هذه الأراضي للقبائل. و يذكر لنا الشمّاع أن شيخ الموحدين ابن تافراجين قال لأشياخ بعض القبائل الحليفة للسلطان:» أنتم لا بدّ لكم من وكيل ينوب عنكم في مجابي بلادكم فانظروا ما تبلغ حاجتكم في كلّ عام فأنا أوفيها لكم...»[308].

و أكثر من ذلك تدخلت بعض القبائل بحكم قوّتها و حاجة السلطان إليها في بعض الأنشطة و القطاعات السلطانية (التي يهيمن عليها السلطان) و أثناء حديثه عن أبي العباس الفضل قال ابن أبي دينار: «شاركته العرب في الديوان و رحبة الطعام (الحبوب) والماشية...»[309]. هكذا يمكن القول أنّ هذه القبائل كانت تسيطر على جزء كبير من الثروة: مواشي، ربع، ضرائب... وهو ما سينعكس على دورها في التبادل و الاستهلاك أيضا.

- التبادل و الاستهلاك:

مهما توترت العلاقات بين البدو و الحضر أو بين البدو والفلاحين المستقرين فإن كل طرف منهم في حاجة لمنتوجات الآخر و كان أهل البادية يستهلكون بعض مصنوعات المدينة مثل: الأسلحة و الأخفاف والرواحي و يذكر الوزير السراج أن ابن ناجي :« أفتى بتحريم مبايعتهم السلاح حتى الأخفاف و الرواحي...»[310]. و في المقابل كان السكان الحضر في حاجة للماشية و للصوف. و حتى الحبوب التي لا دخل للبدو في إنتاجها فإنها لا تصل المدينة إلاّ بفضل بعض

---

[308] الشماع (أبو عبدالله محمد) **الأدلة البينة النورانية في مفاخر الدولة الحفصية،** تونس، 1984، 102.

[309] ابن أبي دينار ، **المؤنس في أخبار إفريقية و تونس،** تونس 1967، 148

[310] السراج، **الحلل السندسية في الأخبار التونسية ،** بيروت 1981، ج I، 1059

القبائل البدوية التي جندت نفسها لخفارة (حماية) القوافل بالمقابل طبعا. و مثلت هذه الخفارة نشاطا موازيا للمبادلات و حاميا لها وموردا ماليا لبعض القبائل.

و بصفة عامة اتخذت هذه المبادلات التي كان البدو يمثلون طرفا أساسيا فيها شكلين رئيسيين: المبادلات البعيدة المدى بين الواحات و التل و المبادلات المباشرة بين المدن و البوادي المحيطة بها.

فيما يخص النوع الأول أي المبادلات بين الواحات و التل تجدر الملاحظة أن البدو وحدهم كانوا قادرين على القيام بها لا لشيء سوى أنهم كانوا يسيطرون على وسيلة النقل الأساسيّة أي الإبل. فالمواد المتبادلة هي التمور التي يقع نقلها من الجنوب نحو الشمال و الحبوب التي يقع نقلها في الاتجاه المعاكس و هذه المواد الثقيلة الوزن لا يقدر سوى الجمل على حملها مسافات طويلة لذلك سيطرت القبائل البدوية سيطرة كلية على هذا النوع من المبادلات الذي ارتبط أيضا ببداية استقرار البعض منها مدة أطول في هذه المنطقة أو تلك و كذلك بالاهتمام أكثر بتربية الغنم و ما يتبعها من رحلتي الشتاء (نحو الصحراء) و الصيف (نحو التل)...

أما النوع الثاني من المبادلات فهو يتجاوز المواسم و يتبع نسقا سريعا بحكم قرب المسافات فهو إما يومي أو على الأقل أسبوعي (حيث تكون المدينة ملتقى للأعراب المجاورين لها).

و النسبة الكبيرة من المبادلات تتم حسب هذه الطريقة التي تعبر في الوقت نفسه عن التكامل بين العالمين المتولد عن الحاجة المتبادلة و عن التناقض و العداء بينهما. ففي الوقت الذي غلبت فيه ماشية البدو على أسواق المدن كان الفقهاء يفتون بعد جواز الشراء من الأعراب بإعتبار أن منتوج هؤلاء يمكن أن يكون حصل لهم نتيجة الغصب

و بالطبـع لا يمكـن لفتـاوى الفقهـاء أن تمنـع المدينـة مـن شراء منتـوج البـدو (ربّمـا بأثمـان بخسـة) و في المقابـل تمكنهـم مـن مصنوعاتهـا بثمـن ربمـا كان أرفـع...

أخـيرا لا بـدّ مـن الملاحظـة أن القبائـل البدويـة لم تسـتفد مـن سـيطرتها عـلى وسـيلة النقـل البريـة الأساسـية «الجمل» و لا من سـيطرتها عـلى مسـالك التجـارة الداخليـة (سـواء مـن بـاب التجـارة أو الخفـارة) لـكي يطـوّروا التجـارة الصحراويـة التـي كانـت منـذ قـرون سـببا مـن أسـباب ازدهـار دويـلات بـلاد المغـرب و السـبب في ذلـك أن تلـك الفـترة عرفـت تحـوّلا هامّـا تمثـل في بـروز التجـارة البحريـة و كان المسـتفيد منهـا طرفـان فقـط: السـلطان بإفريقيـة و الأروبيـون مـن خـارج البـلاد بحكـم سـيطرتهم عـلى وسـائل النقـل البحـري.

ب- دور البدو في الحياة السياسية:

اعتـبر ابـن خلـدون أن: الملـك هـو غايـة للعصبيـة و الحضـارة غايـة للبـداوة». كـما أنـه ربـط تكـون الدولـة نتيجـة التقـاء العصبيـة القبليـة بالدعـوة الدينيـة و هـذا التصـور و إن كان ينطبـق عـلى الأشـكال السياسـية و الدويـلات التـي ظهـرت حتـى انتصـاب الفاطميـن وامتدادهـم بإفريقيّـة الزيريـن فإنّـه سـيختفي فيـما بعـد. فالعصبيـات القبليّـة المرتبطـة بالهلاليـن و التـي أصبحـت تسـيطر عـلى الأوضـاع بإفريقيّـة لم تعـد غايتهـا الملـك. و لا كانـت هـذه القبائـل تحبـذ الإسـتقرار و بنـاء المـدن. و السـبب الرئيـسي في ذلـك هـو أن النشـاط الوحيـد الـذي كان قـادرا عـلى اسـتيعاب هـذه الجمـوع و جعلهـا تنصهـر في الواقـع المحـلي هو»النشـاط العسـكري» لكـن ذلـك لم يمنـع هـذه القبائـل مـن كونهـا أصبحـت تمثـل عنـصرا هامـا مـن الآلـة السياسـية المسـيرة للبـلاد وأصبحـت تمثـل إحـدى مكونـات الواقـع السـياسي فالملـك

حسب التحليل الخلدوني ينبني على أساسين : الشوكة (أي العصبية أو الجند) و المال. و قد وفّر الهلاليون الأساس الأول و لكنهم و إن استفادوا من السلطة فإنهم لم يتسلموها بصفة مباشرة.

و منذ بداية العهد الحفصي شاركت القبائل البدوية في جند السلطان الذي قال عنه ابن فضل الله العمري:«و عدّة العسكر لعلّها لا تبلغ عشرة آلاف فارس، و أمّا العرب أهل البادية فعددهم جمّ و لهم إقطاعات كثيرة و شوكتهم قويّة...»[311]. أما الرحالة الأوروبي آدورن الذي زار البلاد أثناء القرن 9هـ/15م فهو يعطينا رقما عن عدد أفراد البدو الذين يستعملهم السلطان:«ويستعمل السلطان ثمانية أو تسعة آلاف عربي (بمعنى بدوي) يجازيهم بكرم. و هم رجال شجعان ومحاربين ممتازين...»[312]. و في الحقيقة لم يمثل هؤلاء جندا نظاميا قارّا بل كانوا عبارة عن فرق رديفة تمثل قبائل بأكملها ويستعملها السلطان وقت الحاجة مقابل منحهم امتيازات هامة و حسب ابن خلدون:«... انبسطت أيدي العرب على الضاحية وأقطعتهم الدولة حتى الأمصار و ألقاب الجباية و مختصّ الملك و ما زالوا يغالبون الدولة حتى غلبوا على الضاحية، قاسموهم في جبايات الأمصار بالإقطاع...»[313].

هذه العلاقة بين البدو و السلطان بقدر ما سمحت بالحفاظ على استقرار الحكم في يد الحفصيين فهي قد ساهمت في إضعافها (سلطة= رهينة مراكز النفوذ البدوية). و نتيجة التحالفات و التحالفات المضادة أصبحت الحرب تمثل داخليا

---

311 ابن فضل الله العمري، **قطعة من مسالك الأبصار**، نشر و تعليق ح ح عبد الوهاب، تونس، د ت -36

312 Brunshvig, *Deux récits de voyage inédits en Afrique du nord auXVème s.* , Edit. Larose, Paris 1936, p.115

313 **العبر**، VI، 156

النشــاط الأســاسي. و الحاكــم أو الدولــة يســتمدان شرعيتهــما مــن تواصـل هـذا النشـاط و بالتـالي أصبحـت البـلاد تعيـش حالة«الحـرب المزمنــة». فقــد كان لتعاطــي القبائــل البدويــة للإرتــزاق العســكري كنشـاط رئيـسي و ارتبـاط جـزء منهـا بالسـلطة المركزيـة دور في جعـل الحـرب تتخـذ شـكلا لا متناهيـا ففـي كل فـترة أو مرحلـة و مـع كل تغيـير في أعـلى هـرم السـلطة نلاحـظ اقتسـام الأدوار بـين مجموعـات محالفــة للســلطة و أخــرى ضدهــا و كان العامــل المحــرك لهــذه الطاقـات القتاليـة المتناحـرة هـو الحصـول عـلى الإمتيـازات الماديـة بدرجـة أولى فالمجموعـات الحليفـة للسـلطة لا تدفـع ضرائـب بـل إنهـا تفـرض ضرائـب لصالحهـا. و ذكـر عبداللـه الترجـمان صاحـب تحفـة الأريــب:« و كان عــرب إفريقيــة يحــاصرون المدائــن و يشــاركون في مجابيهـا قهـرا...»[314]. و هكـذا أصبحـت هـذه القبائـل تقتسـم السـلطة مـع أصحابهـا الشرعيـين. لذلـك بقيـت السـلطة ضعيفـة لأن مداخيـل الدولـة أصبحـت موزعـة مـن خـلال إقطـاع المجـابي (الضرائـب) للقبائـل الحليفـة أو مـن خـلال الأرزاق الموزعـة عليهـا...

[314] عبدالله الترجمان، **تحفة الأريب في الرد على أهل الصليب**، القاهرة 1904، ص 17

خاتمة:

نلاحظ من خلال ما سبق تبادل توزيع الأدوار بين قبائل المخزن و القبائل الأخرى المناهضة. و تغير الأدوار من مرحلة إلى أخرى يجعلنا نتحدث عن مجتمع انقسامي (société segmentaire وهو مجتمع يتميز بـ[315]:

- ضعف تقسيم العمل
- سيطرة الأشكال الجماعية للملكية (خاصة الأراضي أو ريعها)
- تمركز الحياة الاجتماعية حول العلاقات العائلية (العصبية القبلية)
- قوّة الوعي الجماعي و اعتناق الجميع لمنظومة قيم موحدة.

و من جهة أخرى تعتبر القبيلة أهم وحدة اجتماعية-سياسية. فهي أوسع مجموعة يشعر أعضاؤها بواجب التكتل من أجل الغزو و الدفاع. و موقع القبيلة في إطار النظام السياسي يتحدد إنطلاقا من التوازن بين نزعتي الإنشطار و الإنصهار في نفس الوقت و هما نزعتان متناقضتان متكاملتان:

(الإنشطار= تعارض القسمات الإجتماعية فيما بينها)

الإنصهار = تحالف هذه القسمات كلما ظهر خطر خارجي).

---

[315] اعتمدنا بالنسبة لمسألة الإنقسامية على الإستنتاجات المفيدة التي قدمتها ليليا بن سالم في مقالها: التحليل الإنقسامي لمجتمعات المغرب الكبير : حصيلة و تقييم. ضمن كتاب **الأنتروبولوجيا و التاريخ، حالة المغرب العربي**، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء 1988، ص 42-11

و يتحـدد السـلوك حسـب هاتـين النزعتـين في مختلف المسـتويات حســب نوعيــة الــصراع و أطرافــه = و بذلــك يصبــح تــوزع مســتويات التعـارض و ترتيبهـا هـو الـذي يتحكـم في السـير العـام للنظـام القبـلي ويحـدد مـن جهـة أخـرى موقـع و علاقـة القبيلـة مـع السـلطة المركزيـة.

هــذا الســلوك الإنقســامي يفــسر لنــا كيــف أن بعــض القبائــل كانـت في فـترة معينـة مـع السـلطة ثـم أصبحـت فيـما بعـد ضدهـا حتـى أننـا في بعـض الفـترات نجـد بطونـا مـن نفـس القبيلـة مثـل أولاد أبي الليـل و أولاد مهلهـل المنتميتـان للكعـوب تتصـارع فيـما بينهـا بحكـم موقـع كل منهـا مـن السـلطة السياسـية (مـع السـلطان أو ضـدّه).

هــذه الظاهــرة اســتفاد منهــا الســلطان الــذي لم يعــد مرتبطــا بعصبيــة واحــدة. و قــد تمكــن الحفصيــون مــن الإســتنزاف التدريجــي لهـذه الطاقـات القتاليـة (القبائـل). و العصبيـة التـي تضعـف و تصبـح غـير قـادرة عـلى توفـير ركيـزة السـلطة الأولى(الشـوكة) يتـم تعويضهـا بعصبيـة التـي تضعـف و تصبـح غـير قـادرة عـلى توفـير ركيـزة السـلطة الأولى(الشـوكة) يتـم تعويضهـا بعصبيـة أقـوى منهـا.

و هكــذا يمكــن أن نجيــب عــلى تســاؤلنا لمــاذا دامــت الدولــة الحفصيــة ثلاثــة قــرون و نصــف. لأننــا في زمــن ابــن خلــدون نفســه تجاوزنـا شـكل الدولـة العصبويـة (الدولـة الخلدونيـة المرتبطـة بعصبيـة مؤسسـة: و عمرهـا ثلاثـة أجيـال=120 سـنة) إلى الدولـة السـلطانية أي دولـة السـلطان التـي تمكّنـت بفضـل تحكـم ذكي في أطـراف المجتمـع الثلاثة:السـلطة-المجتمع الحضري-المجتمـع البـدوي. مـن التسـامي عـلى المجتمـع و السـيطرة عليـه.

قبائل رياح: من النيل إلى الأطلسي

تعتبر قبائل رياح أولى القبائل التي دخلت افريقية في منتصف القرن الخامس هجري أثناء الهجرة الهلالية التي تلت القطيعة بين الأمراء الزيريين بالقيروان و الخلافة الفاطمية بالقاهرة. و يفيدنا ابن خلدون بأن :« أول من وصل افريقية أمير رياح مؤنس بن يحي الصنبري»[316] و بلغت بعض المصادر إلى حد اتهامهم دون غيرهم بإفساد افريقية من ذلك ما قاله ابن حزم: « و منبطون بني هلال بنو رياح الذين أفسدوا افريقية» [317] و انطلاقا من هذا المعطى المتمثل في كونهم الأوائل الذين دخلوا افريقية فإنهم بحكم حركية القبائل المتواصلة من الشرق نحو الغرب و نتيجة الضغط المتجدد والمتواصل شرقا كانوا مؤهلين أكثر من غيرهم و قبل غيرهم للتقدم غربا رغم أن العديد من المجموعات منهم كانت قد استقرت في مناطق حضرية أو حولها مثل: قابس و سوسة و المعلقة و القيروان.

بماذا نفسر انزياح نحو الغرب و ترك المجال لسليم ؟ما هي الظروف التي أحاطت بتغريبتهم؟ و ما هي الأدوار التي أنيطت بعهدة هؤلاء في مجالات استقرارهم الجديدة؟

للإجابة على كل هذه الأسئلة كان يتعين علينا تجاوز مصادرنا التقليدية و البحث عن معلومات جديدة. و في محاولة التجديد هذه ركزت على جانب ظل لمدة طويلة مهمشا في البحث التاريخي

---

[316] ابن خلدون، **العبر**، بيروت، VI، 31

[317] ابن حزم، **جمهرة أنساب العرب**، القاهرة،275،1962

و هـو الشـعر. و السـؤال الـذي يطـرح نفسـه في هـذا المجـال هـو مـدى مصداقيـة الوثيقـة الشـعرية و كيفيـة الفصـل بـين الواقـع و الخيـال في الشـعر بصفـة عامـة.

إن مصدرنـا الأسـاسي في هـذا البحـث هـو كتـاب تاريـخ المـن بالإمامـة لابـن صاحـب الصـلاة[318] الـذي يـؤرخ للملحمـة الموحديـة و الـذي ضبـط لنا أهم فترات الصراع بينهم و بين الرياحيين.

وقـد تميـز هـذا الكتـاب بتوفـير وثائـق مـن «درجـة» أولى وهـي الرسـائل المتبادلـة بـين أطـراف السـلطة: الخليفـة الموحـدي و القيـادات العسـكرية. و كانـت هـذه الرسـائل التـي لا يمكـن التشـكيك في أصليتهـا مواكبـة لأغلـب التطـورات السياسـية و العسـكرية إضافـة لكونهـا تحتوي عـلى قصائـد تخلـد أهـم الأحـداث و المعـارك التي قادهـا الموحـدون و ما يعطـي صبغـة موضوعيـة للقصائـد المذكـورة هـو كونهـا مثلـت نوعـا من « الدعايـة السياسـية» ان لم نقـل الشـكل الأسـاسي للدعايـة للموحديـن و لحركتهـم سـواء في اتجـاه المغـرب الأدنى أو الأندلس(وهـو مـا يقابـل مـا تقـوم بـه الصحافـة و التلفزيـون اليـوم) فقـد جنـد الموحـدون عـدة شـعراء للتشـهير الايجـابي بـكل مـا حـدث قامـوا بـه. و في هـذه الحـالات لا يخفـي علينـا جانـب المبالغـات و جانـب المجامـلات و جانـب الدعايـة الرسـمية لكـن رغـم ذلـك تبقـى للمـؤرخ مـادة قابلـة للاسـتغلال تتمثـل في ضبـط الأحـداث و ضبـط الأسـماء و التوجـه العـام للسـلطة.

---

[318] ابـن صاحـب الصـلاة **تاريـخ المـن بالإمامة**،بغـداد1979،و العنـوان الكامـل للكتـاب هو:تاريـخ المـن بالإمامـة عـلى المسـتضعفين بـأن جعلهـم اللـه أئمـة و جعلهـم الوارثين(تحقيـق عبـد الهـادي التازي)أمـا المؤلـف فهـو عبـد الملـك بـن صاحـب الصلاة،أصلـه مـن باجـة الأندلـس كان قريبـا للبـلاط الموحـدي و قـد رافـق الخليفـة في حملتـه عـلى الأندلـس و قـد تـوفي حـوالي سـنة 578هــ/1182 أو بعدهـا بقليـل و قيمـة الكتـاب تكمـن في الرسـائل والأوامر الصـادرة عـن الخلفـاء الموحديـن أو منظـور يهـم المباشريـن و في القصائـد الشـعرية الهامـة والمعـاصرة للأحـداث و التـي لا نجـد لهـا أثـرا في المصـادر الأخـرى.

I – الهجرة نحو الغرب

كانـت هجـرة القبائـل الهلاليـة التـي انطلقـت في منتصف القـرن الخامس هـ/الحـادي عـشر م قـد تواصلـت مـدة طويلـة بعد ذلـك متجـاوزة القرن مـن الزمـن و خـلال هـذه المـدة الطويلـة كانـت المجموعـات الحديثـة القـدوم تضغـط شرقـا عـلى المجموعـات القديمـة الاسـتقرار دافعـة إياهـا أكـثر نحـو الغـرب في حركـة يمكـن اعتبارهـا تلقائيـة في أغلـب الأحيـان و هـو مـا سـمح في مرحلـة أولى مـن الانتشـار في المناطـق المتواجـدة مـا بـين طرابلـس و القـيروان و مـع بـروز دولـة الموحديـن و انتشـارهم في كامـل بـلاد المغـرب كان مـن الحتمـي وقـوع صـدام بينهـم و بـين الرياحيـين هـذا الـصراع حـول المجـال الإفريقـي أحـدث نقلـة نوعيـة في حركـة الهجـرة نحـو الغـرب التـي كان يغلـب عليهـا الطابـع التلقـائي فأصبحـت قسريـة تمليهـا انتصـارات و مصالـح الدولـة الموحديـة الناشـئة.

وإثـر معركـة سـطيف سـنة 555هـ/1160 م و التـي انتـصر فيهـا الموحـدون انتصـارا سـاحقا عـلى ريـاح يقـول ابـن خلـدون أنهـم « اتبعـوا أدبارهـم إلى فحـص سـبتة» [319] و الملفـت للانتبـاه هنـا أن حركـة الهـروب كانـت في اتجـاه الغـرب أي نفـس المـكان الـذي جـاء منـه الموحـدون. فالحـرب لم تكـن بـين دولتـين بـل بـين دولـة و مجموعـات غـير منظمـة فهـي إذن حـرب غـير متناظـرة و المهـزوم لم يرجـع إلى الـوراء حيـث لم يـترك نقطـة ارتـكاز أو انطـلاق بـل انسـاب مثـل المـاء نحـو المناطـق التـي تخضـع عمليـا و نظريـا للعـدو.

و قـد ترجـع عمليـة التهجـير إلى بدايـة الدولـة الموحديـة مـع عبـد المؤمن بـن عـلي الـذي ذكـر ابـن أبي زرع أنـه وادع أعـراب افريقيـة و«نقـل منهـم إلى المغـرب ألفـا مـن كل قبيلـة بعيالاتهـم و أبنائهـم...»[320]

---

[319] **العبر**،VI،44

[320] ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب بروض القرطاس**، الرباط، 1972، 199

و يـورد لنـا صاحـب « تاريـخ الدولتـين» روايـة ثانيـة مفادهـا أن عبـد المؤمـن «أحـضر أمـراء العـرب و أحلفهـم في مصحـف عثـمان بـن عفـان عـلى السـمع و الطاعـة و السـير معـه إلى الأندلـس لقتـال العـدو فلـما سـار نكثـوا أيمانهـم..»[321] كانـت الموجـة الأولى مـن الهجـرة نحـو الغـرب قـد تمـت بصفـة فعليـة في عهـد عبـد المؤمـن بـن عـلي (524هــ/1130م-558هــ/1163 م) و بالتحديـد اثـر فتـح المهديـة سـنة 555هــ/1160 م. أمـا الموجـة الثانيـة و ربمـا الأهـم فقـد تمـت في عهـد حفيـده أبي يوسـف يعقـوب المنصـور(580هــ/1184 م-595هــ/1199 م) و في هـذه المرحلة مـن الـصراع حـول المجـال في المغربـين الأدنى و الأوسـط دخـل عنـصر جديـد في المعادلـة بـين الموحديـن و الهلاليـين و هـو انتقـال الحـرب الموحديـة المرابطيـة إلى افريقيـة مـن خـلال ظهـور بنـي غانيـة عـلى المـسرح السـياسي و اسـتغلال القبائـل المهزومـة الفرصـة لتعلـن تمردهـا و تحالفهـا مـع القـوة الجديـدة التـي تريـد دحـر الموحديـن نحـو الغـرب لكـن لسـوء حظهـم انهزمـوا ثانيـة مـما دفـع الخليفـة الموحـدي المنصـور إلى تهجيرهـم بالقـوة نحـو الغـرب و في هـذا المجـال يقـول ابـن خلـدون:« راجعـت جشـم و ريـاح طاعتـه ولاذوا بدعوتـه فنفاهـم إلى المغـرب الأقـصى...»[322]

وقـع هـذا الترحيـل الإجبـاري في نفـس الوقـت الـذي كانـت فيـه قبائـل سـليم تنتظـر عـلى أبـواب افريقيـة مـا بـين برقـة و طرابلـس. و قـد خلـق هـذا التهجـير فراغـا كان مـن شـأنه جـذب قبائـل سـليم نحـو افريقيـة مـما جعـل ابـن خلـدون يقـول : « ثـم زاحموهـم (أي ريـاح) بنـو سـليم فسـاروا إلى الغـرب مـا بـين بونـة و قسـطنطينية إلى البحـر المحيـط...»[323]

---

[321] الزركشي،**تاريخ الدولتين**،تونس13،1966

[322] **العبر**،VI،46

[323] المصدر نفسه،II،643

جاءت هذه الموجة الثانية من التهجير القسري بعد معارك طاحنة و قعت بجنوب افريقية سنة 583هـ/1188 م حيث « غزا (يعقوب المنصور) العرب و قتل كثيرا منهم ...»[324] و تضيف المصادر أنه أمر بترحيلهم نحو بلاد المغرب الأقصى حيث :« نقل المنصور رياحا إلى الغرب...»[325] و كانوا تحت رئاسة مسعود بن سلطان فأنزلهم ببلاد الهبط مل بين قصور كتامة المعروف بالقصر الكبير إلى ساحل البحر الأخضر (المحيط)[326] حيث استقروا هناك حتى انقراض دولة الموحدين. و نجد بروض القرطاس رواية ثانية تختلف نسبيا عن رواية ابن خلدون جاعلة من هذه الحركة هجرة تلقائية تمت سنة 577هـ/1182 م حيث يقول ابن أبي زرع :« و في هذه السنة وفد على أمير المؤمنين(أبو يعقوب يوسف) بمراكش أبو سرحان مسعود بن سلطان الرياحي في جيش عظيم من وجوه رياح برسم الخدمة...»[327]و لا نستبعد هنا أن تكون هذه الحركة التلقائية مستقلة عن عملية التهجير التي جاءت بعد ذلك بست سنوات وكان الغرض منها تهدين الأوطان و نشر الاستقرار بعد حروب بني غانية. و تكون الهجرة بذلك قد عرفت مرحلتين: الأولى تلقائية في عهد أبي يعقوب يوسف و الثانية إجبارية في عهد يعقوب المنصور.

و عليه يمكن القول أن موجات الهجرة الرياحية قد تواصلت مع الخلفاء الموحدين الثلاثة الأوائل و امتدت على النصف الثاني من القرن السادس هـ/ الثني عشر م و قد بقيت جل مصادرنا قليلة الاهتمام بهذه الحركة و لا تفيدنا بما يمكن أن يعطينا فكرة واضحة عن أعداد هؤلاء و قوتهم و علاقتهم بالموحدين في أماكن استقرارهم الجديدة و الأدوار التي لعبوها لكن لحسن حظنا أن المكتبة المغربية

---

324 **تاريخ الدولتين**،16

325 **العبر**،VI،70

326 المصدر نفسه،،VI،70

327 **روض القرطاس**،212

قـد تركـت لنـا كتـاب « المـن بالإمامـة» لابـن صاحـب الصـلاة الـذي كان معـاصرا للأحـداث و هـو عبـارة عـن «مؤرخ بـلاط» لكنـه كان أمينـا في ما يرويـه و يقـترب مـن النزاهـة في حكمـه ناهيـك أنـه يكتـب للموحديـن ولم يسـلط شـتائمه عـلى سـلفهم المرابطـين.

و يحتـوي هـذا المصـدر عـلى رسـائل و قصائـد مرتبطـة مبـاشرة بالأحداث مـما يجعلنـا نقـترب أكـثر مـن الواقـع خاصـة أن الرسـائل الموحديـة التـي لا نجدهـا في أي أثـر آخـر والتـي يوردهـا مـتن كتابـه مضبوطـة ضبطـا تامـا مـن حيـث تاريخهـا و مـكان إرسـالها إضافـة لنقلهـا حرفيـا .فهـي عبـارة عـما نعرفـه اليـوم بوثائـق « الأرشـيف» (أو المحفوظـات)و مـن خـلال كل هـذا تتضـح أهميـة المصـدر المذكـور و المعلومـات الـواردة فيـه بخصـوص موضوعنـا.

II- رياح: من التمرد إلى الانصياع

يبـدو أن المقاومـة الوحيـدة التـي تعـرض لهـا الموحـدون أثنـاء دخولهـم افريقيـة كانـت مقاومـة الهلاليـين و أساسـا قبائـل ريـاح بزعامـة صاحـب المعلقـة « محـرز بـن زيـاد» الـذي وصفتـه رسـالة مؤرخـة بالثـاني لـذي الحجـة سـنة 554هــ/1159 م :«الخبيـث المخبـث جرثومـة الضلالـة والعنـاد، الكـذوب الطاعـة و الانقيـاد، المتسـمي بمحـرز بـن زيـاد »[328]. وتحتـل ريـاح المكانـة المركزيـة في كل القصائـد و الرسـائل الأولى التـي تـم تبادلهـا في فـترة فتـح المهديـة خاصـة بـين عبـد المؤمـن بـن عـلي و ابنـه الأمـير أبي يعقـوب. و نجـد في رد الأمـير يعقـوب عـلى رسـالة أبيـه عبـد المؤمـن قصيـدة نظمهـا أبـو العبـاس بـن سـيد المالقـي جـاء فيهـا:

هو الأمر أمر الله ليس له رد

يؤيد أيد ويسمو به جد

[328] ابن صاحب الصلاة،117

و هذي رياح ريحه عصفت بهم

فعادوا كعاد حين جللها الرمد[329]

و تحاول هذه الرسائل و القصائد التي تحتويها أن تصف الرياحيين بأنهم كفرة و عديمي الإيمان و بالتالي فان محاربتهم تصبح من باب الجهاد و قتلهم واجب و اندحارهم فتح وأورد لنا رسالة رد بها عبد المؤمن على ابنه الأمير أبي يعقوب صورة الفتح هذه مع إضافة التهديد لهؤلاء الأعراب المناهضين لهم و جعلهم أمام خيارين: إما الإيمان (التوحيد) و إما القتل: « و هذه الفتوح التي تفتحت لها السماء و أشرقت بأنوارها دياجير الظلماء إنما صلي بنيران سيوفها ودارت أرحية حتوفها على الرياحيين و من انضاف إليهم من الذين خلعوا من أعناقهم ربقة الإيمان...و أما سائر الأعراب فالرجاء فيهم متمكن و طريق إحدى الخطتين لهم متبين...ولا بد لهم من ركوب إحدى الطريقتين: فأما من ظلم نفسه و أما من آمن و عمل صالحا...»[330]

و تؤكد القصيدة التي تحتويها الرسالة هذا المنحى التكفيري و مما جاء فيها:

و طهرت الأفاق من كل كافر

فحصحص حق الله و استحكم العقد

و لما طغت جهلا رياح و صرصرت

دهتها بأمر الله داهية اد

329 نفس المصدر،121

330 نفس المصدر،127

و بعد نعتهم بالكفر و توعدهم يعود الشاعر ليمتدح البعض منهم و يحرضهم على غزو بلاد الروم:

أنابوا فما ردوا و تابوا فما ارتدوا

رأو في ذويهم عبرة فتيقظوا

و كان لهم في غي غيرهم رشد

ستغزو بلاد الروم منهم عصائب

و تحمي حمى التوحيد من خيلهم جند[331]

و يظهر واضحا أن عبد المؤمن بن علي لم يكد ينتصر على الرياحيين و يفتح المهدية حتى فكر في مصير أعدائه الذين أبدوا مقاومة شديدة وأبدوا قدرة على القتال جعلته يفكر في استعمالهم كدماء جديدة لمحاربة المسيحيين في الأندلس فهم لم يغادروا بعد افريقية وصاحب القصيدة يتحدث عن المستقبل: «ستغزو» و بالفعل لم يرجع عبد المؤمن إلى المغرب بجيوشه فقط بل كان مصحوبا بأعداء الأمس. ويصف ابن صاحب الصلاة ذلك قائلا إن عبد المؤمن بن علي قد:« استاق في أتباعه من العرب :بني رياح و بني جشم و بني عدي وقبائلهم ما يضيق به الفضا على عدد الذباب و عدد الحصى...»[332]

و يحق لنا أن نتساءل هل جاء هؤلاء مع عبد المؤمن طوعا أم مجبورين على ذلك ؟ يغلب على الظن أنهم كانوا في بداية الأمر مكرهين على ذلك و قد واصل الشعراء المادحون لعبد المؤمن وملحمته ذم هؤلاء حتى بعد عبورهم البحر مع عبد المؤمن نفسه في شهر ذي القعدة من عام 555هـ/ديسمبر 1160 م و مدحه في تلك

---

[331] نفس المصدر،127

[332] نفس المصدر ،136، نجد الفكرة ذاتها في الصفحة 174من نفس المصدر:» و هزم العرب واستاقهم»

المناسبة الشاعر أبو بكر بن المنخل الفهري بقصيدة جاء في أخرها :

فما أعطت العرب القيادة طواعة

ولا أسمحت ودا ولا أذعنت حبا

و لكن رأت شهب الهدى مستنيرة

فخافت رجوما من أسنته شهبا

رأوا بك دين الله كيف اعتزازه

و أنتم له حرب فكانوا له حربا[333]

و ربما حاول بعض الهلاليين القادمين مع عبد المؤمن التملص من الجهاد أو تباطؤا في ذلك و هو ما يظهر في قصيدة لأبي العباس أحمد بن سيد الاشبيلي (المعروف باللص):

و مضت على حد الحسام أعارب

نكثوا عهودا أبرمت في يعرب

لما حداهم للجهاد مشمر

ذهبوا من التأويل أخبث مذهب

فكأنما ألقى الكتاب إليهم

إن الجهاد عليهم لم يكتب

....

لم لا ؟ و ما ذكرت رياح يومها

إلا أراها الطفل مثل الأشيب[334]

---

[333] نفس المصدر،147-148

[334] نفس المصدر،164-165

و رغـم هـذا الموقـف العـدائي مـن الهلاليـين و خاصـة منهـم قبيلـة ريـاح التـي لم تخـل قصيـدة واحـدة مـن ذكرهـا و تذكيرهـا بالكفـر و الهزيمـة[335] فـان الـدور الـذي سـيلعبونه بالمغـرب الأقـصى و الأندلـس سـيجعلهم في موقـع قريـب مـن السـلطة و في موقـع المدافـع عـن الديـن خاصـة بعـد حشرهـم في الصفـوف الأولى لمقاومـة نصـارى الأندلـس الذيـن مـا انفكـوا يتقدمـون شـيئا فشـيئا عـلى حسـاب الحضـور العـربي الإسـلامي هنـاك. و قـد أعطـى الهلاليـون و خاصـة ريـاح منهـم نفسـا جديـدا و دمـاء جديـدة لجهـاد اللحظـة الأخـيرة الـذي قـاده الموحـدون ببسـالة و الـذي انتهـى بهزيمـة العقـاب سـنة 609هــ1212 م.

لقـد وقـف الموحـدون أمـام حركـة الاسـترداد المسـيحي أكـثر مـن نصـف قـرن و لا شـك أن الهلاليـين قـد لعبـوا دورا أساسـيا في هـذا الصمـود و في المشـاركة الفعليـة و الفاعلـة في الجهـاد ضـد أعـداء الديـن و كان ذلـك منـذ بدايـة ترحيلهـم مـع عبـد المؤمـن بـن عـلي إلى المغـرب سـنة 556هــ/1161 م و كان هـدف عبـد المؤمـن منـذ البدايـة:

« تألـف العـرب الذيـن جلبهـم لحمايـة رعيتـه و أن يكونـوا مـن جملـة أجنـاده و أعوانـه لمـا أملـه مـن غـزو الكفـر و كـسر صلبانـه....»[336]

---

[335] نفـس المصدر،انظـر مثـلا ص 157 مـن المصـدر المذكـور قصيـدة القـرشي القرطبـي المعروف بالطلي،

«صدرت بالعرب العرباء و انقلبت   عن الحسام رياح شر منقلب»

[336] نفس المصدر،169

III من الكفر إلى الجهاد

لـكي نحـدد دور ريـاح الحقيقـي و الفعـلي في المجـال المغـربي والأندلـس يجـب أن تكـون لدينـا فكـرة عـن أعدادهـم و حجمهـم عـلى الأقـل مقارنــة مــع المكونــات الأخــرى للجيــش الموحــدي. وأولى الإشــارات التـي تتحـدث عـن هـذا الحجـم مـا ذكـره ابـن صاحـب الصلاة مـن أن عددهـم عندمـا استاقهم عبـد المؤمـن بـن عـلي إلى المغـرب مـع بعـض المجموعـات الأخـرى « مـا يضيـق بـه الفضـا عـلى عـدد الذبـاب و عـدد الحـصى» [337] هـذا التعميـم لا يفيدنـا بـشيء سـوى بـأن العـدد كان هامـا و يـورد لنـا ابـن أبي زرع رقـما يمكـن أن يعطينـا فكـرة تقريبيـة عـن حجـم الموجـة الأولى مـن الترحيـل حـين أورد خـبرا مفـاده أن الخليفـة الموحـدي: نقـل منهـم إلى المغـرب ألفـا مـن كل قبيلـة [338]و كان أول ذكر لهـؤلاء العـرب المجاهديـن في طريـق الأندلـس 560هــ/1165 م أثنـاء حركـة السـيد الأعـلى أبي حفـص و مـن بـين المرافقـن لـه أثنـاء تجمـع الجنـود بجبـل الفتـح (جبـل طـارق) نجـد مـا عـبر عنـه ابـن صاحـب الصـلاة: « بعسـكر مختـار مـن أعيـان العـرب و أنجادهـم كعـلي بـن محـرز بـن زيـاد و إخوتـه المبادريـن للغـزو بالتكاثـر و الازديـاد ومـن قبيلـه و شـيعه رجالـه فرسـان أبطـال زهـاء أربعـة ألاف فـارس...»[339]

و يبــدو مــن المؤكــد أن عــدد الفرســان الذيــن قامــوا بالتغريبــة الأولى كان عددهـم يتجـاوز حتـما الأربعـة ألاف و إذا مـا احتسـبنا عـدد أفـراد عائلاتهــم و مرافقيهــم فيجــب التوقــع أن عددهــم ســيتضاعف عــلى الأقـل خمـس مـرات و بذلـك يكـون عـدد المرحلـين لا يمكـن أن يقـل عـن عشريـن ألـف فـرد. و قـد ازداد عـدد الوافديـن مـن الهلاليـين في مرحلـة لاحقـة خاصـة سـنة 566هــ/1170 م عندمـا وصلـت إلى افريقيـة قصيـدة

---

[337] نفس المصدر،136

[338] نفس المصدر،199

[339] ابن صاحب الصلاة،252

مـن نظـم أبي بكـر بـن طفيـل يحرضهـم فيهـا و يسـتدعيهم إلى الغـزوة العظمـى التـي كان يعدهـا الخليفـة أبي يعقـوب يوسـف:

أقيموا صدور الخيل نحو المغارب

لغزو الأعادي و اقتناء الرغائب

ألا فابعثوها همة عربية

تحف بأطراف القنا و القوا ضب

أفرسان قيس من هلال بن عامر

و ما جمعت من طاعن و مضارب

و قوموا لنصر الدين قومة ثائر

و فيئوا إلى التحقيق فيئة راغب

و ما خلق الأعراب إخلاف موعد

و لكن صدق الوعد خلق الأعارب[340]

و كان ذلـك أثنـاء رجـوع صاحـب سوسـة و شـيخ ريـاح: جبـارة بـن أبي العينـين مـن الـشرق حيـث كان يسـعى إلى طلـب المـدد ضـد الموحديـن فوجـد أكـثر بنـي عمـه قـد لبـوا النـداء و بـادروا بالاسـتجابة لطلـب الخليفـة الموحـدي :« بـادروا إلى الطاعـة هـذا الأمـر العظيـم و الحركـة إلى الجهـاد الكريـم»[341]

---

[340] نفس المصدر،441-437

[341] نفس المصدر،444

و يخبرنـا ابـن صاحـب الصـلاة أن عـدد الخيـول الواصلـة مـن افريقيـة أربعـة ألاف [342] لكـن في نفـس الوقـت يمكـن الجـزم أن عـدد الوافديـن الجـدد هـو أضعـاف ذلـك و يكفـي للتدليـل عـلى ذلـك المـدة الطويلـة التـي اسـتغرقتها عمليـة مبايعـة الخليفـة . فقـد أذن لهـم أبـو يعقـوب يوسـف بدخـول العاصمـة مراكـش يـوم السـبت 2 ربيع الثـاني 566هـ/12 ديسـمبر 1170و في اليـوم المـوالي أي الأحـد 3 ربيـع الثـاني أذن لهـم بالدخـول عليـه في القـصر « للمبايعـة و أخـذ العهـد عليهـم» و قـد اسـتغرقت هـذه العمليـة 18 يومـا أي الى يـوم الأربعـاء 20 ربيـع الثـاني 566هـ/30ديسـمبر 1170.

و هـذا يجعلنـا نميـل إلى الاعتقـاد أن أعدادهـم كانـت هامـة و قـد دام تسـجيل المحاربـين مـن قبيلـة زغبـة و حدهـا في ديـوان التمييـز 15 يومـا و هـي نفـس الفـترة الكافيـة لتمييـز الموحديـن [343] و بمـا أن زغبـة كانـت تمثـل أقليـة بالنسـبة للرياحيـين فمـن المؤكـد أن أعدادهـم كانـت كثـيرة و أثنـاء جوازهـم للمضيـق ذكـر ابـن صاحـب الصـلاة أن العـرب قـد تزاحمـوا في الإجـازة حتـى القتـال و دام جوازهـم خمسـة أيـام و كانـوا يعـدون عـشرة ألاف فـارس [344] فـإذا كان عـدد الفرسـان 10الاف فـان عـدد المشـاة لا يمكـن أن يقـل عـن ذلـك و عددهـم الجمـلي بمـا في ذلـك أطفالهـم و نسـاؤهم و شـيوخهم يمكـن أن يصـل إلى أزيد 50000 شـخص بكثـير. و قـد أعطاهـم الخليفـة الموحـدي: الرمـاح و الـدروع و السـيوف و أمـر لـكل شـيخ ب 50 دينـارا ، و لـكل رئيـس عـلى قبيلـة 200 دينـارا وأمـر لهـم بثلاثـة ألاف فـرس قسـموها عـلى قبائلهـم و أتباعهـم و كانـت الأعطيـات الفرديـة كـما يـلي [345]:

[342] نفس المصدر،446

[343] نفس المصدر،464

[344] نفس المصدر،483

[345] نفس المصدر،466

- الفارس الكامل : 25 دينارا (بالنسبة للموحدين 10 د فقط)

- الفارس غير الكامل : 15 دينارا (بالنسبة للموحدين 8 د فقط)

- الفارس غير الكامل : 7 دنانير (بالنسبة للموحدين 5 د فقط)

- الفارس غير الكامل : 5 دينارا (بالنسبة للموحدين 3 د فقط)

و هـذا دليـل عـلى قـوة هـذه المجموعـات القتاليـة الجديـدة التـي تحولـت مـن عـدوة إلى صديقـة لحركـة الموحديـن و مـن كفـار إلى مجاهديـن و قـد كانـت في الصفـوف الأولى لحمايـة قرطبـة و اشـبيلية ودفـع الأعـداء الـروم و الأشـقياء المنافقـين (ابـن مردنيـش و أنصـاره) [346]

و بعـد أن كانـوا موضـوع هجـاء للشـعراء الموحديـن أصبحـوا محـل مدح و مـن ذلـك مـا قالـه الشـاعر أبـو عمـر بـن حربـون في مدحهـم :

و بشّر العجم أن العرب قد دلفت

على العراب و أن الملتقى صدد

هاتيك ثانية اليرموك قد رجفت

ما إن لكم صبب عنها و لا صعد [347]

و قـد أصبـح بعـض الشـعراء يسـتعجلهم الجهـاد مـن ذلـك مـا جـاء عـلى لسـان الشـاعر أبي عيـاش:

أقيموا إلى العلياء عوج الرواحل

وقودوا إلى الهيجاء جرد الصواهل

[346] نفس المصدر،252

[347] نفس المصدر،257

وقوموا لنصر الدين قومة ثائر

وشدوا على الأعداء شدة صائل [348]

وقد أصبحت كل العساكر التي تعبر المضيق نحو قرطبة تتكون من موحدين، وعرب. وفي رسالة مؤرخة بالثاني و العشرين من جمادي الثانية عام 563/1168 م بعث بها الخليفة الموحدي إلى ممثله بغرناطة الحافظ أبي عبيد الله محمد بن إبراهيم نراه يتحدث دون تمييز عن « عسكر مبارك من الموحدين و العرب وفرهم الله ... وتعاضدهم جميعا و توازرهم على الجهاد و حماية البلاد و النظر في المصالح...»[349] و هذا دليل على أن الأعراب القادمين من افريقية قد تمكنوا في فترة وجيزة، نظرا للحاجة الأكيدة إلى خدماتهم من فرض أنفسهم على النظام الموحدي الذي أصبح يتعامل معهم باللين وربما هيأهم ذلك للدخول في المنظومة الموحدية التي كانت تقتصر على قبائلهم فقط و لا نستغرب هنا أن يضعهم الخليفة جنبا إلى جنب مع الموحدين من أجل هدف واحد: الجهاد و حماية البلاد و النظر في المصالح...

هذه الوضعية الجديدة التي اكتسبوها في المغرب الأقصى والأندلس جعلت من تلك البلاد محطة نهائية (Terminus) لرحلة طويلة من ناحية الزمن و المسافة انطلقت من الصعيد المصري في مرحلة أولى ثم من إفريقية في مرحلة تغريبية ثانية لتنتهي على سواحل المحيط الأطلسي ثم تتجه شمالا نحو الأندلس .

[348] نفس المصدر،441

[349] نفس المصدر،374

خاتمة

في وقت بدأت فيه القوى الإسلامية تتراجع في الأندلس، كانت المنطقة في حاجة إلى دماء جديدة و قوى محاربة شابة للتصدي للتقدم المسيحي و هو ما وفرته المجموعات الهلالية و على رأسها رياح تاركة المجال الإفريقي لقبائل سليم و كانت حركة الموحدين نحو الشرق ثم في اتجاه العودة العامل الأساسي في ترحيل الآلاف من هؤلاء نحو سهول المغرب الأقصى و الأندلس حتى أننا أصبحنا نجدهم في فترات لاحقة إلى جانب بني الأحمر بالأندلس [350]. و قد أصبح الهلاليون يمثلون جزء هاما من المشهد الاجتماعي و السياسي بالمغرب الأقصى و عنصرا بارزا من عناصر المعادلة السياسية بسلطنته.

و قد استقروا ببلاد الهبط و أقاموا هناك حتى انقراض دولة الموحدين حيث كانوا في صراع مع الخليفة المأمون الذي قتل رئيسهم عثمان بن نصر سنة 630هـ/1233 م [351].

و قد انصهروا في السكان و تلاشوا شيئا فشيئا بعد حوالي قرن ونصف من قدومهم و يذكر لنا ابن خلدون أن « آخر من أوقع بهم السلطان أبو ثابت حافد يوسف بن يعقوب

[350] **العبر**،VI،72

[351] نفس المصدر،VI،78

سلطة بني جامع في مدينة قابس

ظهرت سلطة بني جامع في إطار التفكك الذي أصاب الإمارة الزيرية اثر تقدم الهلاليين بعد سنة 443هـ/1051م و بروز العديد من السلطات المحلية التي تشكلت في العديد من المدن و التي استقلت عن حكم الزيريين الذين اقتصر دورهم على مراقبة مدينة المهدية و احوازها. و يبدو للوهلة الأولى أن تاريخ بني جامع من البساطة حتى انه تصعب الإضافة فيه إثراؤه. غير ان ما وصلنا عن طريق المصادر من معلومات مضطربة و ما نتج عن ذلك من عدم دقة الأحداث و الأسماء و التي أثرت بصفة سلبية على الدراسات التي اعتمدتها يجعلنا نتجه نحو قراءة جديدة لهذا التاريخ بالاعتماد على المقارنة بين المصادر و إعادة تركيب الأحداث قصد الوصول إلى أقرب الأحداث صحة.

و إن تعودنا على اعتبار كتاب العبر كمصدر أساسي لمعلوماتنا حول التواريخ المحلية و الإمارات المستقلة التي ظهرت بإفريقية منذ تفكك سلطة الزيريين فبالنسبة للمعلومات التي تخص إمارة بني جامع ، نلاحظ أنها تتفرق متساوية مع شيء من الاضطراب في مختلف المصادر الإخبارية التقليدية التي تهم هذه الفترة و هي حسب الأسبقية الزمنية.

- الكامل في التاريخ لابن لأثير (ت 630هـ/1232م).

- البيان المغرب لابن عذارى (كتب حوالي 706هت/1306م).

- رحلة التجاني(كتبت كذلك في نفس الفترة).

- و أخيرا كتاب العبر لابن خلدون (ت 808هـ/ 1406م).

و قد اعتمدت كل هذه المصادر على روايات أبي الصلت أمية بن عبد العزيز (سنة517هـ/1135م) . كما اعتمد ابن خلدون بالنسبة للأحداث التي تلت هذا التاريخ على أبي عبد الله محمد بن نخيل (سنة 618هـ/1221م) الذي كان كاتبا لعبد الواحد بن أبي حفص. وإضافة لهذه المصادر الإخبارية المعروفة أصبح من الضروري استغلال المصادر الأدبية و بالتحديد « جريدة القصر و جريدة العصر» لعماد الدين محمد الأصفهاني (597-519هـ). الذي التقى بالأمير المهاجر عبد العزيز بن شداد بن تميم بدمشق سنة 571هـت/1175م كما انه نقل عن «الحديقة» لأبي الصلت أمية بن عبد العزيز لذلك فهو يمثل اقرب مصدر متوفر حاليا بالنسبة للأحداث التي تهمنا وقد مكننا سواء من خلال القصائد نفسها التي أوردها من ضبط بعض الأسماء حتى انه أصبح بإمكاننا ضبط شجرة بني جامع ضبطا يكاد يكون تاما.

I - صعوبة إعادة تركيب التاريخ السياسي

يقول الشاعر الأمير: عامر بن محمد بن عسكر:

و لقد ملكنا قابسا — بالمشرفيات القواطع

تسعين عاما لم يكن — خلق لنا فيها منازع

و إذا انطلقنا من كون نهاية حكم بني جامع على يد الموحدين كانت سنة 554هـ/1159م تصبح بداية حكمهم للمدينة حسب ما جاء في هذه القصيدة حوالي سنة 464هـت/1071م. لكن هذا

التاريـخ لا تؤكـده بقيـة المصـادر التـي نقلـت مـن تاريـخ أبي الصلـت المخصـص لتاريـخ الزيريـين أساسـا (ربمـا كان عنوانـه: «كتـاب الديباجـة في أخبـار صنهاجـة») و الـذي لم يتحـدث عـن بنـي جامـع إلا في فـترات الـصراع بينهـم وبـين الزيريـين. و حسـب مـا جـاء في مصادرنـا الإخباريـة التقليديـة كانـت بدايـة ظهـور بنـي جامـع يشـوبها نـوع مـن الغمـوض. وهـذه المصـادر لا تتحـدث عـن وجودهـم بقابـس إلا أثنـاء أحـداث سـنة 488هــ/1095م التـي ذكرهـا ابـن الأثـير بمناسـبة دخـول جمـع مـن الأتـراك افريقيـة و يـورد لنـا أن تميـم بـن المعـز قصـد مدينـة قابـس وبهـا أمـير يقـال لـه : مكـين مـن كامـل الدهـماني فأنزلـه و أكرمـه هـذا الخـبر أن كان صحيحـا فهـو يـدل عـلى نـوع مـن الوفـاق النسـبي بـين الطرفـين و خاصـة عـلى وجـود بنـي جامـع بالمدينـة قبـل هـذا التاريـخ. و يصعـب تحديـد هـذا التاريـخ لان المصـادر لا تتحـدث عـن ذلـك بـل و تعطينـا أحيانـا تواريـخ متناقضـة فحصـار تميـم لقابـس و إفسـاد غبتهـا يحـدده ابـن الأثـير بسـنة 474هــ/1081م. أمـا ابـن عـذارى فهـو يجعلـه في حـدود سـنة 486هــ/1093م.

و مـن جهـة أخـرى نلاحـظ أن تاريـخ سـنة 488هــ/1093م الـذي أورده ابـن الأثـير يتناقـض مـع مـا أوردتـه بقيـة المصـادر مـن كـون تميـم فتـح مدينـة قابـس سـنة 489هـت1096م و اخـرج منهـا أخـاه عمـرا. لكـن و بعـد ذلـك التاريـخ بمـدة قريبـة تذكـر لنـا هـذه المصـادر أن حمـو بـن و مليـل البراغواطـي بصفاقـس يغـادر هـذه المدينـة بعـد محاصرتـه مـن طـرف تميـم 493هــ/1099م و يلجـأ إلى قابـس في ضيافـة مـكي بـن كامـل و يقيـم عنـده حتـى وفاتـه. هـذا الاضطـراب بقـدر مـا يحملـه مـن تناقضـات يجعلنـا نفـترض أن بنـي جامـع كانـوا موجوديـن بالمدينـة منـذ أمـد ليـس بالقليـل أي أننـا نقـترب قليـلا مـن التاريـخ الـذي توعـز إليـه قصيـدة الأمـير عامـر بـن محمـد بـن عسـكر و مـا يجعلنـا نرجـح هـذا الافـتراض هـو كـون الثائريـن عـلى سـلطة المهديـة مـن الزيريـين و الذيـن اسـتقروا بقابـس مثـل المعـز بـن محمـد بـن ولميـة و أخـواه

إبراهيـم و قـاضي ثـم عمـر بـن المعـز فيـما بعـد لم تكـن لهـم قـوى عسـكرية ذاتيـة قـادرة عـلى تأسـيس سـلطة محليـة ووجودهـم بالمدينـة كان دائمـا تحـت إشراف و حمايـة سـلطة عسـكرية أو شـوكة متكونـة مـن مجموعـة أو مجموعـات هلاليـة. و لا نسـتغرب هـذا الصمـت حـول هـذه المجموعـات قبـل سـنة 488هــ/1095م لأننـا سـنلاحظ مـا يشـبهه بالنسـبة للفـترة الممتـدة مـن 493-492هــ/1099-1098م حتـى سـنة 511هــ/1117م أي أن ذكرهـم ارتبـط ببعـض الأحـداث الهامـة أو الصراعـات التـي تغلـب عـلى علاقاتهـم بسـلطة المهديـة. و عـدم ذكرهـم في المصـادر لا يعنـي عـدم وجودهـم. هـذا الإهـمال الـذي ربمـا يعكـس موقـف مصدرنـا الرئيـسي و هـو أبـو الصلـت بوصفـه حضريـا و مواليـا للزيريـين مـن هـذه السـلطة البدويـة الأصـل يجعلنـا غـير قادريـن عـلى تحديـد فـترة حكـم مـكي بـن كامـل بـن جامـع و كل مـا يمكـن تأكيـده هـو أن هـذا الأخـير لم يعـد في السـلطة سـنة500هـ/1106م فالنقيشـة التـي أورد نصهـا التجـاني حـول بنـاء احـد أبـواب قـصر العروسـين مـن طـرف رافـع بـن مـكي ترجـع إلى هـذا التاريـخ. و قـد اسـتقر رافـع عـلى رئاسـة قابـس حتـى أحـداث سـنة 511هــ/1117م و مـا حدث مـن صراع بينـه و بـين عـلي بـن يحـي بـن تميـم حـول بنـاء مركـب أو مراكـب و قـد انتهـى الـصراع حسـب هـذه المصـادر باسـتقرار رافـع بالقـيروان منذ511هــ1117م و باختفائـه مـن السـاحة السياسـية أهملـت المصـادر ذكـره فـلا نعـرف مـاذا كان مصـيره؟ هـل حكـم القـيروان مـدة طويلـة؟ هـل تـوفي آنـذاك؟ هـل رجـع إلى قابـس مودعـا السـلطة في يـد ابنـه (لا أخيـه) رشـيد؟

أمـا مـن تـولى بعـده فهـو رشـيد ابـن رافـع ، و نعـرف ذلـك مـن خـلال روايـة ابـن نخيـل الفريـدة التـي أولادهـا ابـن خلـدون ذاكـرا اسـمه عـلى انـه : رشـيد ابـن كامـل أمـا التجـاني فهـو يقفـز مـن رافـع مبـاشرة إلى محمـد بـن راشـد ذاكـرا هـو الـذي ملـك قابـس بعـد دخـول رافـع إلى القـيروان وان كنـا متأكديـن مـن صحـة الروايـة الأولى نظـرا لوجـود قطـع

نقديـة تؤكـد ذلـك فإننـا غـير قادريـن عـلى ضبـط نهايـة حكـم رشـيد. ونرجـح أن تكـون فـترة حكمـه طويلة نسـبيا و تميـزت بالاسـتقرار ونفترض أن حكمـه ربمـا انطلـق بعـد سـنة 511هــ/1117م بقليـل و تواصـل عـلى الأقـل حتـى نهايـة العشرينـات أن لم نقـل بعـد ذلـك فخلفـه و ابنـه محمـد لا تذكـره المصـادر إلا حـوالي سـنة 542هـ/1147مـم كـما نفـترض أن فـترة حكـم رشـيد هـي أزهـى فـترة عرفتهـا مدينـة قابـس في ظـل هـذه الإمـارة إذ لا نسـتبعد كـون بنـاء قـصر العروسـين قـد تـم في عهـده إضافـة لضربـه السـكة الرشـيدية و هـي مـن أهـم علامـات الازدهـار الاقتصـادي و الاسـتقلال السـياسي . و بخصـوص محمـد بـن رشـيد يذكـر ابـن أبي دينـار وجـوده عـلى رأس المينـة سـنة542هـ(و قـد ورد اسـمه محرفـا في النسـخة المطبوعـة فنجـد: معمـر عـوض محمـد) و حسـب ابـن أبي دينـار حـاول هـذا الأخـير الاسـتعانة بالحسـن بـن عـلي الزيـري ضـد يوسـف احـد مواليـه المسـتبد عليـه أخـيرا تتفـق كل المصـادر عـلى أن أخـر أمـير مـن بنـي جامـع هـو مدافـع بـن رشـيد و قـد أخرجـه الموحـدون عـن قابـس سـنة 554هــ/1159م.

II - المدينة تحت سلطة بني جامع:

إن اسـتقرار بنـي جامـع بمدينـة قابـس قـد وافق تلـك التحـولات العميقة التـي عرفتهـا افريقيـة مـع منتصـف القـرن الخامـس هـ/الحـادي عـشر م و التـي تمثلـت في تراجـع التجـارة الصحراويـة و بدايـة لجـوء الحيـاة الحضريـة و الاقتصاديـة نحـو السـاحل حيـث أصبحـت التجـارة البحريـة تتصـدر الأنشـطة الاقتصاديـة الأخـرى هـل اسـتفادت مدينـة قابـس مـن هـذه التحـولات و هـي تحـت سـلطة مجموعـة بدويـة مـن الهلاليـين الذيـن نسـبت لهـم حـل المصـادر مسـؤولية كـبرى في تخريـب افريقيـة. إن النـزر القليـل مـما أوردتـه المصـادر يـدل بـدون شـك أن هـؤلاء كانـوا بنائـين لا مخربـين فهـذا التوجـه الاقتصـادي العـام الـذي عرفتـه افريقيـة

لم يبقـوا عـلى هامشـة إذ أن رافعـا حـاول أن يبنــي السـفن و المشـاركة في التجـارة البحريــة حســب قــول ابــن الأثــير:» انشـأ مركبـا بســاحلها ليحمـل التجـار في البحـر...» و نحـن نسـتبعد كـون قابـس قـد اسـتفادت كثـيرا مـن هـذا القطـاع في عهـد رشـيد الـذي سـك دينـارا ذهبيـا يحمـل اسـمه و ذكـر العلامـة حسـن حسـني عبـد الوهـاب بأنـه يوجـد منـه نمـوذج جميـل بإحـدى دور الآثـار الاسـبانية و ربمـا كانـت مدينـة قابـس تتجـه نحـو تأسـيس قـوة اقتصاديـة و سياسـية شـبيهة بمـا كان يتـم في المـدن الايطاليـة آنـذاك أو عـلى الأقـل أنهـا كانـت تتجـه إلى محـاكاة نمـط بجايـة و تونـس بافريقيـة لـولا تدخـل القـوى الأجنبيـة عـن المنطقـة سـواء منهـا البحريـة مثـل النورمـان أو البريـة مثـل الموحديـن . و إضافـة إلى البنــاء الاقتصــادي و العمــراني أيضــا الــذي تجســد أساســا في بنــاء قـصر العروسـين نلاحـظ توجهـا آخـر نحـو البنـاء السـياسي الحقيقـي فـما ركـزه بنـو جامـع يتجـاوز مفهـوم المشـيخة أو الرئاسـة أو الشـورى التـي تحـدث عنهـا ابـن خلـدون بالنسـبة لبعـض السـلطات الحضريـة المحليـة في أماكـن خاصـة في عهـده هـو أي في العهـد الحفـصي . ونحـن نلاحـظ أن بنــي جامـع ركـزوا نظامـا وراثيـا اسـتمر مـدة طويلـة نسـبيا و ربمـا تلقبـوا بألقـاب ملكيـة خاصـة محمـد بـن رشـيد ثـم شـقيقه مدافـع .

ففـي مـدح محمـد بـن رُشـيْد قـال: أبـو الفضـل عبـد اللـه بـن نـزار الهـوا ري:

إن امتداحي ما يلم من الورى   إلا لمن دانت له العلياء

مثل المليك ابن الرشيد فانه بهر الملوك وحل حيث يشاء

وقال ابن فرحان القابسي في مدافع:

هنىء مدافعا إن الله خوله   عزا ينال به كل الذي راما

يا أيهاالملك الموهوب جانبه   شملت هذا الورى فضلا و إنعاما

و مدح السكدلي القفصي مدافع قائلا:

لقد ملكت روحي كما ملك العلا   وحاز الندى جود المليك المدافع

و أما مساعدو هؤلاء الأمراء فلا نستبعد أيضا كونهم عرفوا بالوزراء فأثناء حديثه عن سلام بن أبي بكر بن فرحان القابسي ذكر صاحب الخريدة بأنه كان جليسا ووزيرا لمدافع و هذه التسميات و حتى أن كانت شكلية فهي تدل على بداية تكون المؤسسات قارة ربما تطورت فيما بعد.

ومن جهة أخرى أصبح بلاط بني جامع قبلة للعديد من الشعراء عاكسا تنامي حركة فكرية ارتبطت بالتطورات السياسية و الاقتصادية التي عرفتها الإمارة و إضافة للشعراء المحليين مثل: ابن نزار الهوا ري و ابن فرحان القابسي استقبل بلاط بني جامع السكدلي القفصي و يحي التيفاشي القفصي. وهذا الأخير هو الذي قال في مدافع:

شقيق الحيا بذلا لخير الورى طرا

هو الغيث في بذل النوال إذا طما

هو الليث في يوم النزال إذا كرا

يريك الردي سخطا ووجه المنى رضا

وصوب الحيا بذلا، و حكم القضا أمرا

هكذا نلاحظ أن استقرار بني جامع الهلاليين المبكر بقابس وتوجههم نحو البناء الاقتصادي و السياسي يتنافى تماما مع ما جاء في كل المصادر الإسلامية المغربية التي وصفت الهلاليين بكونهم مخربين وبداوتهم تناقض كل مظاهر حياة الاستقرار و التحضر و معادية لكل شكل من أشكال السلطة السياسية. و نحن نعرف أنهم لم يستوردوا البداوة إلى بلاد المغرب فهي أقدم منهم و أن بداية تقهقر

افريقيـة عـلى جميـع المسـتويات كان سـابقا لهـم أيضـا.و الملفـت للانتباه أن الفصائـل التـي اتجهـت نحـو الاسـتقرار و ربمـا البنـاء السـياسي بصفـة مبكـرة تنتمـي كلهـا إلى نفـس المجموعـة اى بنـي فـادع الذيـن دخلـوا افريقيـة منـذ البدايـة و يذكرهـم ابـن رشـيق أثنـاء رثائـه للقـيروان بقوله:

بمصائب من فادع و أشالب

ممن تجمع من بني دهمان

هـذه الفصائـل المذكـورة مـن فـادع اسـتقرت بالمعلقـة (قرطـاج) حيـث نجـد محـرز بـن زيـاد الفادعـي و كذلـك بسوسـة التـي اسـتقر بهـا : جبـارة بـن كامـل بـن سرحـان بـن أبي العنـين الفادعـي و طبعـا ينتمـي بنـو جامـع إلى بنـي فـادع و قـد ذكـر صاحـب الخريـدة في العديـد مـن المواقـع و بإمكاننـا التثبـت مـن ذلـك مـن خـلال القصيـدة التـي كتبهـا الأمـير عبـد الرحـمان بـن زيـدي الصنهاجـي إلى الأمـير سـاكن بدمشـق.

و لما سرى البرق الذي الصبا

تأوهت شوقا و الدموع هواتن

و ناديت من عليا هلال بن عامر

فتى صادق الدعوي إذا مان مائن

نمته رياح من صليبة فادع

لآل علي و هو للمجد صائن

و حلت بنو دهمان منه بعشوة

و عز به الأفاضل ظاغن

فما هو إلا ذرى ال عسكر

لعامرهم نجل و ذلك ساكن

هــذه القصيــدة مــع بعــض المعطيــات المتفرقــة الأخــرى الموجــودة بالخريــدة تمكننــا مــن وضــع شــجرة بنــي جامــع بطريقــة أقــرب الى الصحــة و تختلــف عــما جــاء في مقــال الموســوعة الإســلامية للأســتاذ محمــد الطالبــي و كذلــك تختلــف عــن الجــدول الــذي وضعــه جــورج مــارسي(G.Marçais) في كتابه»العــرب ببــلاد البربــر« (Les Arabes en Berbérie) و قــد اعتمــد الاثنــان عــلى ابــن خلــدون فقــط.

*الأستاذ الطالبي

رياح

دهمان

جامع

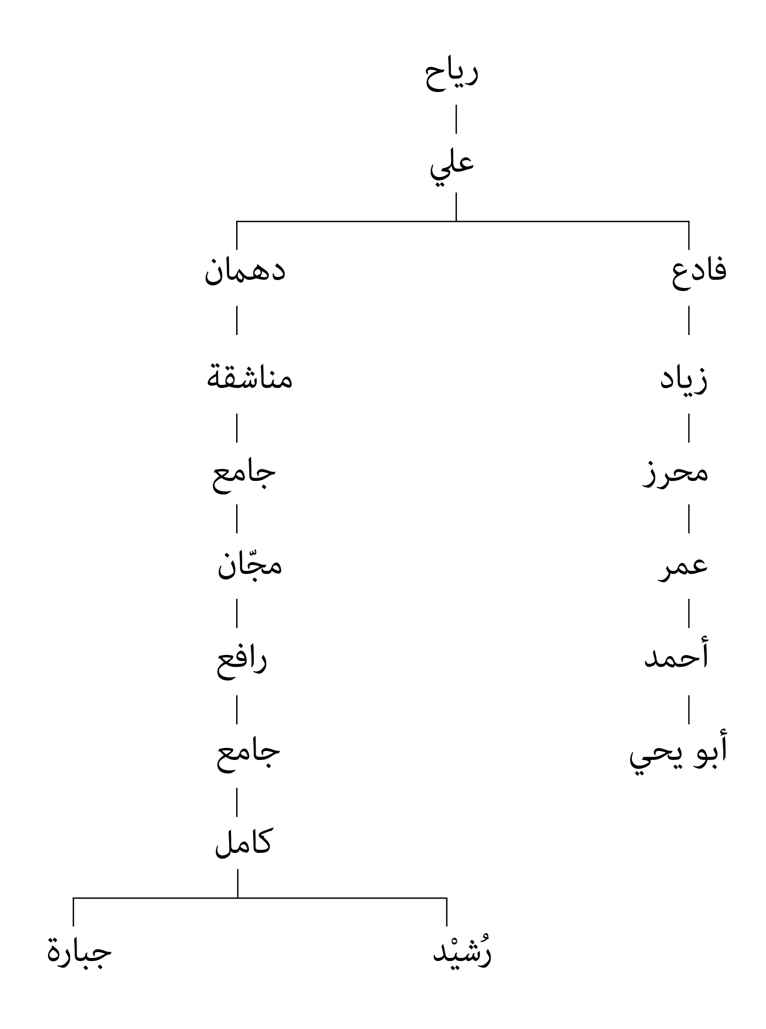
كامل

مكّي - رُشيْد

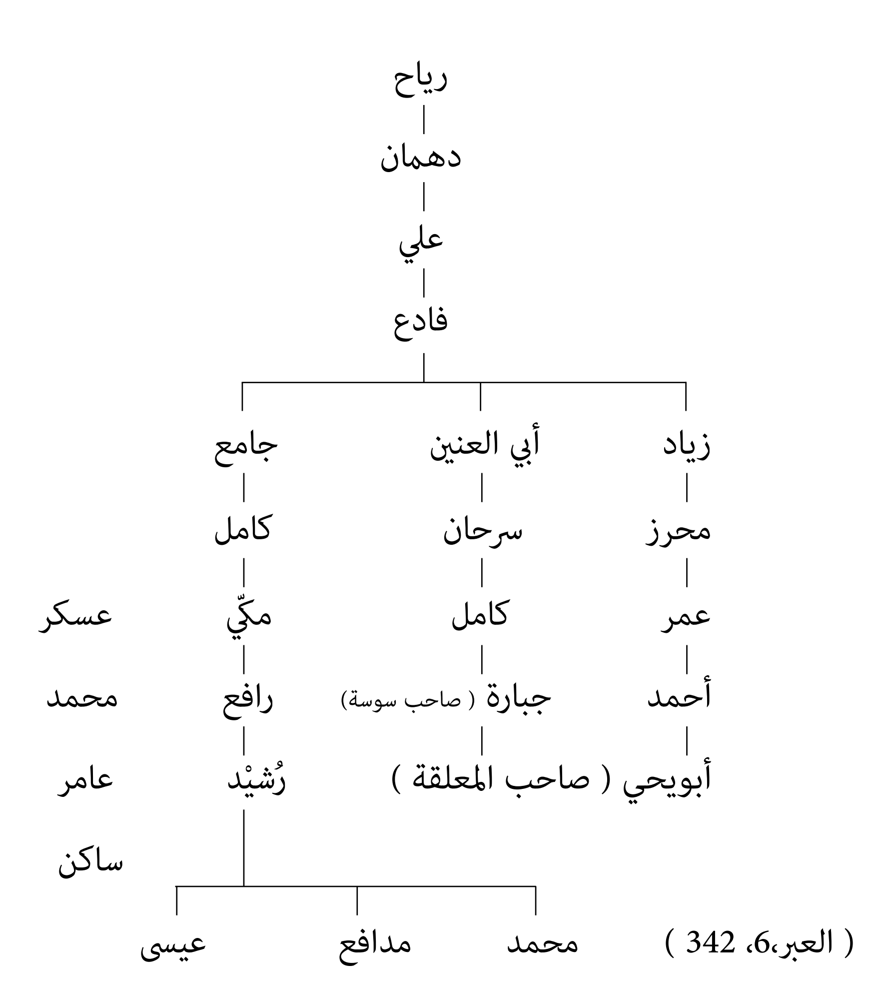
رافع (ابن مكّي) - محمد، مدافع (ابنا رُشيْد)

جامع، كامل (ابنا رافع)

*جورج مارسي : - جدول رقم 11 – ص . 735 من الكتاب المذكور.



* شجرة النسب التي أقترحها :



بنو مكي و الحفصيّين: من التحالف إلى الصراع

624هـ/1227 م–796هـ/1394 م

ظهر بنو مكي بصفة فجئية على الساحة السياسية بافريقية مع بداية القرن السابع هـ و قد ارتبط مصيرهم منذ البداية بتأسيس الدولة الحفصية و بالتطورات السياسية التي عاشتها هذه السلطنة حتى أواخر القرن 8هـ/14م و انعكس ذلك من خلال تطور العلاقات بين الطرفين والتي تميزت بالتحالف في بداية الأمر ثم بالاضطراب فيما بعد .

كيف ظهر بنو مكي ؟ ما هي الظروف التي جعلتهم يبتعدون عن السلطة المركزية؟ و هل نجحوا في تدعيم استقلاليتهم؟

1- ظهور بني مكي

قبل قدوم الموحدين إلى افريقية كانت قابس و ضواحيها تحت سيطرة بني جامع الرياحين[352] و يبدو أن دور هؤلاء قد تضاءل شيئا فشيئا منذ تلك الفترة (555هـ/1160 م) حتى بداية القرن 7هـ/13م فأثناء تولية الخليفة الموحدي العادل لأبي محمد ابن الشيخ أبي الحفص على افريقية 618هـ/1221 م و لأبي زكرياء يحي شقيقه على قابس كانت مشيخة المدينة حسب ما أورده ابن خلدون في بني

[352] عبد الرحمان ابن خلدون ،العبر،دار الكتاب اللبناني،بيروت 1983 المجلد VI،ص 494،946

مسلم [353] و بنـي مـكي [354] و حسـب نفـس المصـدر يرجـع أصـل بنـي مـكي إلى قبيلـة لواتـة البربريـة و جـاءت تسـميتهم نتيجـة انتسـابهم إلى : مـكي ابـن فـراج بـن زيـادة اللـه بـن الحسـين اللـواتي [355]

وانطلاقـا مـن هـذه المعطيـات تتبـادر إلى الذهـن عـدة تسـاؤلات: كيـف اضمحـل أمـر بنـي جامـع دون أن يـترك أي أثـر؟ و كيـف تـبرز في هـذا الظـرف بالـذات أسرة ذات أصـول بربريـة في منطقـة تسـيطر عليهـا منـذ أمـد طويـل قبائـل ريـاح و سـليم؟ و أمـام صمـت المصـادر بخصـوص هـذه القضايـا لا يسـعنا إلا الاتجـاه إلى الافتراضـات: هـل أن هـذه الوضعيـة جـاءت نتيجـة سـيطرة الموحديـن و هـم مـن البربـر، ومسـاندتهم لمجموعـة بربريـة لم يكـن لهـا دور يذكـر مـن قبـل؟ أم أن انتـماء بنـي مـكي لقبيلـة لواتـة كان وهميـا [356] و لم يكـن سـوى منـاورة سياسـية قصـد التقـرب مـن الموحديـن ؟ و في هـذه الحالـة يصبـح مـا ذكـره ابـن خلـدون نسـب مختلـق و هـو مـا يفتـح لنـا مجـال الافـتراض ثالثـة و ذلـك باعتبـار أن هـذه المجموعـة هـي امتـداد لبنـي جامـع ربمـا جـاءت التسـمية نسـبة لمـكي بـن كامـل بـن جامـع الرياحـي [357] ألم يسـتعمل ابـن خلـدون تسـمية بنـي كامـل [358] عـوض بنـي جامـع فـما المانـع مـن تسـميتهم ببنـي مـكي؟

وفي الحقيقـة يصعـب انطلاقـا مـن المصـادر المتوفـرة حاليـا الوصـول إلى حـل أو تفسـير مقنـع إذ أن الفـترة الممتـدة مـن دخـول الموحديـن إلى قابـس 555هــ /1160 م) حتـى سـنة 619هــ/1222 م كانـت فـترة

[353] ن م ،VI،946

[354] ن م ،VI،947

[355] ن م ،VI،947

[356] يعـترف ابـن خلـدون نفسـه بأن:»النسـب أمـر وهمـي لا حقيقـة لـه» المقدمة،مكتبـة لبنان،بـيروت:1970،ج1،ص236

[357] عيد الله التجاني،**رحلة**،الدار العربية للكتاب،تونس 1981،صفحة333،100،95،71

[358] **العبر** ،VI،494

مد و جزر بين الموحدين من جهة وقراقوش الارمني مملوك الملك المظفر[359] ثم على بن إسحاق بن غانية الميورقي و أخيه يحي من جهة أخرى[360] و هي فترة طويلة نسبيا (64 سنة) ذاقت أثناءها المدينة الامرين حيث قتل الكثير من سكانها بما في ذلك أعيان المدينة و أشياخ بعض القبائل مثل المحاميد و الجواري الذين فقدوا في مرة واحدة سبعين من كبارهم [361] كما عانت المدينة أكثر من مرة من الحصار و قطع أشجار واحتها[362] وما تأكيد المصادر هنا على ما قاسته مدينة قابس من أفعال قراقوش و ابن غانية إلا الدليل على مقاومة هؤلاء على الأقل من طرف جزء من سكان المدينة و بالتالي مساندة هذا الجزء ضمنيا أو فعليا للموحدين وقد أكد ذلك ابن خلدون عندما أورد أن الحفصيين رموا ببني سليم نظراء بني مكي في رئاسة البلد بسبب صاغيتهم إلى ابن غانية [363]. ونفهم ضمنيا من ذلك أن بني مكي كانوا عكس منافسيهم على الرئاسة إلى جانب الموحدين و نتيجة لذلك أصبحوا من المقربين لأبي زكرياء أثناء توليه على مدينتهم و في سنة 624هـ/1227 م عندما قرر أبو زكرياء يحي مساندة الخليفة الموحدي أبي العلاء إدريس الملقب بالمأمون اعتمد في موقفه على بني مكي و داخلهم في الانتقاض على أخيه فأجابوه و بايعوا له « فرعى لهم هذه الوسائل عندما استبد بافريقية وأفردهم برئاسة الشورى في بلدهم» [364] و اعتماد أبي زكرياء عليهم في مثل هذه الامور الخطيرة يدل على أنهم كانوا يمثلون قوة قتالية ضاربة و ربما كان تصدرهم لتسيير المدينة سابقا لوجود أبي زكرياء لكن اثر اعتماده عليهم للاستيلاء على السلطة أصبحت

---

[359] **رحلة التجاني**،103

[360] ن م ،104

[361] ن م ،104

[362] ن م ،104

[363] **العبر** ،VI،947

[364] ن م VI،803

وضعيتهـم أكـثر شرعيـة و أكـثر قـوة ففـي نفـس الوقـت الـذي بـارك فيـه الأمـير الجديـد وجودهـم عـلى رئاسـة البلـد لم يعـين إلى جانبهـم نائبا عنه هـل كان ذلـك نتيجـة اعتبارهـم ممثلـين لسـلطته أم هـو اعـتراف لهـم بنـوع مـن الاسـتقلالية ؟ و نحـن لا نعـرف مـن خـلال المصـادر كيـف تـم ضبـط هـذه العلاقـة خاصـة عـلى المسـتوى الجبـائي (أي العنـصر المـادي الـذي يعـبر عـن التبعيـة أو انعدامهـا) لكنهـا تمدنـا بمعلومـات تفيدنـا باسـتمرار التحالـف بـين بنـي مـكي و الحفصيـين في عهـد المسـتنصر باللـه ثـاني السـلاطين الحفصيـين فأثنـاء سـنة 651هــ الموافـق 1253 م لمـا ثـار ضـده أخـوه الأمـير أبـو إسـحاق الـذي بايـع لـه أهـل بسـكرة كان أول مـا قـام بـه هـو التوجـه نحـو قابـس و محاصرتهـا [365] و هـذا دليـل عـلى وفـاء بنـي مـكي للسـلطة المركزيـة و ربمـا دل ذلـك عـلى اعتبارهـم إحـدى ركائـز قـوة هـذه السـلطة.

2- نحو الاستقلال الذاتي

يذكـر ابــن خلــدون أن بنــي مــكي « ســموا إلى الاســتبداد عندمــا فشــل ريــح الدولــة عــن القاصيــة بمــا حــدث مــن الفــتن و انفــراد الثغــور الغربيـة بالملـك»[366] و في الحقيقـة انطلقـت حركـة عصيانهـم قبل انقسـام السـلطنة وكان ذلـك اثـر مسـاندتهم المطلقـة للمدعـي ابـن أبي عـمارة المسـيلي سـنة 681هــ/1282 م الـذي كان ادعـى بأنـه الفضـل بـن يحـي الواثـق و نتيجـة لذلـك خـرج لـه عبـد الملـك بـن عثـمان بـن مـكي و فتـح لـه قابـس [367] و سـارع إلى طاعتـه. و يمكـن ويمكـن اعتبـار هـذا الموقـف كدليـل عـلى الوفـاء أكـثر منـه عـلى العصيـان و عبـد الملـك بـن مـكي قـد

---

[365] ابن القنفد القسنطيني،**الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية**، تونس 1968 ص118

العبر VI:الشماع **الادلة البينة النورانية في مفاخر الدولة الحفصية**،تونس 1984،ص64

[366] **العبر**، 803،،VI

[367] **الفارسية،141**،الادلة،77،الزركشي،**تاريخ الدولتين**،تونس 1966،ص45(وكذلك العبر،VI،947)

ساند الطرف الذي يبدو له أكثر شرعية إذا ما اعتبرنا أنه لم يكن يعرف مثل غيره من معاصريه أن السلطان الفضل حليفه هو مجرد مغامر رمته الصدف إلى دفة الحكم (إن كان ذلك كذلك فعلا) و اثر هذه المساندة التي ربما كانت حاسمة في مساعدة المدعي إلى الوصول إلى الحكم تمت مكافأة عبد الملك بن عثمان بن مكي بتقليده خطة الجباية بالحضرة إضافة للمنافع المادية و المعنوية التي حصل عليها [368] و ليس هذا هو الجانب الهام في هذه العملية بل ما نتج عنها من ارتباط مصير بني مكي و من ورائهم مدينة قابس بطرف من الأطراف الحفصية المتصارعة سواء كان هذا الشق في السلطة أو معارضا لها . فاثر سنة 685هـ/1286 م لما استولى الأمير أبو زكرياء على الناحية الغربية من السلطنة نراه يتوجه إلى قابس حيث حاصرها و هدم ربضها و أحرق المنازل في غابتها [369] و لا يمكن تفسير هذه الحملة الانتقامية سوى بوفاء بني مكي للسلطان الشرعي : أبي حفص الذي لن يتخلوا عنه إلا سنة 693هـ/1294 م أي قبل وفاته بسنة [370] و على هذا النسق سيتواصل وجود بني مكي على رئاسة قابس طيلة القرن الثامن هـ/الرابع عشر م و هي وضعية تعبر عن الولاء عندما يكون حليفهم الحفصي في السلطة و عن الاستقلالية عندما يكونون في عداء مع الأمير الشرعي . لكن نظرا للاضطرابات المتواصلة التي عرفتها السلطنة الحفصية خاصة في النصف الأول من القرن الثامن هـ/ الرابع عشر م فان بني مكي قد نزعوا بصفة فعلية نحو الاستقلال كما كان لهم دور هام في أغلب الأحداث التي عرفتها السلطنة و قد امتد نفوذهم في بعض الفترات ليشمل كل من جربة (746هـ/1345-6 م) وطرابلس (754هـ/1353م)، وصفاقس(754هـ/1356 م)

---

[368] **العبر**،VI،692،948

[369] ن م VI،701،الفارسية،149،155

[370] **العبر** ،VI،،731، تاريخ الدولتين 150

ففـي بدايـة هـذا القـرن نلاحـظ نوعـا مـن الاسـتقرار و الهـدوء في العلاقـات بـين مركـز السـلطة و بـين بنـي مـكي و أثنـاء سـفر شـيخ الموحديـن ابـن اللحيـاني إلى الجنـوب التونـسي سـنة 706هـ/1306 م قصـد تخليـص جزيـرة جربـة مـن أيـدي النصـارى [371] أنزلـه عبـد الملـك بـن عثـمان بـن مـكي بـداره [372] و قـد شـكل ذلـك بدايـة تحالـف جديـد سيسـتثمره ابـن اللحيـاني ثـم ابنـه عبـد الواحـد فلـما تنـازل ابـن اللحيـاني عـن حكـم السـلطنة سـنة 717هـ/1317 م بعـد سـت سـنوات مـن توليـه اسـتقر في مدينـة قابـس [373] قبـل توجهـه نحـو الـشرق و لعـل هـذا التقـارب كان مـن أهـم العوامـل التـي جعلـت فيـما بعـد عبـد الملـك بـن مـكي يسـاند عبـد الواحـد بـن اللحيـاني القـادم مـن الـشرق للمطالبـة بالسـلطنة (729هـ/1329 م) و بفضـل هـذه المسـاندة دخـل هـذا الأمـير مدينـة تونـس سـنة 733هـ م و تـولى فيهـا الحكـم لمـدة خمسـة عـشر يومـا و في هـذه الفـترة عـين ابـن مـكي كحاجـب لـه [374] و قـد انجـر عـن ذلـك مناهضـة بنـي مـكي للسـلطان أبي بكـر و ابنـه الأمـير أبي العبـاس الـذي اسـتقر بقفصـة في حـين فـر منهـا بنـو العابـد و نزلـوا في جـوار ابـن مـكي[375] و هـذا الحـدث يـدل عـلى قـوة بنـي مـكي و عـلى اسـتقلاليتهم بالنسـبة للسـلطة المركزيـة التـي لم تطلهـم بعـد. وقـد تحسـنت علاقـات بنـي مـكي مـع السـلطان أبي يحـي أبي بكـر قبـل احتـلال أبي الحسـن المرينـي افريقيـة فمنـذ سـنة 746هـ/1435-6 م تحسـنت العلاقـة بـين الطرفـين حيـث أصبـح أحمـد ابـن مـكي رديفـا لحاجـب الأمـير أبي العبـاس الـذي اسـتخلصه لدولتـه و نجـوى أسراره كـما عقـد لـه السـلطان أبـو يحـي أبـو بكـر عـلى جزيـرة جربـة [376] .و قـد جاء

---

[371] **العبر** ،VI،948،الفارسية،56

[372] تاريخ الدولتين 56

[373] **العبر** VI،749

[374] ن م ، VI،780،949

[375] ن م ، VI،786

[376] ن م ، VI،950

هـذا التطـور للعلاقـات نتيجـة اتصـال بنـي مـكي بـأبي الحسـن المرينـي منـذ دخولـه تلمسـان سـنة 746هــ/1345-6 م[377] . و فتـح هـذا الحـدث صفحـة جديـدة في تاريـخ بنـي مـكي انطلقـت بتحالفهـم مـع بنـي مريـن ثـم الثـورة ضدهـم و كانـوا أول مـن قـام بذلـك في افريقيـة[378]. و يرجـع ابـن خلـدون سـبب ذلـك إلى توليـة أبي الحسـن المرينـي لعبـد الواحـد بـن اللحيـاني عـلى قابـس و جربـة ويقـول في هـذا المجـال :» فانتفـض بنـو مـكي عـلى السـلطان أبي الحسـن و دعـوا إلى الخـروج عليـه و بايعـوا الأفضـل ابـن السـلطان أبي يحـي ...و كان مـن دواعـي رحلـة السـلطان أبي الحسـن مـن افريقيـة» [379]. و يمكـن اعتبـار الفـترة التـي تلـت هـذه الأحـداث و التـي امتـدت الى أكـثر مـن عقديـن مـن أملـع و أقـوى فـترات حكـم بنـي مـكي . و مـن أبـرز أسـباب هـذه القـوة التحالـف بينهـم و أولاد مهلهـل أقـوى القبائـل البدويـة آنـذاك [380] و اسـتغلالهم لتناقضـات الداخليـة بـين الأمـراء الحفصيـين و ذلـك بالتحالـف مـع أبي زيـد أمـير قسـنطينة [381] عـلى حسـاب السـلطان الشرعـي إبراهيـم بـن أبي بكـر. كـما جنـح بنـو مـكي إلى التعامـل مـع القـوى الخارجيـة مـن ذلـك محاولـة التحالـف مـع سـلطان تلمسـان[382] ثـم التعامـل مـع أبي عنـان ابـن أبي الحسـن المرينـي و قـد سـاعد هـذا الأخـير بنـي مـكي ماديـا عـلى اسـترجاع طرابلـس اثـر احتلالهـا مـن طـرف الجنويـين سـنة 754هــ/1353 م [383]. و منـذ ذلـك التاريـخ بقيـت طرابلـس تحـت سـلطة أحمـد بـن مـكي حتـى سـنة 766هــ/1365 م ثـم خلفـه عليهـا ابنـه عبـد الرحـمان حتـى سـنة 772هــ/1370-1 م حـين اسـتردها منـه أبـو بكـر ابن

---

[377] ن م ، VI،949-950

[378] ن م ، VI،812،813،تاريخ الدولتين،82،83

[379] **العبر** VI،951

[380] تاريخ الدولتين ،93

[381] **العبر** VI،952،تاريخ الدولتين،93

[382] **العبر** VI،885

[383] ن م ، VI،837،953،تاريخ الدولتين،94-95

ثابت[384]. و في الأثناء و بتغلب أحمد ابن مكي على مدينة صفاقس سنة 757هـ/1356م[385] أصبح نفوذ بني مكي يمتد و لو بصفة وقتية من صفاقس إلى طرابلس . و يمكن التأكيد بدون شك أن هذه الفترة توافق عنفوان قوة بني مكي فأثناء اتصال أحمد ابن مكي بالأمير أبي زيد و عده :» الوفادة و المدد بالمال و الأحزاب و القيام بأعطيات العرب»[386]. و نفهم ضمنيا من ذلك أن قوته المادية و البشرية ربما فاقت قوة بعض الأمراء مما جعل بني مكي يهبون أحيانا لنجدة بعض أفراد السرة الحفصية، و هو ما تم فعلا سنة 759هـ/1358 م عندما قرر الأمير أبو يحي زكرياء الذي كان على المهدية التخلص من حاجبه المفروض عليه من طرف ابن تافراجين استنجد بأحمد ابن مكي ليقيم له رسم الحجابة[387] و بالتالي ليدافع عنه ضد سطوة ابن تافراجين . لكن لا ننسى أن فترة العنفوان هذه تسببت بالنسبة لهذا الكيان السياسي الناشئ و القليل الموارد في استنزاف قواه المادية و البشرية و قد ظهرت بوادر الضعف منذ سنة 763هـ/1362 م عندما انتزع ابن تافراجين جزيرة جربة من أيدي بني مكي[388] ثم تعمقت الأزمة نتيجة وفاة أحمد ابن مكي سنة 766هـ/1365 م[389] و هو الرجل الذي عمل طيلة حياته على بناء هذه القوة و إثر ذلك لم يكن انفراد أخيه عبد الملك بالسلطة كافيا لتفادي التقهقر و بداية نهاية بني مكي .

---

384 **العبر** VI،953

385 ن م ن ص

386 ن م ، VI،829

387 **تاريخ الدولتين** ،98

388 **العبر** VI،850،**تاريخ الدولتين**،101

389 **العبر** VI،885

3- نهاية أسرة أم نهاية نظام؟

اثـر فقـدان جربـة ثـم طرابلـس تقلـص نفـوذ بنـي مـكي إلى حـدود مدينـة قابـس فقـط و في نفـس الوقـت بسـط السـلطان أبـو العبـاس أحمـد نفـوذه عـلى بقيـة مناطـق الجنـوب التونـسي: قفصـة و تـوزر ونفطـة كـما أصبـح يهـدد بصفـة مبـاشرة مدينـة قابـس و ربمـا حـاول عبـد الملـك بـن مـكي في هـذه الظـروف الاسـتغاثة بسـلطان تلمسـان[390]، و ربمـا حـاول أيضـا التعبـير عـن تمسـكه بالسـلطان الحفـصي و طاعتـه و الوفـاء لـه [391]، غـير أن أوضـاع بنـي مـكي أصبحـت تنبـؤ بالانحـلال و الضعـف حيـث ثـارت ضدهـم بعـض القبائـل المجـاورة لهـم مـن سـليم: بنـو أحمـد واحـدي بطـون دبـاب[392] كـما تامـرت ضدهـم بعـض المجموعـات داخـل المدينـة نفسـها و تنكـرت لهـم[393] كل هـذه الأوضـاع جعلـت السـلطان الحفـصي أبي العبـاس أحمـد الـذي التـف حولـه أولاد مهلهـل و أحلافهـم مـن سـائر سـليم و أخـذ بطاعتـه مشـيخة دبـاب أعـراب قابـس مـن بنـي سـليم[394] يعجـل بالقضـاء عـلى حكـم بنـي مـكي بقابـس في ذي القعـدة مـن سـنة 781هـ/فيفـري 1380 م .[395]

أمـا بعـد هـذا التاريـخ و اثـر وفـاة عبـد الملـك بـن مـكي سـنة 781هــ/ 1380م قـام حفيـده عبـد الوهـاب بـن مـكي بمحاولـة ناجحـة لاسـترجاع حكـم المدينـة سـنة 783هــ/1381 م لكـن الـصراع الداخـلي ضـد عمـه يحـي الـذي رجـع مـن الحـج مطالبـا بحقـه في الحكـم جعلـت الأسرة أضعـف مـن ذي قبـل . فرغـم تمكـن يحـي مـن قتـل ابـن أخيـه والاسـتبداد بالحكـم سـنة 790هــ/1388 م لم تـدم فـترة حكمـه سـوى

---

390 ن م ،ن ص

391 ن م ، VI،886

392 ن م،ن ص.

393 ن م،ن ص.

394 ن م،ن ص.

395 ن م ، VI،887، تاريخ الدولتين،111

ست سنوات انتهت بقتله سنة 796هـ/1394 م من طرف الأمير عمر ابن السلطان أبي العباس أحمد و بذلك انقرضت سلطة بني مكي نهائيا [396].

هكذا دامت رئاسة بني مكي لقابس حوالي 172 سنة أي أكثر من ثلاثة أجيال (120 سنة) حسب التحديد الخلدوني لعمر الدولة ويمكن أن نتساءل هل أن هذه الطريقة في الحكم التي عرفتها قابس في هذه الفترة يمكن أن تنطبق على الهيكل السياسي الذي نطلق عليه عادة اسم دولة؟ لقد أطلق الباحث مايكل برات بصفة اعتباطية اسم مدينة دولة (city state) على النظام الذي وجد في طرابلس و قابس[397] في تلك الفترة و هو إسقاط لأنماط حكم وجدت في حضارات أخرى مثل الحضارة الإغريقية في العصور القديمة على أوضاع افريقية أثناء العهد الحفصي و لتفادي هذا النوع من الإسقاط يجب الانطلاق من المصادر المعاصرة لهذه الكيانات وأساسا ما كتبه ابن خلدون الذي يستعمل عدة تسميات لتعريف هذه الظاهرة مثل : مشيخة، وشورى، و رئاسة، ورئيس المشيخة ...وهي تعريفات أطلقها على المجموعات المتنفّذة و المسيّرة للمدن البعيدة نسبيّا عن العاصمة مثل بسكرة و قفصة و توزر و نفطة و قابس وطرابلس و يقول ابن خلدون في هذا المجال :« و ان لم يكن في مصر ملك فلا بد فيه من رئاسة و نوع استبداد من بعض أهله على الباقين و ذلك الرئيس يحملهم على طاعته و السعي في مصالحه إما طوعا ببذل المال ..وإمّا كرها إن تمت قدرته على ذلك و لو بالتخريب بينهم...»[398] . هذه الرئاسة المحلية تفتقد إلى الكثير من ركائز الدولة أو الإمارة مثل : البيعة و الدعاء للأمير و السكة ...

---

[396] **العبر** VI،956

[397] Michael BRETT,the city-state in medieval Ifriqiya :The Case Of Tripoli, *CT*, XXXIV,n°137-138,1986,p89

[398] **المقدمة**،I،277

وهو ما يفسر قبولها من طرف السلاطين الذين اعتمدوا عليها في الكثير من الحالات جاعلين منها أداة من أدوات الحكم و قد رأينا كيف حاول بنو مكي في العديد من المرات الحفاظ على وفائهم للسلطان الشرعي و هو موقف كثيرا ما جعل منهم أعداء لأمراء آخرين و ربما وضعهم في موقع الخارج عن السلطة المركزية و يمكن الافتراض أيضا أن طموحهم في أغلب الأحيان لا يتعدى هذا الدور الذي قبلته السلطة المركزية فمن حين لآخر نجدهم يسارعون إلى مبايعة السلطان الجديد أو المتغلب مثل: الدعي ابن أبي عمارة أو أبي الحسن المريني... كما أن بسط نفوذهم على بعض المناطق مثل جربة و طرابلس كان قد تم بموافقة السلطان و مساعدته وبصفة عامة يمكن القول أن استقلاليتهم قد اقتصرت على تطبيق مبدأ الوراثة على مستوى محلي و على الإعفاء الجبائي أحيانا . ولعل من أبرز الأدلة على ذلك أن هذه الرئاسة المحلية أو المشيخة كانت ظاهرة عادية هي أن الرحالة التجاني الذي زار المدينة سنة 706هـ/1306 م عندما كان مصاحبا لابن اللحياني لم يشر إلى ممثل السلطة في هذه المدينة بل تجاهل حتى اسم مضيفهم .... غير أن هذه الظاهرة العادية التي كانت منتشرة في أطراف السلطنة تطورت أثناء ضعف السلطة المركزية نحو المزيد من الاستقلالية و التي يتم التعبير عنها بالامتناع عن دفع الضرائب . لكن عندما تسترجع السلطنة قوتها فإن رد الفعل يمكن أن يتعدى فرض السيادة إلى القضاء على كل من يمكنه أن يتجاهل هذه السلطة و قد وافق رد الفعل هذا بالنسبة لبني مكي تقلص قاعدة تحالفاتهم القبلية فنتيجة نوع من العقلية الانتقامية انحازت بعض قبائل بني سليم كدباب و أولاد مهلهل إلى جانب السلطان[399] و ربما لم ينس هؤلاء أبدا أن بني مكي تولوا رئاسة قابس اثر إزاحة بني سليم الذين كانوا إلى جانب ابن غانية في حربه ضد الموحدين . و كانت نهاية بني مكي

[399] **العبر** ،VI،886؛ **تاريخ الدولتين**،110

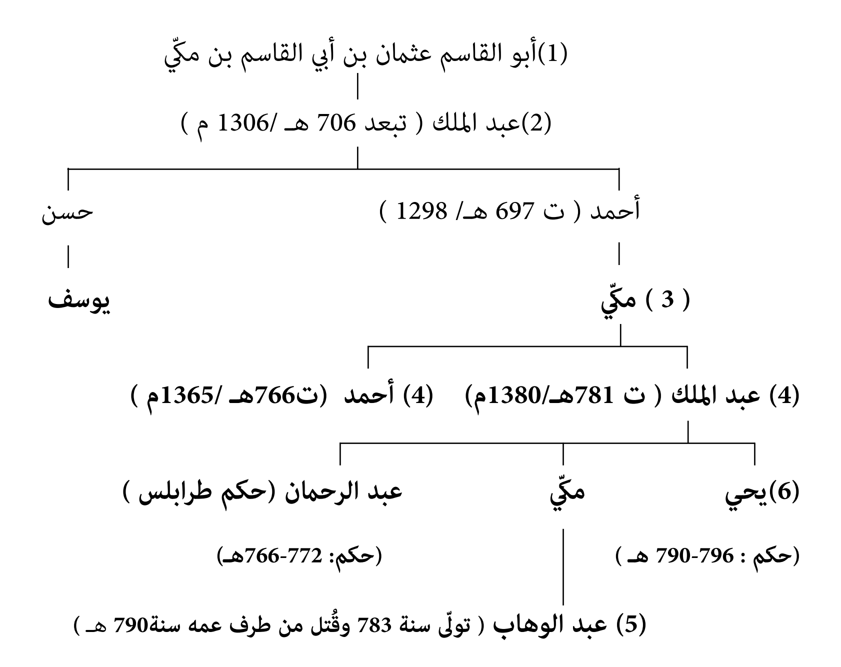
تعبر عن انحطاط نمط مجتمع ما هو إلا انعكاس لنظام ارتكز على الاعتماد الإرادي على قوى محلية كانت وظيفتها الرئيسية التصرف في آلة عسكرية غير قارة وهو ما جعل مصير هذه الأسرة مرتبط بتنامي طاقتها القتالية أو تراجعها و قد وصل هذا النمط مرحلة التأزم التي ارتبطت فيها نهاية الأسرة باحتضار هذا النظام.

الخاتمة

أخيرا يمكن أن نتساءل انطلاقا من تجربة بني مكي هل كان بإمكان هذه الأسر المحلية أو المشائخ أن تتفادى هذا التطور السلبي الذي عرفته لتتخذ منحى ايجابيا على شاكلة المدن الايطالية في تلك الفترة؟ يبدو أن هذه النظم التي عرفت نوعا من التسيير الذاتي ولو لفترات محدودة لم تحاول التركيز على تطوير الأنشطة الاقتصادية داخل هذه المدن مثل قابس أو طرابلس بقدر ما اعتمدت على استنزاف طاقة قتالية بشرية عادة غير قابلة للتجدد في مجتمع تمثل الحرب نشاطه الرئيسي لكن تبقى كل محاولة تفسير أو تأويل منقوصة ما لم تتم دراسة الحياة الاقتصادية في هذه المدن و خاصة بمدينة قابس أثناء رئاسة بني مكي .

شجرة نسب بني مكي (حسب ابن خلدون)

أصلهـم يتصـل ب: مـكي بـن فـراج بـن زيـادة اللـه بـن أبي الحسـين بـن حمـد بـن زيـادة اللـه بـن أبي الحسـين اللـواتي .



* تولى الأخوان عبد الملك و أحمد في نفس الفترة ثم انفرد عبد الملك بالسلطة .

المحلة في العهد الحفصي

يمثل العهد الحفصي على المستوى السياسي مرحلة انتقالية بين النمط الخلدوني للدولة الذي يحدد ظهورهما و نموها و انحطاطها بعصبية قبلية مؤسسة و بين النمط السياسي الذي أوجده العثمانيون بعد احتلالهم افريقية و تميز هذا النمط السياسي الانتقالي الذي واكب تطور الدولة الحفصية بتجاوز الضعف المنجر عن التفكك التدريجي للعصبية المؤسسة و ارتباط الدولة أكثر فأكثر بشخصية السلطان الذي أصبحت له القدرة على تجديد و تغيير الو لاءات القبلية وغيرها و من أهم الأدوات إن لم نقل الأداة الأساسية التي سمحت للسلطان بأن يمطط عمر دولته: الجهاز العسكري و خاصة المحلة.

- متى و كيف ظهرت المحلة بافريقية؟
- كيف تطورت؟
- و ما هي الوظائف التي قامت بها؟

I ظهور المحلة بافريقية

المحلة في اللغة العربية هي مكان النزول و يقول الفيروز آبادي « حل المكان و به يحل ...نزل به كاحلته و به فهو حال ...والمحلة:المنزل [400] و اتخذت المحلة معنى الحي أو التجمع السكني

[400] الفيروز أبادي،**القاموس المحيط** ، الجزء III القاهرة1031هـ،ص،348

و يفيدنا نفس المصدر بوجود أربعة عشر موضعا بمصر تحمل اسم محلة[401] أما في النصوص المغربية و خاصة الأندلسية منها فيبدو ان المحلة اتخذت معاني أخرى تختلف تماما عن معنى المنزل أو الحي أو الخطة فابن القوطية (ت 367هـ/977 م) في «تاريخ افتتاح الأندلس» يستعمل الكلمة بمعنى المرحلة و بمعنى العساكر المتنقلة وفي نفس الصفحة يقول « فلما قرب (القائد بأن أبي عبدة) من ديسم (بن إسحاق) بمثل محلتين كتب إليه يأمره بإيراد ما يجب عليه من الجباية[402] و يضيف بعد ذلك بقليل :» ثم قالوا له (أصحاب ديسم) إذا قربت محلته منا طالعنا عسكره حتى نرى قدره...»[403] و ربما بقي استعمال الكلمة بمعنى المعسكر أو العساكر المتنقلة محدود حتى القرن الخامس هجري/الحادي عشر ميلادي فصاحب « أخبار مجموعة في فتح الأندلس « لا يستعمل الكلمة إلا بمعنى المرحلة فقط مثل قوله :« لم ينتقل إلا محلة » [404] أو «واتبعهم العدو أياما يأسرونهم و يقتلونهم في كل محلة» [405] و مما لا يدع إلى أدنى شك أنه قبل نهاية القرن الخامس هجري أصبحت الكلمة تعبر بصفة نهائية عن المعسكر و يظهر ذلك من خلال النصوص المعاصرة لمعركة الزلاقة (479 هـ) أو التي ظهرت بعدها وأثناء وصفه لهذه المعركة كتب عبد الله بن بلكين الذي كان شاهد عيان لما دار آنذاك :« و لم يكن بين المحلتين (معسكر ألفونس السادس و معسكر يوسف بن تاشفين) إلا نحو ثلاثة أميال »[406] كما

---

[401] نفس المصدر، الجزء III ص،348

[402] ابن القوطية(أبو بكر محمد بن عمر)**تاريخ افتتاح الأندلس**، تحقيق إبراهيم الابياري،القاهرة بيروت،1982،ص،119

[403] نفس المصدر،ص،119

[404] **أخبار مجموعة في فتح الأندلس** (مجهول)مدريد 1867،ص،139

[405] نفس المصدر،ص، 156

[406] عبد الله بن بلكين، **التبيان عن الحادثة الكائنة بغرناطة**(مذكرات الأمير عبد الله) القاهرة 1955،ص105

أورد ابـن عبـد المنعـم الحمـيري رسـالة بعـث بهـا المعتمـد بـن عبـاد إلى ابنـه باشـبيلية جـاء فيهـا :«كتـابي هـذا مـن المحلـة يـوم الجمعـة الموفى عشريـن مـن رجـب...»[407] وفي نفـس المناسـبة حفـظ لنـا ابـن أبي زرع رسـالة منسـوبة ليوسـف بـن تاشـفين تحـدث فيهـا عـن ألفونـس السـادس قائـلا:« و نظـر النهـب والنـيران في محلتـه مـن كل جانـب..»[408] هـذا الاسـتعمال المبكـر للكلمـة بالأندلـس و لـو بمعـاني مختلفـة جعلهـا تنتقـل إلى بـلاد المغـرب عـن طريـق المرابطـين أولا ثـم الموحديـن مـن بعدهـم متخـذة معنـى محـددا: العسـاكر المتنقلـة و يظهـر ذلـك مـما كتبـه البيـذق[409] أو ابـن صاحـب الصـلاة[410] حيـث يتكـرر تحدثهـما عـن محلـة الموحديـن و نسـتبعد أن تكـون المصـادر الشرقيـة قـد اسـتعملت الكلمـة بهـذا المفهـوم حتـى تلـك الفـترة فبهـاء الديـن بـن شـداد (539هــ/1145 م-632هــ/1239 م) صاحـب سـيرة صـلاح الديـن كثـيرا ما يعـبر عـن العسـاكر المتنقلـة أو المعسـكر بمصطلـح « الثقـل»[411] في حـين أن ابـن شـامة صاحـب كتـاب الروضتـين يسـتعمل كلمـة محلـة بمعنـى «الحـي» أو « الربـض» [412] ولا سـبيل للشـك هنـا أن كلمـة محلـة بمعنـى العسـاكر المتنقلـة قـد انتقلـت إلى افريقيـة مـن المغرب على أقـصى تقدير مـع الموحديـن و تدلنـا عـلى ذلـك بعـض الإشـارات التـي وردت ضمـن مصـادر معـاصرة لبدايـة العهـد الحفـصي فالبيـاسي (573هـ/653هــ) الـذي كان مـؤرخ أبي زكريـاء يحـي الحفـصي اسـتعملها في كتابـه تذكـير

[407] محمـد بـن عبـد المنعـم الحميري،**الـروض المعطـار في خـير الأقطار**،بـيروت 1980،مـادة زلاقـة ص 291

[408] ابن أبي زرع،**الأنيس المطرب بروض قرطاس** ، الرباط 1972ص،151

[409] البيذق،**أخبار المهدي بن تومرت** ، الرباط 1971،ص،61-59-58-57-54-53

[410] ابن صاحب الصلاة، **تاريخ المن بالامامة**،بغداد 1979،ص،282،192،172،122

[411] بهـاء الديـن ابـن شـداد ،**النـوادرة السـلطانية و المحاسـن اليوسـفية** ، القاهـرة 1964،ص، 177-176-175

[412] شهاب الدين عبد الرحمان المقدسي المعروف بأبي شامة، **كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية و الصلاحية** ،القاهرة1962،الجزء1،ق 2 انظر مثلا،ص 452-451

العاقـل و تنبيـه الغافـل الـذي أورد ابـن خلـكان عـدة فقـرات منـه[413] أمـا أقـدم نـص معـروف لدينـا ويتحـدث عـن محلـة حفصيـة فهـو رحلـة التجـاني (ت بعـد 717هــ/1317 م) وهـذه الرحلـة في حـد ذاتهـا كانـت وصفـا لتنقـل محلـة داخـل افريقيـة و يمكـن اعتبارهـا أيضـا مذكـرات مسـافر مصاحـب للمحلـة مـع بدايـة القـرن الثامـن هجري/الرابـع عـشر ميـلادي.

ويسـتعمل التجـاني كلمـة محلـة للدلالـة عـن العسـكر المتنقـل أمـا مـكان الاسـتراحة أو الاسـتقرار الوقتـي للعسـاكر فعـبر عنـه بكلمـة منـزل[414]أو منـازل [415]أو منـاخ[416] و إن ظهـرت المحلـة بافريقيـة كحركة عسـكرية عفويـة فـان اتجـاه نظـام السـلطة نحـو خلـق تـوازن بـين المؤسسـة العسـكرية الرسـمية (جنـد السـلطان) و الطاقـة القتاليـة للقبائـل البدويـة جعلهـا تتحـول شـيئا فشـيئا إلى حركـة منظمـة . ففـي مـا يخـص جيـش الحفصيـين نلاحـظ انـه تحـول شـيئا فشـيئا مـن مجموعـات قبليـة تتبنـى دعـوة الموحديـن و تدافـع عنهـا بتلقائيـة مناضلـة إلى جيـش شـبه نظامـي يعتمـد عـلى الارتـزاق و قـد واكـب هـذا التحـول تناقـص عـدد جنـود هـذا الجيـش الـذي كان في بدايـة العهـد الحفـصي يعـد بعـشرات الآلاف إذ تفيدنـا المصـادر إن الجيـش أبي زكـراء يحـي الأول أثنـاء حملتـه ضـد تلمسـان سـنة 639 هجـري/1241 ميـلادي كان يعـد أربعـة و سـتون ألـف فـارس [417] لكـن هـذا العـدد عـرف تراجعـا كبـيرا في الفـترات المواليـة حيـث تتحـدث المصـادر عـن ألـف فـارس مـع منتصـف القـرن التاسـع

[413] ابن خلكان،**وفيات الأعيان** ،بيروت 1968،الجزء VII،ص118

[414] أبو محمد عبد الله التجاني، رحلة تونس 1981،انظر مثلا ص 5،55،66

[415] نفس المصدر،ص،85

[416] نفس المصدر،ص 57

[417] ابن القنفد القسنطيني،**الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية**،تونس 1968،ص109 أبو عبد الله محمد الشماع ،**الأدلة البيئة النورانية في مفاخر الدولة الحفصية**،تونس 1984،ص59

هجري/الخامس عشر ميلادي [418]أو ألف و خمسمائة فارس مع بداية القرن العاشر هجري/السادس عشر ميلادي[419] هذا النقص العددي الناتج عن اتجاه الجند نحو شكل نظامي محترف (يتطلب أرزاق و مصاريف قارة) ثم تعويضه بطاقات عسكرية بديلة و غير ملزمة وفرتها القبائل البدوية و التي تزايد دورها بالموازاة مع تقلص دور الجند الرسمي . و قد سيطرت هذه القبائل على بوادي افريقية وخنقت مدنها بداية مع عهد السلطان أبي إسحاق إبراهيم بن أبي زكرياء (678هـ/681هـ) و يقول الزركشي في هذا المجال:» استولت العرب في أيامه على القرى و هو أول من كتب البلاد الغربية بالظهارة للعرب»[420] و منذ تلك الفترة أصبح سلاطين بني حفص لا تتم لهم سلطة دون مساندة هذا الشق أو ذاك من أعراب افريقية و حتى الأقوياء من هؤلاء السلاطين لم يستغنوا عن هذه الطاقات القتالية الرديفية التي أصبحت تمثل العنصر الهام في المحلة وهو ما جعل المصادر تقرن في بعض الأحيان بين السلطان و القبائل مثل قول ابن ناجي :» وردت محلة السلطان بعربها»[421] أو قول الزركشي :« أولاد أبي الليل و سلطانهم»[422]. و بصفة عامة كان على مختلف سلاطين بني حفص إن يعملوا على الحفاظ على التوازن بين ركيزتي حكمهم: الجند النظامي المتجه نحو الاحتراف و التقلص العددي و الطاقة العسكرية الرديفية التي مثلتها القبائل البدوية وقد نجح الأقوياء من هؤلاء السلاطين (أبو العباس أحمد،أبو فارس عبد العزيز،أبو عمرو عثمان) من توظيف هذا التوازن لصالحهم وجعلوا من المحلة أداة أساسية من أدوات حكمهم.

---

418 الزركشي،**تاريخ الدولتين الموحدية و الحفصية**، تونس 1966،ص143

419 الحسن الوزان (ليون الإفريقي)**وصف إفريقيا** ،بيروت 1983،الجزء II،80

420 الزركشي،**تاريخ الدولتين الموحدية و الحفصية**،ص43

421 ابن ناجي، **معالم الايمان في معرفة أهل القيروان**،تونس 1978،الجزء IV،ص171

422 الزركشي،**تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية**،ص،133

II المحلة الحفصية و تنظيمها

كانت حركات العساكر في بداية العهد الحفصي و أثناء القرن السابع هجري/الثالث عشر ميلادي لا تخضع لتنظيم أو ضبط معين من حيث المسالك المتبعة و أوقات أو مواسم خروج المحلة و قيادتها ...لكن مع نهاية هذا القرن و بداية القرن الثامن هجري / الرابع عشر ميلادي بدأت هذه الحركات تكتسب بعض التقاليد الثابتة بخصوص مكان تجمع العساكر قبل انطلاقها و ربما أيضا ما يخص المسالك المتبعة و ستظهر بعض التطورات الأخرى في الفترات الموالية.

أ - مكان تجمع العساكر قبل خروج المحلة

يورد التجاني بأن رادس هي« المنزلة الأولى للمحال و العساكر دائما لا يتجاوزونها إلى غيرها» [423] و قوله دائما لا يتجاوزونها يعني وجود تقاليد سابقة جعلت من رادس نقطة انطلاق لامحال و إن يصعب علينا هنا التشكيك في ما أورده التجاني بوصفه شاهد عيان فبالإمكان بالاعتماد على ما جاء في المصادر الأخرى افتراض إن هذه النقطة تخص مسلكا واحدا و هو المسلك الشرقي أو الساحلي لان بقية المصادر لا تتحدث قط عن رادس بل تذكر مراكز أخرى لتجمع العساكر و خاصة المتجهة نحو الغرب أو القادمة منه و في هذا الإطار يمكن ذكر : سيجوم [424]أو سبخة باب خالد [425]أي منطقة سبخة السيجومي حاليا كما يتكرر لنا اسم موقع أخر أصبح في القرن التاسع هجري/الخامس عشر ميلادي نقطة انطلاق للامحال

[423] **رحلة التجاني**،ص،5

[424] ابن خلدون،**العبر** ، الجزء IV ،بيروت1983،ص696

[425] الزركشي،**تاريخ الدولتين الموحدية و الحفصية**،ص133،137.انظر أيضا الفارسية،ص142

وهـو : السـعترية أو الزعترية [426] و هـي منطلـق العسـاكر نحـو واحـات الجنـوب و بـلاد الصحـراء : بـلاد ريـغ و تقـرت ورقلـة و مـزاب [427]و لا تمدنـا المصـادر بإشـارات تمكننـا مـن تحديـد هـذا الموقـع و نرجـح أن يكـون قريبـا مـن المحمديـة أو لعلـه هـو نفسـه المـكان الـذي عـبرت عنـه المصـادر بمنـزل المحمديـة[428] هـذه المراكـز يقيـم بهـا الجنـود عـدة أيـام قبـل سـفرهم حيـث يكتمـل تجمعهـم و يتسـلمون أرزاقهـم [429] ويكملـون عدتهـم و اسـتعدادهم لغيـاب ربمـا يطـول و يحدثنـا التجـاني عـن ذلـك قائـلا :« فنزلنـا يومنـا ذلـك بـرادس عـلى سـتة أميـال مـن تونـس و أقمنـا بهـا ثلاثـة عـشر يومـا إلى أن اسـتوفى الأجنـاد مـن الحـضرة مرادهـم و أكملـوا لمـا يسـتقبلون مـن السـفر اسـتعدادهم»[430].

ب- مسالك المحلة

نرجـح عـلى الأقـل وجـود مسـلكين رئيسـيين تتبعهـما المحلـة الحفصيـة أثنـاء تنقلهـا إلى داخـل البلاد:مسـلك شرقـي و أخـر غربي.أمـا المسـلك الشرقـي فقـد وصفـه التجـاني بـكل دقـة في رحلتـه و هـو يحاذي السـاحل انطلاقـا مـن رادس إلى حامـة الجزيـرة (حـمام الأنـف) ثـم يتجـه إلى الحمامـات فاهريقليـة و يصـل حتـى مـرورا بسوسـة وزرمديـن وجـمال و الجـم و صفاقـس و طينـة المحـرس.. و مـن قابـس يمكـن العبـور الى جربـة و طرابلـس أو الاتجـاه غربـا نحـو نفـزاوة و بـلاد الجريـد. و بغياب النصـوص يصعـب علينـا تحديـد ملامـح المسـلك أو المسـالك الغربيـة لكن لا نسـتبعد وجـود مسـالك تنطلـق مـن سـبخة السـيجومي إلى قسـنطينة

[426] نفس المصدر،ص،156-143-137-59

[427] نفس المصدر،ص،156

[428] ابن القنفد، **،الفارسية** ،ص142،الزركشي،**تاريخ الدولتين،**62

[429] الزركشي،**تاريخ الدولتين الموحدية و الحفصية**،ص،138

[430] **رحلة التجاني**،ص،5

ثـم بجايـة عـبر بـلاد باجـة،و أخـر ينطلـق مـن المحمديـة إلى بـلاد الـزاب و الجريـد و يمـر حتـما عـبر القـيروان . و يحـدد لنـا الأسـتاذ عبـد الـرزاق قراقـب أثنـاء دراسـته لرحلـة التجـاني طـول المسـلك الشرقـي ب 1009 كلـم تـم القيـام بهـا في سـتة و ثلاثـين يومـا أي بمعـدل 28 كلـم في اليـوم و اسـتخلص أنهـا تتبـع تقريبـا المسـالك الرومانيـة القديمـة . [431]

ج- توقيت خروج الأمحال و تواتر ذلك

مـن المؤكـد أنـه مـع بدايـة العهـد الحفـصي لم يكـن خـروج المحلـة يخضع لتوقيـت معـين بـل كانـت الأحـداث هـي التـي تمـلي خـروج العسـاكر سـواء لتمهيـد البـلاد أو للدفـاع عـن العـرش أو لفـرض الجبايـات و ربمـا اتخـذت الحـركات في بعـض الفـترات الاسـتقرار نسـقا موسـميا فأثنـاء حديثـه عـن أبي عبـد اللـه الفـازاري الـذي كان السـلطان أبي حفـص قـد عقـد لـه عـلى العسـاكر (الامحـال) يقـول ابـن خلـدون بأنـه « هلـك أخـر حركاتـه إلى بـلاد الجريـد عـلى مرحلتـين مـن تونـس سـنة ثـلاث و تسـعين و سـتمائة»[432] و نفهـم ضمنيـا مـن ذلـك أن هـذه الحـركات كانـت متعـددة و ذات وجهـة محـددة لـذا نفـترض أنهـا كانـت موسـمية و بصفـة عامـة لا تسـمح لنـا المعلومـات المتفرقـة حـول خـروج المحلـة بتأكيـد أي رأي فيـما يخـص الفـترة الأولى مـن حكـم الحفصيـين بخصـوص القرنـين السـابع و الثامـن هجري/الثالـث عـشر و الرابـع عـشر ميـلادي غـير أن المعلومـات المضبوطـة التـي أوردهـا الزركـشي و التـي تخـص أواخـر القـرن الثامـن هجـري /الرابـع عـشر ميـلادي و طيلـة القـرن التاسع هجري/الخامـس عـشر ميـلادي (انظـر الجـدول) تـبرز لنـا التواتـر السريـع لخـروج المحلـة ثـم تحولهـا مـع منتصـف القـرن التاسـع هجـري

[431] A.GRAGUEB , « Le voyage de Tijani dans le sud », *Les Cahiers de Tunisie*, t,XXIV,n°93-94-1976 p 41

[432] ابن خلدون،**العبر**،الجزء VI،ص707

/ الخامس عشر ميلادي أي أثناء فترة حكم السلطان أبا عمر عثمان (839هـ/1435م-894هـ/1488م) إلى حركة سنوية شبه قارة و يؤكد هذا الرأي ما أورده الشماع عندما قال:« و من مآثره (أي أبو عمرو عثمان)..ملازمته للسفر في كل عام لردع المفسدين في الأرض و كفهم عن إذابة العباد»[433] و حسب ما ضبطه الزركشي من تواريخ فان أغلب أوقات خروج المحلة يكون في الخريف أو أثناء الصيف مع العلم أن خروج المحلة في الصيف يجعل الرجوع الذي يتم عادة بعد عدة أشهر يوافق فصل الخريف أو حتى فصل الشتاء و نأخذ على سبيل المثال لذلك المحلة التي قادها أبو عمرو عثمان بنفسه ضد تلمسان [434] فإنها خرجت من تونس في 7 شوال 866 هجري الموافق للخامس من جويلية 1462 ميلادي و عادت إليها في 17 صفر 867 هجري/11 نوفمبر 1462 ميلادي أي دامت أكثر من أربعة أشهر بقليل.

بعض أوقات خروج المحلة

السنة	الشهر	الوجهة	المصدر
797هـ/1359م	رمضان/جوان-جويلية	تبسة	تاريخ الدولتين،118
798هـ/1396م	شعبان/ماي	قسنطينة	تاريخ الدولتين،119
802هـ/1400م	شعبان/مارس/أفريل	قفصة-توزر	تاريخ الدولتين،120
803هـ/1400م	محرم/أوت-سبتمبر	طرابلس	الفارسية،198
804هـ/1401م	؟	بسكرة	الفارسية،198
805هـ/1402م	؟	؟	الفارسية،199
809هـ/1406م	؟	غدامس	تاريخ الدولتين،122
810هـ/1407م	؟	قبائل حكيم	تاريخ الدولتين،123
830هـ/1427م	ذو القعدة/سبتمبر	قسنطينة	تاريخ الدولتين،127
835هـ/1432م	ذو الحجة / أوت	قفصة	تاريخ الدولتين،129

[433] **الادلة**،ص132

[434] الزركشي،**تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية**،ص،153-152

853هـ/1449م	شعبان/سبتمبر	تقرت	تاريخ الدولتين،143
855هـ/1451م	شوال/نوفمبر	طرابلس	تاريخ الدولتين،150
861هـ/1457م	رجب/جوان	طرابلس	تاريخ الدولتين،150
862هـ/1458م	ذو الحجة/أكتوبر	طرابلس	تاريخ الدولتين،151
863هـ/1459م	شعبان / جويلية	؟	تاريخ الدولتين،151
864هـ/1460	؟	بجاية	تاريخ الدولتين،151
866هـ/1462م	شوال/جويلية	تلمسان	تاريخ الدولتين،152
867هـ/1463م	رجب/مارس	الأعراب	تاريخ الدولتين،153
868هـ/1464م	ذوالحجة/أوت	؟	تاريخ الدولتين،155
869هـ/1465م	ذو الحجة/أوت	تغرت	تاريخ الدولتين،156
870هـ/1466م	ذو القعدة/جوان	تلمسان	تاريخ الدولتين،157

د- قيادة الأمحال

لا توجد قاعدة محددة في بداية العهد الحفصي لتعيين من يقود المحلة و قد حاول السلطان أبو إسحاق (678هـ/1279م-681هـ/1283م)أن يعين أولاده لهذا الغرض حسب ما ذكره ابن خلدون:« و كان السلطان يؤثر أبناءه بمراتب ملكه و يوليهم خطط سلطانه فعقد في رجب سنة إحدى و ثمانين (أكتوبر 1282م) على عسكر من الموحدين و الجند و بعثه إلى قفصة للإشراف على جهاتها و ضم مجابيها.. ثم عقد لابنه الأخر أبي محمد عبد الواحد على عسكر و أنقذه إلى وطن هوارة لاقتضاء مغارمهم...»[435] لكن هذا التكليف لم يكن قاعدة متبعة من طرف مختلف السلاطين فأحيانا نجد بعض شيوخ الموحدين يقومون بذلك[436] و المحلة التي صاحبها التجاني كان يقودها شيخ الموحدين أبو يحي زكرياء بن اللحياني

---

[435] ابن خلدون،العبر، الجزء VI،ص687

[436] نفس المصدر، العبر، الجزء VI،ص707

[437] كـما كلـف الحفصيـون بعـض قوادهـم مـن العلـوج للقيـام بهـذا العمـل [438]و في بعـض الحـالات يقـوم السـلطان نفسـه بقيـادة المحلـة مثلـما فعـل أبـو عصيـدة سـنة 698هـ/1299م [439]أو أبـو يحـي أبـو بكـر سـنة 745هـ[440] و كلـف بهـذا العمـل أيضـا الحجـاب و الـوزراء الأقويـاء مثـل : محمـد بـن الحكيـم [441]أو ابـن تافراجـين[442]...و أثنـاء ضعـف السـلطنة تمكـن أحـد قضـاة الجماعـة و هـو محمـد بـن خلـف اللـه النفطي(تـولى القضـاة مـن سـنة 766هـ/1365م إلى 770هـ/1369م) من قيـادة المحلـة[443] و في هـذا الصـدد يقـول ابـن ناجـي :« و كان ..الفقيـه أبـو عبـد اللـه محمـد بـن خلـف لمـا تـولى قضـاء الجماعـة بتونـس يخـرج بالمحلـة لبـلاد الجريـد لضعـف السـلطنة..»[444]أما مـع نهايـة القـرن الثامن هجري/الرابـع عـشر ميـلادي و أثنـاء القـرن التاسـع هجـري /الخامـس عـشر ميـلادي و بعـودة السـلطنة إلى سـالف قوتهـا أصبحـت المحلـة في الكثـير مـن الأحيـان ترجـع للسـلطان فقـط أو لأحـد أبنائـه [445] و خاصـة في عهـد أبي فـارس عبـد العزيـز ثـم في فـترة حكـم أبي عمـرو عثـمان . وفي هـذه الفـترة بالـذات لم تعـد المحلـة مجـرد أداة مـن أدوات الحكـم فحسـب بـل أيضـا الشـكل الرئيـسي و ربمـا الوحيـد لممارسـة السـلطة في إطـار جغـرافي معـين

---

[437] الزركشي،تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية،ص،56

[438] ابن خلدون،العبر، الجزء VI،ص628،733،الفارسية،ص179،الزركشي،تاريخ الدولتين،ص61

[439] الزركشي،تاريخ الدولتين الموحدية و الحفصية،ص54

[440] نفس المصدر،ص،77

[441] ابن خلدون،العبر، الجزء VI،ص782،784

[442] الزركشي،تاريخ الدولتين الموحدية و الحفصية،ص78

[443] نفس المصدر،ص،102

[444] ابن ناجي،معالم الايمان، الجزء IV،ص201

[445] ابن خلدون،الفارسية،ص188

هـ - الخطط المنظمة للمحلة

في غياب قوانين مدنية لتسيير البلاد (خاصة و أن القوانين المنظمة للحياة داخل المدينة بصفة خاصة تخرج عن إدارة السلطان، وهي أساسا قوانين شرعية و ممارستها و تطبيقها تبقى حكرا على الفقهاء) فان المحلة في فترة قوة السلطنة و خاصة بفضل طابعها الارغامي أصبحت عبارة عن مؤسسة منفصلة عن المجتمع و لها هياكلها الخاصة بها و المنظمة لها و أولى هذه الخطط: قاضي المحلة ويبدو أن هذه الخطة ظهرت في عهد السلطان أبي فارس عبد العزيز (796هـ/1349م-837هـ1434م) لان أول قضاة المحلة الذين ذكرتهم المصادر هو أبو العباس أحمد الشماع الذي كان قاضيا للمحلة و خطيبا بجامع القصبة في عهد أبي فارس و قد توفي سنة 833 هجري/1430 ميلادي [446] و إثره توالى على هذه الخطة [447]أبو عبد الله محمد المسراتي ثم أحمد بن كحيل و أبو عبد الله الزنديوي ومحمد الرصاع و محمد القسنطيني و نلاحظ أن المصادر التي تهتم بالتراجم و الطبقات تهمل الحديث عن هذه الخطة و أصحابها وكأنها تعتبرها خطة غير شرعية لذلك فإننا لا نعرف الكثير عن وظائف قاضي المحلة و أثناء حديثه عن أبي عبد الله محمد الزنديوي ذكر الرصاع بأنه :« قاضيا بالمحلة المظفرة في عسكرها» [448] و كان صاحب هذه الخطة ينتقل مع المحلة و يحكم في النوازل التي تجد بين أفراد الجند فأبو عبد الله محمد الرصاع أثناء حديثه عن شرح ابن يونس للمدونة قال:« فكان عندي في السفر أبي يونس فأفتح الكتاب مع الموضع الذي أعتقد إن النازلة به...»[449] و تذكر لنا المصادر بعض الخطط الأخرى المرتبطة بالمحلة

---

[446] الزركشي،**تاريخ الدولتين الموحدية و الحفصية**،ص128،138

[447] نفس المصدر،ص،128،147،152،158

[448] أبو عبد الله الرصاع،**فهرست الرصاع** ،تونس،1976،ص140

[449] نفس المصدر،ص،151

مـن ذلـك: مفتـي العسـكر و كان المتـولي لهـذه الخطـة في عهـد أبي فـارس أخـاه ، أبـا عبـد اللـه محمـد الحسـين[450] و مـن هـذه الخطـط أيضـا : كاتـب الجيـش و شـاهد الجيـش[451] و كل هـذه الوظائـف متأخـرة ويرجع ظهورهـا إلى القـرن التاسـع هجـري / الخامـس ميـلادي و أوائـل القـرن العـاشر هجـري /السـادس عـشر ميـلادي لعـلّ دمهـا خطـة قـاضي المحلـة و يمكـن القـول إن هـذه الهيـاكل التـي ظهـرت في إطـار جهـاز غـير دينـي يعكـس بـروز المحلـة كمؤسسـة و يعكـس أيضـا تطـور جسـم مـوازي للمجتمـع ومسـتقل عنـه (خاصـة باسـتقلاله عـن أهـم جهـاز مراقبـة : أي الفقهـاء).

III وظائف المحلة

اسـتعملت المصـادر المعـاصرة للفـترة الحفصيـة عـدة ألفـاظ لتحديـد مهـام المحلـة مـن ذلـك : تمهيـد الوطـن [452]و تفقـد العمـلات [453]حسـب قـول ابـن خلـدون و الجبايـة و التمهيـد كـما يذكـر الزركـشي [454] أو ردع المفسـدين حسـب الشـماع [455] و بصفـة عامـة لعبـت المحلـة الحفصيـة أدوار متعـددة و متفاوتـة الأهميـة أهمهـا: جمـع الضرائـب و فـرض السـيادة عـلى بعـض المناطـق إضافـة لمـا يمكـن إن تقدمـه المحلـة بصفـة غـير مباشرة مثـل الحمايـة التـي توفرهـا لبعـض المجموعـات مـن الحجيـج و التجـار [456]الذيـن يصحبونهـا في مرحلـة معينـة خاصـة عندمـا عـرف خـروج المحلـة نوعـا مـن الانتظـام الـدوري.

[450] نفس المصدر،ص،31،**شجرة النور الزكية**،ص245

[451] حسن حسني عبد الوهاب، **كتاب العمر**، الجزء 1،تونس 1990،ص343

[452] ابن خلدون،**العبر**، الجزء VI،ص660،707

[453] نفس المصدر، الجزء VI،ص675

[454] لزركشي،**تاريخ الدولتين الموحدية و الحفصية**،ص101

[455] **الادلة** ،ص،102

[456] عمر علي الجزائري الراشدي،**مناقب سيدي بن عروس**،تونس،1303هـ،ص 482،476

أ - الدور الجبائي

ما من شك أن الغرض الأساسي من خروج المحلة هو جمع الضرائب من المناطق و القبائل الخاضعة للسلطان، و التي تشمل مختلف المناطق الحضرية بما في ذلك منطقة قفصة و الجريد التي تذكرها المصادر من حين لأخر بسبب رفضها دفع هذه الضرائب و أغلب المعلومات التي وردت في المصادر حول ضم المجابي من المناطق الحضرية تذكر بلاد الجريد [457]كذلك تتحدث المصادر من حين لأخر عن ضم مجابي هوارة[458] و عن جباية بونة [459] ونفهم ضمنيا من ذلك إن المناطق الحضرية وبواديها و القبائل البربرية هي المستهدف الأول و الرئيسي للأمحال الحفصية. أما القبائل البدوية الهلالية فان المجموعات المتحالفة منها السلطان تتقاسم معه هذه المداخيل وتشاركه في جمعها و قد حاول شيخ الموحدين ابن تافراجين منذ منتصف القرن الثامن هجري/الرابع عشر ميلادي إن ينظم هذه العلاقة بين السلطان و القبائل البدوية في اتجاه إعطاء دور أهم للسلطان و ذلك عندما قال لأشياخ هذه القبائل :« لا بد لكم من وكيل ينوب عنكم في مجابي البلاد، انظروا ما تبلغ حاجتكم في كل عام و أنا أوفيها لكم»[460]غير أن هذه العملية لم تنجح إذ أن الأوضاع ظلت كما هي دون تغيير و يفيدنا الزركشي بأنه في سنة 781هجري /1379 ميلادي في عهد أبي العباس أحمد جاء بعض شيوخ قبائل الأعراب لهذا السلطان « يتوسلون في إسعافهم بالمحلة إلى بلاد الجريد لاقتضاء مغارمهم على العادة و استيفاء اقتطاعاتهم..»[461] وكان السلاطين الأقوياء من بني حفص يحاولون دائما حرمان القبائل

---

[457] **رحلة التجاني**،ص320،4،**العبر**، الجزء VI،ص687،**تاريخ الدولتين**،ص56..

[458] ابن خلدون،**العبر**، الجزء VI،ص687،تاريخ الدولتين،ص78،111

[459] الزركشي،**تاريخ الدولتين الموحدية و الحفصية**،ص103

[460] **الادلة**،ص،102

[461] الزركشي،**تاريخ الدولتين الموحدية و الحفصية**،ص111

القوية من مشاركتكم في جمع المجابي مثلما فعل أبو فارس [462] و أبو عمرو عثمان [463]لفترات قصيرة ثم يعود الأمر إلى ما كان عليه و في أخر العهد الحفصي لما دخل خير الدين بربروسة مدينة تونس سنة 942هجري/1535ميلادي كتب إليه أشياخ الأعراب : ..» إن الملوك من بني حفص كانت لنا عليهم عوائد و جرايات نأخذها منهم تبقى بذلك بين أسلافنا و أسلافهم فان التزمت لنا بها فنحن نخدمك .. (فوافق على ذلك بشروط) و أمرهم أن يبعثوا إليه بالدفاتر التي بأيديهم فيها كم أخذوا و كم بقي لهم..»[464] و هذا يعني أن العلاقة بين الطرفين أصبحت منظمة بواسطة عقود أو وثائق مكتوبة.

ب - الدور الإداري و السياسي

يظهر هذا الدور من خلال العبارات التي استعملتها المصادر بخصوص خروج المحلة مثل :« تفقد العمالات»[465]أو « فيما وراء الحضرة»[466]أو عقد له على الضاحية [467]و عن المحلة التي قادها أبو عبد الله محمد المنتصر سنة 838هجري/1435ميلادي حدد الزركشي هدفها قائلا :« برسم تفقد بلاده و تهدين أوطانها...»[468] و قد سمحت هذه الحملات شيئا فشيئا ببسط نفوذ السلاطين الإداري و السياسي على العديد من المناطق فمنذ منتصف القرن الثامن هجري/الرابع عشر ميلادي بدأت سلطة الحفصيين تتقدم على حساب القوى الأخرى ويخبرنا الشماع بان الشيخ ابن تافراجين استخلص منهم (أي

---

[462] عبد الله الترجمان ،**تحفة الاريب** ،تونس 1983ص21

[463] الزركشي،**تاريخ الدولتين الموحدية و الحفصية**،ص153

[464] **تاريخ عروج**،مخطوط د،ك،و تونس رقم 13745،45

[465] ابن خلدون،**العبر**، الجزء VI،ص675

[466] نفس المصدر، الجزء VI،ص782

[467] نفس المصدر، الجزء VI،ص696

[468] الزركشي،**تاريخ الدولتين الموحدية و الحفصية**،ص132

الأعـراب) جميـع بلـزد قرطاجنـة و القـيروان و سوسـة و باجـة و تبرسـق و الاربـس و جعلهـا بأيـدي خدامـه...[469] و في عهـد السـلطان أبي العبـاس أحمـد ازدادت السـيطرة الادارـيـة عـلى مناطـق أخـرى مـن البـلاد و يـورد ابـن النفـد إن هـذا السـلطان اسـتخلص « جميـع البـلاد كلهـا الا طرابلـس و بسـكرة فكانتـا تحـت طاعتـه بنظـر شـيخهما»[470] و قـد تمكـن اخـر كبار سـلاطين بنـي حفـص: أبـو عمـرو عثـمان مـن السـيطرة بصفـة كليـة عـلى جميـع المناطـق التابعـة لافريقيـة الى حـد أنـه أصبـح يتدخـل في الشـؤون الداخليـة للقبائـل التـي خضعـت لـه مـدة طويلـة إداريـا و سياسـيا وفي سـنة 867هجري/14463ميـلادي و بعـد عصيـان: أولاد مسـكين وأولاد يعقـوب و الشـنانفة مـن أولاد مهلهـل و بعـض المجموعـات الأخـرى التي انضافـت إليهـم قـرر السـلطان أبـو عمـرو عثـمان بعـد ان انتـصر عليهـم تغيـير كل مشـائخهم (وهـو أمـر يقـع لأول مـرة بافريقيـة) وحسـب قـول الزركـشي :« جعـل عـلى كل طائفـة ممـن خالفـه رجـلا منهـم أمـا أخـا للشـيخ أو عـما أو ابـن عـم و أخـذ أولادهـم مراهـين و بعثهـم إلى الحـضرة و أنزلـوا بـدار قـرب القصبـة و أجريـت عليهـم النفقـات و سـار بالشـيوخ الذيـن عقـد لهـم في طلـب المخالفـين الى أن وصـل إلى بلـد نفطـة..» و بعـد ذلـك عفـى عنهـم بـشرط « أن ليـس لهـم في المشـيخة شيء و إنمـا لمـن عقـد لـه..»[471]

هـذه التطـورات تسـمح لنـا بالقـول بـان الدولـة كمفهـوم مؤسسـاتي تقدمـت بفضـل المحلـة هـذه القـوة المنظمـة على حسـاب مفهـوم الدولة كأمـر يتـداول و قـد رافـق هـذا التقـدم بـروز نـوع مـن التنظيـم الإداري تمثـل أساسـا في تعيـين القيـاد عـلى مختلـف المـدن منـذ عهـد أبي العبـاس أحمـد 772هـ/1370م-796هــ/1394م) و هـو تنظيـم عممـه أبـو فـارس عبـد العزيـز 796هـ/1394م-837هــ/1434م)و دعمـه أبـو عمـرو عثـمان

[469] **الادلة** ،ص،102

[470] ابن القنفد ،**الفارسية**،ص188

[471] الزركشي ،**تاريخ الدولتين الموحدية و الحفصية**،ص154-153

(839هـ/1435م-849هـ/1488م) الـذي حكـم أكـثر مـن نصـف قـرن. وليسـت المحلـة الحفصيـة أداة عسـكرية و إداريـة فقـط بـل كانـت أيضـا أداة حكـم و أحيانـا مركـزا متنقـلا للسـلطة ففـي العديـد مـن المـرات تمـت بيعـة السـلطان الجديـد أول الأمـر و لـو كانـت بتلمسـان مثلـما وقـع سـنة 837 هجـري عندمـا بويـع أبـو عبـد اللـه محمـد المنتـصر خلـف جـده أبـا فـارس[472] و كانـت الأوامـر تصـدر مـن المحلـة مثـل : أمـر قطـع الخمـر مـن تونـس سـنة 681هجري/1283ميـلادي[473] و في سـنة 863هجـري/1459 ميـلادي بعـث أبـو عمـرو عثـمان مـن المحلـة بأمـر تقديـم عـدول و بتوليـة قـاضي قسـنطينة كـما أمـر مـن المحلـة أولا بعـزل قـاضي الأنكحـة أحمـد القسـنطيني ثـم بإرجاعـه لخطتـه فيـما بعـد[474]

خاتمة

لا يمكـن عـزل مسـألة المحلـة الحفصيـة و تطورهـا عـن مسـألة السـلطة وممارسـتها و توزعهـا فقـد ظهـرت في إطـار نمـط سـياسي يفتقـر للمؤسسـات هـذا النمـط تمثله الدولـة السـلطانية أو دولة السـلطان التي احتكـر فيهـا الفقهـاء بالمـدن سـلطة تنظيـم الحيـاة العامـة والجماعيـة و اقتسـم فيهـا السـلطان الـثروة و جـزء مـن السـلطة السياسـية مـع القبائـل البدويـة التـي كانـت عبـارة عـن داء ضروري بالنسـبة إليـه و قـد مكنـت المحلـة الدولـة السـلطانية مـن التطـور شـيئا فشـيئا نحـو خلـق سـيادة تـم تكريسـها في المـدن و فرضهـا أحيانـا عـلى القبائـل البدويـة أي في إطـار مجـال جغـرافي ربمـا كان سـيصبح « مجـالا و طنيـا» لـولا تدخـل الأتـراك بافريقيـة.

[472] نفس المصدر،ص،131،انظر كذلك عدة أمثلة أخرى ،**العبر**، الجزء VI،ص626،**تاريخ الدولتين** ص62-59-33

[473] نفس المصدر،ص،47

[474] نفس المصدر،ص،151

فهرس المواضيع